

سلسلة النصوص الفلسفية

- ١٣ -

خوف ورعدة

تأليف

سرن كيركجور

ترجمة

فؤاد كامل

١٩٨٤

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني
تليفون ٩٠٤٦٩٦

خوف ورعدة

تاليف

سِرِن كيركجور

ترجمة

فؤاد كامل

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني
تليفون ٩٠٤٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

الى الشاعر الكبير

صلاح عبد الصبور

رائد الشعر الحر ...

والذى كان أول من شجعنى على ترجمة هذا الكتاب

فؤاد كامل

مقـــدمة

بقلم

وولــتر لاورى

مترجم الأصل الدنماركى الى الانجليزية

من الغـــريب أن « يوميات » كيركجور الكاملة لا تكاد تتضمن اية اشـارة الى اعداد أيا كان لهذا الكتاب : « خوف ورعدة » . فهنا ، كما هى الحال فى مؤلفاته الجمالية جميعا ، تكون المقدمة اللازمة ــ الزم ما تكون ــ هى معرفة قصة « سرن كيركجور » ، وهى فى هذه الحالة بوجه خاص ــ قصة خطبته وفسخها المأساوى ، وهى القصة التى يمكن أن يطالعها القارىء فى كتابى عن كيركجور . ولهـــذا سأقتصر هنا على ايراد مجـــرد قائمة بالتواريخ التى يتلاحق بعضها اثر البعض الآخر ، ومن ثم تكشف عن السرعة الخارقـــة التى تعاقب بهـــا انتاج كيركجور الأدبى . كان ١١ أكتوبر ١٨٤١ هو تاريخ قطيعته النهائية مع ريجينا ، وسرعان ما رحل الى برلين لمتابعة دراسة الفلسفة فى ظاهر الأمر ، ولكنه لم يتغيب عن وطنه الا فيما بين ٢٥ اكتوبر ١٨٤١ و ٦ مارس ١٨٤٢ . وفى ٢٠ فبراير ١٨٤٣ ظهر أول كتاب عظيم له فى مجلدين هو « اما .. أو » ، وكان يتباهى بأنه فرغ من كتابه فى ثمانية أشهر . وصحبت هـــذا العمل ــ وان يكن ذلك متأخـــرا بعض الوقت ــ « ثلاثة أحاديث تهـــذيبية » ، وضعت بين يدى الناشر فى ٦ مايو (وصدرت بعد ذلك بعشرة أيام) . وفى الثامن مـــن مايو رحل كيركجور مرة أخـــرى الى برلين . ولكنه لم

يمكث هناك أكثر من شهرين ، فلدينا من الشواهد ما يؤكد أنه عاد الى كوبنهاجن فى شهر يوليو . وقد شرع فى هذه الفترة القصيرة فى تأليف كتابيه : « خوف ورعدة » و « التكرار » وانتهى من تأليفهما ، وهـو أمر يبدو عصيا على التصديق ، ونشر الكتابان فى ١٦ أكتوبر من العـام نفسه ، وعلى الرغم من هذه العجلة التى كتبا بها ، الا أنهما من أكمـل انتاجه الشاعرى . وهما يحكيان كفاحه اليائس من أجل العزوف عـن كل أمل فى السعادة الأرضية عندما تنازل عن امكانية الزواج بالمرأة التى أحبها . ونحن نعلم أنه بينما كان يكتب هـذين الكتابين ، كان صراعه للوصول الى ذلك التسليم يزداد تعقيدا بما خالطه من أمل فى أن يتخذ من ريجينا حتى ذلك الحين زوجة له . يبدو ذلك واضحا فى « التكرار » بحيث كان عليه أن يغير النص عند عودته الى كوبنهاجن ، عندما علم أن ريجينا قد عقدت خطبتها فعلا على شخص آخر . ولما كان « خوف ورعدة » « أنشودة جدلية » ، فقد استوت على نسق من الجلال بحيث لم يـكن فى الامكان ادخال أى تعديل عليها . اذ لم تكن النقطة الرئيسية فى القصة واردة قط فى أن يسترجع ريجينا كما استرد ابراهيم ابنه اسحق حيا .

وحتى عندما كان الأمل يراوده ، فانه كان يأمل ضد الأمل . فهو يقول فى « يومياته » التى كتبها حينذاك :

« ومن ثم ، فان الايمان يأمل ايضا فى هذه الحياة ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن ذلك بفضل اللامعقول ، لا بفضل العقل الانسانى والا كان الأمل حكمة عملية ، ولم يكن ايمانا . الايمان اذن هو ما يسميه الاغريق الجنون الالهى . وليست هذه مجرد ملاحظة تمليها البديهة الحاضرة ، ولكنها فكرة يمكن تفصيلها فى وضوح » .

وفى تدوينة من « يوميات » هـذه الفترة نتبين أن كيركجور قبـل نشره هـذين الكتابين اللذين لم يستمدهما من تجربته فحسـب ، بل اللذين تعرضـا لمحبوبته أيضا ـــ كان يفكر فى النذالة التي يمـكن أن يتصف بها مثل هذا العمل :

« ان قانون الذوق الذى يخول للكاتب الحق فى استخدام ما تعرض له من تجربة ؛ هو الا ينطق بالحقيقة أبدا ؛ بل عليه أن يحتفظ بها لنفسه ، وان يتركها تلوح بطرق شتى » .

وقد يشك المرء فى أن يكون هذا القانون الخاص بحسن الذوق قد روعى مراعاة دقيقة فى « التكرار » ؛ ولكن من المؤكد أن كتابه « خوف ورعدة » لم يتضمن اية مجازفة فى أن يتعرف انسان غيره على ريجينا فى شخصية اسحق ، بل ربما وجدت « ريجينا » صعوبة فى التعرف على نفسها فى شخصية « آجنس » Agnes التى حملها الغرانق * بعيدا . فهنا يتخلخل نور الحقيقة الابيض الى درجة أنه حتى القارىء الذى يلم بقصة كيركجور كما كان يعرفها معاصروه قد يحتاج الى ان نخبره بأن تضحية ابراهيم باسحق هى رمز على تضحية كيركجور بأعز شىء لديه على هذه الارض . والقارىء الذى لا يعرف هذه القصة يجب أن نخبره بأنه لكى يحرر كيركجور ريجينا من ارتباطها به و « يطلقها للابحار » ، شعر كيركجور انه لكى يفعل ذلك ، فلابد أن يكون من القسوة بحيث يجعلها تعتقد أنه كان مجرد وغد يتلاعب بعواطفها .

وبغض النظر عن تدوينة واحدة فى اليوميات توحى بامكانية اعادة صياغة القصة المألوفة عن آجنس والغرانق ، فهناك فقرة واحدة فحسب توحى بمشروع كتابه « خوف ورعدة » . وأنا أوردها كاملة لانها عميقة الدلالة على أن فكرة كتاب بأكمله تأتى الى كيركجور فى معظم الاحيان على هيئة بارق خاطف (أوائل مايو ١٩٨٣) :

« فلنفترض (كما لم يرد فى العهد القديم أو فى القرآن) أن

---

* مخلوق بحرى خرافى له جسد رجل وذيل سمكة (المورد — ص ٥٧٢ — طبعة ١٩٧١) . (ف . ك)

اسحق كان يعلم ان موضوع الرحلة التى كان عليه ان يقطعها مع أبيــــه الى جبل المريا هـــو تقــــديمه كقربان ـــ ولـــو ان شاعرا يعيش الآن فى جيلنا ، لا مكنه أن يروى ما دار بين هذين الرجلين من حديث أثناء سيرهما. ويمكن أنيفترض المرء أيضـــا ان حياة ابراهيم السابقة لم تكن نقية من الاثم . وربما دعته الآن ان يغمغم بين انفاسه ان هذا عقاب اللـــه ، بـــل ربما جعله المرء عرضـــة لان تخطر على باله هـــذه الفكرة الحزينة بأنـــه ينبغى عليه أن يؤيـــد اللـــه فى أن تأتى العقوبة كأثقـــل مـــا تكون . وانى لافترض أن ابراهيم قـــد نظر فى بـــداية الامر الى اسحق بكل مـــا يملك من حب أبوى ، وان محياه المهيب ، وقلبه المنكسر قـــد جعلا حديثه شـــــديد التأثير ، فهو يهيب بابنه ان يتحمل مصيره صابرا ، وأوحى اليـــــه أن يفهم فى شىء من الغموض أنه ـــ وهو أبوه ـــ يعانى من هـــذا الامر أكثر ممـــــا يعانيه . ومع ذلك ، لم يكن وراء هـــــذا كله من طائل . واظن بعد ذلـــك أن ابراهيم انصرف عنـــــه لحظة ، وعندما التفت اليه مرة أخرى لم يكـــد اسحق يتعرف عليه ، فقد كانت عيناه ضاريتين وانتصبت خصلات شعره المهيبة فوق راسه كمـــا تنتصب خصلات ربات الغضب . واطبق بيـــديه على عنق اسحق ، واستل سكينه قائلا : « ان كنت تعتقد أننى أفعـــــل هذا فى سبيل الله ، فأنت مخطىء ، انـــا رجل وثنى ، وقـــد استيقظت فى نفسى هذه النزعة من جديد ، وأريـــد أن أقتلك ، هـــذه مشيئتى ، فأنـــا أسوأ من أى آكل للحوم البشر ، فلتيأس أيها الولـــد الاحمق الذى يتخيل اننى ابوك ، انا لست الا قاتلك ، وهذه مشيئتى » . وجثـــــا اسحق على ركبته وصاح مستغيثا بالسماء : « أيها الاله الرحيم ، أرحمنى ! » وهنـــا حدث ابراهيم نفسه قائـــــلا بصوت خفيض : « هكـــــذا ينبغى أن يكون الامر ، فمن الافضل بعد كل هـــذا ان يعتقد أننى وحش ضار ، وان يلعننى لاننى كنت أباه ، بدلا من أن يعرف ان الله هو الذى قضى بهذا الامتحان ، فلربما ضاع رشده حينذاك ، وربما صب لعناته على الله » .

« ولكن اين فى عصرنا ذلـــك الشاعر الذى يستطيع أن يشعر بمثـــل هـــذه الصراعات ! ومع ذلك فان سلوك ابراهيم كان شاعريا بحق ، وكان شهما بـــل أعظم شهامة من كل مـــا قرأته فى كتب المـــآسى »

« وعندما يصل الطفل الى سن النطام ، فان الام تسود له ثـديها ، ولكن عينها مازالت تنظر الى طفلها بنفس الحنـان . ويظن الطفل أن الثـدى هو الذى تغير ، على حين أن الام لم تتغير . ولكن لمـاذا تسـود الام ثديها ؟ لانها تقول انه من العار أن يبدو لذيذا فى الوقت الـذى ينبغى فيـه على الطفل الا يناله ــ وهـذا التعارض ينحل فى يسر ، لان الثـدى ليس الا جزءا من الام نفسها . ومـا أسعد الانسان الـذى لم يعـان من صراعات أشـد هولا ، ولم يجد نفسـه فى حاجة الى تسويـد نفسه » ؛ ولم يتطلب منه الامر ان يدخل جهنم ليرى كيف تكون هيئـة الشيطان حتى يحاكى تلك الهيئة لانقـاذ شخص آخر ، أو على الاقل انقاذ علاقة ذلـك الشخص باللـه . هـذا هو الامتحان الذى تعرض له ابراهيم .

« ... والشخص الذى يفسر هـذا اللغز يكون قـد فسر حياتى . ولكن ، أين بين معاصرى من فهم هـذا ؟ » .

ولم يكن كيركجور يتوقع أن يكون مفهوما ، بـل لـم يكن يريد ذلك . ومن ثـم يقول المؤلف المستعار لكتاب « التكرار » فى ختام الكتاب « انـه مثـل كلمنت الكسندرينوس يكتب بطريقة بحيث لا يفهمـه الكفار » . وفى « خوف ورعدة » يوحى الاسم المستعار نفسه وهو « يوحنـا الصامت » Johannes de Silentio وكذلك الشعار المكتوب فى ظهر صفحة العنوان والتى استعارها من هامان ، تذكرنا بالقصة الشهيرة عن رومـا القديمـة التى تحكى أنه عندما استطاع ابن تاركينيوس سوبربوس (ومعناها الفخم أو الجليل) ان يكسب بدهائه ثقة شعب جابى ، ارسل حينذاك رسـولا سريا الى والده فى روما يسأله عن الخطـوة التالية التى ينبغى أن يقـوم بها . غير أن والـده الذى لم يستطع أن يضع ثقته فى الرسول ــ أخـذه الى حديقة القصر ، وأثناء سيره جعل يضرب بعصـاه الرؤوس الطويلـة لنبات الخشخاش . وفهم الابن (عندما روى لـه الرسول مـا كان يفعله أبوه فى الحديقة) ان عليـه أن يقتل عليـة القوم فى المدينة ، وشرع فى هـذا فعلا . ويقول كيركجور فى يومياته أن الشعار الذى خطر له بادىء الامر هو مثـل نشأ أول ما نشأ عنـد هردر ، وان كان قد استقاه هـو

أيضا من هامان مباشرة على الصورة التى (يكاد) يستخدمها به هنا :

« اكتب . » ــ « لمن ؟ » ــ « اكتب للأموات الذين احببتهم فى الماضى » ــ « وهل سيقرأوننى ؟ » ــ « أجل ، لانهم يعودون على هيئة الاجيال اللاحقة » . غير أن سرن كيركجور قام بتصحيح حزين ، فبدلا من الاجابة الاخيرة كتب ببساطة « كلا . » وفى حالة مزاجية اكثر تفاؤلا خطر له أن يتخذ من عنوان مسرحية شكسبير « العبرة بالخواتيم » شعارا له . وفى مأساوية أشد هذه المرة ، عن له أن يتخذ الشعار الذى استخدمه فعلا فى ذلك الجزء من كتابه « مراحل » Stages الذى يروى حكاية حبه«لقدهلكت ان لم اكن قدهلكت» Periisem nisi periisem وهذا الشعار أيضا اخذه عن هامان الذى عزاه بدوره الى « كاتب أغريقى » .

وافتقار « اليوميات » الى أية تلميحات بشأن « خوف ورعدة » يبدو أمرا ملحوظا بوجه خاص اذا علمنا انه فى هذا الوقت بالضبط الذى كان يكتب فيه هذا الكتاب وكتاب « التكرار » ، وبسبب هذا الانشغال كتب تدوينات قلائل فى « اليوميات » عددها تسعة وأربعون على أكثر تقدير ، منها خمس عشرة تدوينة تدل على أن ذهنه كان يروض افكارا لم يكن بد من تطويرها فى مؤلفات متأخرة ، وعددا آخر كان مازال فى طور الولادة . ومن هذه الافكار ستة موضوعات بارزة موحية ظهرت فى العام التالى فى كتابه « مراحل » . فشخصية « الترزى العصرى » الذى تحدث فى « المأدبة » قد رسم ملامحها الرئيسية فى خمس تدوينات . ومن القصص البارزة المروية فى « يوميات فلان » فى مكان التدوينة المخصصة للخامس من كل شهر فى منتصف الليل يقترح هنا أربع قصص هى : « مناجاة الابرص » و « حلم سليمان » و « المحاسب المجنون » (امكانية) ، و « نوبختنصر » . فضلا عن ذلك نجد اعدادا لقصة « أبيلارد وهلويزه » يتفق مع حالته ، والغريب فى الامر أن هذا الاعداد لم يستخدم لملء المكان الذى ظل شاغرا بتاريخ ٥ يوليو . وهناك أيضا خطة لكتابة « انتيجونتى » My Antigone التى تناولها فى

« اما .. أو » ، ولكنه لم يكتبها بالتفصيل قط ، ومشروع كتاب عنوانه :
« المقاطع المخروطية » Conic Sections دراسة للحياة فى كوبنهاجن فى ساعات مختلفة من اليوم تبرز فيها طبقات شتى . ولا تنفصل كثيرا عن هذه التدوينات فى « اليوميات » ، وان تكن مكتوبة فى تاريخ متأخر نوعا ما ، توجد بعض الاقتراحات « للمأدبة » ، ول « يوميات المغرر رقم ٢ » ، ولدراسة للشيطانى التى ربما ظهرت فى حديث المغرر خلال « المأدبة » ، ودراسة لمغررة أنثى Female Seducer كان سيطلق عليها اسم « يوميات هيتيرا » * The Diary of Hetera . وليس من شك أن ازدحام عقل انسان بكل هذه الأفكار فى آن واحد شىء يخالف المألوف . ولعل فى هذا ما يبرر قول كيركجور فى « اليوميات » التى كتبها آنذاك : « اننى أعيش من خلال نفسى شعرا أكثر مما يوجد فى جميع الروايات مجتمعة فى صعيد واحد » . ولم يلبث أن كتب الى صديقه « بويزن » بعد عودته من برلين قائلا : « لقد انتهيت من كتابة كتاب أرى أنه مهم ، وأنا بسبيلى الى كتابة كتاب جديد . كنت مريضا فى البداية ، ولكننى تحسنت الآن تحسنا نسبيا ، أعنى أن روحى تنبسط ، واغلب الظن أنها بهذا تقتل جسدى . ذلك أننى لم أعمل قط كما اكدح الآن . فأنا أخرج قليلا فى الصباح ، ثم أعود الى المنزل ، وأقبع فى حجرتى دون انقطاع حتى الساعة الثالثة . وأكاد لا أبصر بعينى . ثم ترانى أستند على عصاى متجها الى المطعم ، ولكننى فى حالة من الضعف بحيث لو نادانى شخص بصوت مرتفع لسقطت من توى ميتا . وأعود الى المنزل لأبدأ من جديد . ففى خلال الشهور الماضية أثناء اقامتى فى كوبنهاجن ، كنت املأ على مهل خزان دش كبير ، والآن هاأنذا أشد الحبل ، فتنهمر الافكار على راسى — أطفالا أصحاء ، مرحين فرحين

---

* كان القانون الاثينى يحظر زواج الاثينيين من غير الاثينيات ، ومن ثم كان الأثينيون يتخذون لهم خليلات من المدن الأخرى وخاصة « ايونيا » . والترجمة الحرفية لكلمة هيثيرا هى « رفيقات » وهن أشبه اليوم بالغانيات أو فتيات الجيشا فى اليابان مثلا . (ف.ك)

متواثبين مباركين ، جاءوا الى الدنيا بولادة يسيرة ، ومع ذلك يحملون جميعا علامة شخصيتى .. أما فيما عـدا ذلك ، فأنا ضعيف ، كما سبق أن قلت ـ ساقاى ترتعشان ، وركبتاى لا تقويان على حملى » .

ولا أظن أن أفراح العبقرية وأحزانها يمكن أن توصف وصفا أشد تعبيرا . فقد كان كيركجور يعلم أنه عبقرية ، ولكنه كان يدرك ـ آسفا أيضا ـ كم كان عليـه أن يقاسى من أجـل ذلك . ومما له دلاله أنه اقتبس فى « يومياته » بشيء من الموافقة المتحفظة مثل لاتينيا يقـول :

« انه لم توجد قط عبقرية عظيمة دون شيء من الجنون » :

Nullum exstitit magnum ingenium sine aliqua dementia.

وهذا هو التعبير الدنيوى عن التأكيد الدينى بأن من يباركه الرب فانه فى الوقت نفسه **eo ipso** بالمعنى الدنيوى . وهكذا ينبغى أن يكون الامر . الاولى (أى البركة) ترجع الى قيود الطبيعة ، والثانية الى ازدواجها » .

وهنـا أقدم عدة ملاحظات ، وهى وان كانت تبدو خارجة عـن موضوع هذا الكتاب ، الا أنها تلقى كثيرا من الضوء على مؤلفه ، ذلك أن عبقرية سرن كيركجور لم تكن أشد ظهورا فى اى موضوع آخـر مثلما كانت فى « خوف ورعدة » .

والتفسير التالى لكتاب «خوف ورعدة» كتبه الاستاذ ديفيد ف. سوينسون **David F. Swenson** « للمجلة الفلسفية » **Philosophical Review** وأنا سعيد لحصولى على اذن من سوينسون لاستخدامه هنا لأننى اعتقد أنه اوضح عرض كتب على الاطلاق لهذا الكتاب . واليكم فيما يلى هذا العرض :

« بعد أن صور كيركجور الشعور الدينى بخلفية دينية كلية فى مؤلف سابق هو (اما .. أو) ، عنى فى هذا المجلد ببعض السمات المتميزة للمفهوم الدينى للايمان ، مأخوذا بالمعنى الأكثر تخصيصا حيث يكون أساسا للشعور الدينى . فهو يوصف هنا باعتباره عاطفة انسانية كبرى ، تؤثر فى الحياة اليومية بكل نواحيها ، ومن حيث يؤلف مضمونه الواقع الماهوى كله لوجود الفرد . وأوهام الفورية الساذجة ، ونتيجة لصلابة قبضته على الحيـاة

المتناهية بوصفها متميزة عن الانسحاب منها ، ذلك الانسحاب الذى يتولد عندما يكون التسليم هو الكلمة النهائية ، وبالنظر الى صراعاته مع الخوف والقشعريرة اللذين يشعر بهما بدافع من احساسه بالمسئولية وبالنظر الى انتصاره عليهما ، يصبح هذا الايمان أرقى العواطف الانسانية . وهو يعرض هاهنا بوصفه شيئا بطوليا ، كما يدرك فى صورة شاعرية بذلك الوجدان الجمالى الاصيل النابع من وقائع حياة كيركجور الشخصية .

« والمقومات المطلقة الرئيسية التى تعزى الى الايمان ، ويقوم بتفصيلها فى هذه المحاولة هى : ١ — **خصوصية** علاقته بالله بحيث يستغنى عن أى شكل من أشكال الوساطة الكلية — كالمجتمع والدولة والانسانية ، والتراث — **بحيث يعقد الفرد بوصفه فردا علاقة مطلقة مع المطلق . ٢ — الزهد** اللامتناهى فى الخيرات المتناهية التى تفترضها نفسيا ، وبهذا يفصل نفسه كلية عن تلك الاحلام الخاصة بتحقيق الرغبات التى يخلطها به الشخص الغرير . ٣ — **الحركة المزدوجة للروح التى تحيا بها فى المتناهى مرة أخرى** بعد تسليمها اللامتناهى ، ولكن بفضل صلة بالله لا تعتمد على حسابات **العقل . ٤ — التعليق الغائى المخيف لما هو اخلاقى كما يجسده ابراهيم** الذى يجعله خيال المؤلف الشاعرى يحيا فى الحاضر حياة زاخرة بالحيوية .»

هذا التعليق suspension للشعور الاخلاقى يجد تعبيرا أكثر جوهرية وشمولا فى الشعور المسيحى بالخطيئة وغفرانها ، وان يكن علاج هذا (الدافع) منسحبا هنا ، ليفسح له مكانا فى مجلد لاحق هو « مفهوم القلق » The Concept of Dread . وثمة أوجه أخرى للايمان يتناولها مجلد مصاحب هو « التكرار » .

ويركز كيركجور مقومات الايمان المتعددة فى مقولة واحدة هى (اللامعقول) مادامت حركة الايمان تبدو متسمة بالمفارقة بالنسبة للشعور العادى الذى ينشأ عنه الايمان . والمفارق Paradoxical هو تطوير كيركجور الدقيق المتقن لفكرة صورها الاغريق بصورة معتمة على أنها الجنون

الالهى (محاورة فايدروس لافلاطون) . ولما كان من الممكن أن يسىء القراء — حتى المفكرون منهم — فهم هذه المقولة عندما يتناولها على نحو شديد من خلال التضاد التقليدى الناقص بين الايمان والعقل ، فلعلهم أن يغفروا لى كلمة تعقيب . فليس لهذه المقولة صلة أيا كانت بالتعارض المفترض بين العقل والارادة . والحق أن كيركجور يعتقد أن أى فرد يسمح لحياته أن تبلغ ذروتها فى الفكر النافع ، أو الفكر النظرى أو المعرفة ينبغى أن يؤخذ على أنه ملهاوى من حيث الجوهر فى شرود ذهنه ، وان يدان أخلاقيا لمحاولته التملص من المهمة الجوهرية المنوطة بالوجود الانسانى والتى تتألف فى رأيه من تحقيق نوع من « الحسم الروحى » decisiveness of spirit الذى يشكل الروح ويؤسسها . بيد أن هذا لا يقتضى وضعا للتعارض بين العقل والارادة ، بل على العكس — يحتج على ترك هذه الحركة ناقصة ، اعنى الحركة التى يقوم فيها العقل والشعور والارادة عادة بأدوارها المتعددة .

والمفارق يضرب بجذوره فى تعارض مختلف تمام الاختلاف ، واعنى به التعارض بين الله وبين الانسان ، بين فهم الاله لما ينبغى أن تكون عليه الحياة الانسانية ، وفهم الانسان لهذه الحياة . ولا يظهر هذا التعارض الا عندما يصبح الفرد ناضجا من الوجهة الاخلاقية ، وعندما يكون قد تطور اخلاقيا ودينيا الى الدرجة التى يمكن أن يكون ثمة تساؤل عن اخضاع نفسه للالهى حتى يتحول تحولا جذريا نتيجة للنظام الذى تفرضه هذه العلاقة . وفى هذا الصراع تكمن قوة الفرد فى ضعفه ، وانتصاره فى انكساره . أما الفهم الانسانى ، والانسانى جدا للحياة التى انتهى الى العزوف عنها فليس وظيفة عقلية مجردة ، وانما شعور عينى يحتضن العقل **والشعور والارادة . أو بعبارة أخرى هى عقله بوصفه تعبيرا عما هو كائن عليه أصلا ، فى مضاد ما يطمح أن يصير اليه بالايمان . ومن ثم لا توجد** حقا أية مفارقة للايمان حين يكون كاملا ، وانما تكون المفارقة بالنسبة للفرد الانسانى الذى لا يستطيع أن يتفادى الفارق paradoxical

فى عملية الصيرورة دون أن يحد من العملية الروحية تحديدا متعسفا. والحاح كيركجور على المفارق يأتى نتيجة لتفضيله عميق الجذور فى فهمه للحياة الروحية اثناء صيرورتها ؛ ومن ثم من الوجهة الاخلاقية لا من الوجهة الجمالية ؛ وفى منظور قصير النظر ، أو فى عبارات سكونية Static .

ولا يبدى معظم الكتاب الذين يؤلفون فى فلسفة الدين أى تلميح الى وجود مثل هذا الصراع ، وأقل من هذا كثيرا أن يكشفوا عن أى فهم متعاطف لدلالته . واوصافهم للمواقف الروحية أشبه ما تكون بتلك التصاوير الساذجة التى ترسم منظرا بوجه عام فتفسح مكانا لكل شىء وللاشىء ووصف الدين بأنه تكريس لمثل أعلى دون تمييز لهذا من ذاك ، ودون ذكر كلمة واحدة عن هذا السؤال المهم جدا هو « كيفية » هذا التكريس : يكاد هذا الوصف أن يكون على درجة من التنوير كتلك التى نخرج بها عندما نقول عن الحديد انه عنصر فزيائى . أما بالنسبة لهؤلاء الذين كانت تجربتهم الروحية عينية بما فيه الكفاية بحيث يحتاجون الى توجيه عقلى أدق ، فان كيركجور يقدم لهم سيكلوجية ثرية عينية للجوانب المتباينة من حياة الروح ، ومقولاته محددة تحديدا قاطعا بما فيه الكفاية بحيث ترضى أصحاب الطموح العقلى » .

وقد غامرت فى كتابى عن « كيركجور » بالتعبير عن رأى (وهو رأى علمت فيما بعد أن الاستاذ ايمانويل هيرش Emanuel Hirsch قد أيده فى « دراساته الكيركجورية » بمزيد من الحجج) مؤداه أن « التكرار » كتب أولا . وتلاه بعد ذلك كتاب « خوف ورعدة » . وليست هذه على اية حال مسألة عظيمة الخطر ، لان خطة الكتابين كانت تدور فى ذهن كيركجور اصلا فى آن واحد ، كما نشر الكتابان فى يوم واحد . وهذان المجلدان الصغيران اللذان ظهرا مباشرة بعد المجلدين اللذين ظهر فيهما كتاب « اما .. أو » لاول مرة فى ٢٠ فبراير ١٨٤٣ (ولم ينشر شىء خلال هذه الفترة فيما عدا «ثلاثة احاديث تهذيبية» التى نشرت فى ١٦ مايو) — هذان المجلدان الصغيران يمكن أن نعدهما « اما .. أو » أخرى موجهة الى ريجينا ؛ واعتقد مع « هيرش » أن ما دفع كيركجور الى ترديد السؤال

بصورة مختلفة هو الارتباك العميق الذى عــاناه عندما رأى ريجينا تومىء اليــه براسها مرتين فى الكنيسة أثنــاء صلاة المساء يوم عيــد الفصـــح (١٦ ابريل ١٨٤٣) . وليس من شك أن هذا مـــا دفعه مرة أخرى الى المسارعة الى برلين ، وهناك وضع هذين الكتابين ، كما كتب هنــاك قبل ذلك بعام جزءا كبيرا من « أما .. أو » .

ولا مجال للشك لدينا فى أن ريجينا قرات الكتب التى قصدت بهــا ، لاننا نقرأ فى كتاب مــاير Meyer بعنوان Forlovelsen (المقــدمة ص IV) أنها طالعت كل كتبه ، ــ ولكنها طالعتها بصوت مرتفع فى حضرة زوجها . والاسئلة التى وجهت اليهــا فى هذه المجلدات الاربعـــة ، قد تمت الاجابة عليهاــ واحر قلباه ! ــ قبل أن توضع وضعا نهائيا .

ويلح هيرش بحق على أن خطبة ريجينا بوصفها مجرد واقعة بسيطة وكشفها لكيركجور عما فى انتاجه الشاعرى كله من باطل وغرور ، وارغامه على ادراك أن حياته حتى هــذه اللحظة ، بما فيهــا من فكر دينى وخبرة دينية ، لــم يكن لها أساس الا مجرد « الامكان » ــ هــذه الواقعـــة البسيطة كانت مناسبة لتحوله الدينى الاعمق .

ومن وجهة النظر الجمالية ، يعد كيركجور هذين الكتابين أكمل ما كتب على الاطلاق ، على الرغم من عملية البتر التى كان لابد أن يعانيها كتـــاب « التكرار » .وقد كتب فى « يومياته » بعد ستة أعوام : « أواه ، عندمـــا اموت سيكون كتاب « خوف ورعدة » كافيا وحده لمنحى لقب كاتب خالد . وعندئذ سيقرؤن الناس ، وسيترجم الى اللغات الاجنبية . وسيرتعد النـاس من العاطفة الرهيبة التى تجتاح الكتاب . أما فى الوقت الذى كتب فيـــه ، عندما كان الرجل الذى ينظر اليه على أنه الكاتب يتسكع مغمورا ولا يبـــدو اكثر من داعر فاجر حاضر البديهة ــ فى ذلك الوقت لم يستطع أحـــــد أن يفهم مـــا فيه من جدية . فيالكم من حمقى ، ما من كتاب كان على مثل هذا الجــد . أما مظهره ذاك ، فكان تعبيرا صادقا عن الفزع . فلو ان الكاتب بدا جادا لكان الفزع أقل . والتكرار هو الشىء الضاري فى هــذا الرعب .

ولكن ، عندما أموت سيخلق منى الناس شخصية خيالية ، شخصية كئيبة — وحينذاك سيكون الكتاب مرعبا .

« غـــير أن كلمة صادقة قد وردت فيه فعلا ، عندما وجهت الانظار الى الاختلاف القائم بين الشاعر والبطل . ففى نفسى ميل شاعرى سائد ، ومع

ذلك كان الغموض الجوهرى فيه هو أن « خوف ورعدة » يعرض حياتى الخاصة . وبهذا المعنى أيضا أوحيت بالموضوع لاول مرة فى يومياتى المبكرة» . وبشير هنا الى التدوينة التى سبق أن أوردناها .

أما من وجهة النظر الدينيية فقد اصبح هذان الكتابان — قبل نشرهما — من التراث القديم . وبالنظر الى تجربته الأعمق ، لم يكن كيركجور يستطيع ان يظل راضيا بمركزه الضئيل كشاعر فى مكان ما بين « فارس التســليم اللامتناهى » و « فارس الايمان » . والواقع أن هاتين المقولتين لم تبــرزا بعد ذلك أبدا فى كتاباته ، وأصبح قصورهما واضحا كل الوضـــوح . أما فهمه الأعمق لمعنى أن يكون المرء مسيحيا فيتكشف فى « الأحاديث التهذيبية الثلاثة » التى نشرت فى نفس التاريخ ١٦ أكتوبر ، وان كتبت بعد « العاصفة » التى طهرت الجــو تطهيرا تامــا لم يكن يدور بخلده عنــدما اعاد كتابة الصفحات الأخيرة من « التكرار » .

وقد ادرك من وجهة نظره الجديدة أن « اما .. أو » الاول لــم يخفق وحـــده فى تقرير الحالة تقريرا شافيا ، بل كان الاخفـــاق أيضـــا من نصيب « اما .. أو » الثانى . وأنا اتفق مع الاستاذ هيرش فى التكهن بأن كيركجور شعر حينذاك بأنه مدفوع الى اعادة عرض حالته فى الكتاب الضخم الذى سماه : « مراحل على طريق الحيـــاة » وربما فهمت « القصة العاطفية » الطويلة الواردة فى ذلك الكتاب على انها تصحيح للـ « تكرار » ، كمـــا فهمت الملاحظات الختاميـــة التى أدلى بها الأخ الساكت على أنهـــا تصحيح لكتاب « خـــوف ورعـــدة » . والى أن يكتمل ذلك الكتاب ، لم يكن كيركجور حـــرا فى المضى قدما فى كتابة « الحاشية » **Postscript** ، وهى التتمة المتأخـــرة « للشذرات » **Fragments** ومنها الى مؤلفاته الدينية الحاسمة .

خوف ورعده

أنشودة جدلية

تأليف

يوحنـــا الصـــامت

كوبنهاجن ١٨٤٣

(١٦ أكتوبر)

(ان ما تحدث به تاركينيوس سوبربوس الى أزهار الخشخاش فى حديقته قد فهمه الابن ، وان لم يفهمه الرسول(١) .

هـــامان

تصـــدير(٢)

يقوم عصرنا بعقد بيعة تصفية منتظمة ، لافى عالم التجارة فحسب ، بل فى عالم الأفكار ايضا . وكل شىء يمكن الحصول عليه فى مثل هـــذه الصفقة ، بحيث أصبح من المشكوك فيه أن يقدم أى انسان فى نهاية الأمر على المزايدة . وكل مثمن يحسن المضاربة ويوجـــه الانظار واعيـــا الى سوق الفلسفة الحديثة ، وبما لهذه السوق من دلالة ، وكل أستاذ جامعى ، وكل مدرس وطالب، وكل من هب ودب فى ميدان الفلسفة، لم يعد قانعا بالشك فى كل شىء ، بل تراه يمضى الى أبعـــد من ذلك . وهـــذه الحركة المبدئية قد شارك الجميع فى صنعها ، وكان ذلك من اليسر بحيث لم يجـــد أحدهم ضرورة فى التفوه بكلمة عن كيفية حدوث هذا الامر ، لأنه حتى ذلك الذى كان يسعى متلفها وفى قلق عميق للعثور على اثارة من التنوير ، لم يكن قادرا على أن يجـــد شـــيئا ممـــا يسعى اليـــه ، أو حتى علامة هادية ، أو وصفة صغيرة لتنظيم غذائه ، أو لبيان كيف يسلك المرء لاحتمال هـــذه المهمة الضخمة . « غير أن ديكارت(٣) قد قام بها » . وديكارت المفكر المبجل المتواضع الامين الذى لم يستطيع أحد أن يقرأ كتاباته دون أن يتأثر تأثيرا عميقا ـــ فعل ما قال ، وقال ما فعل . واعجبا ! واأسفا ! ، هذا شىء نادر فى زماننا كل الندرة ! ديكارت هذا ، كما أكد مرارا ، لم يشـــك فى مسائل الايمان . فهو يقول فى كتابه مبادىء الفلسفة (المبدأ ٧٦) :

« فاذا تذكرنا على كل حال ـــ كما قلت آنفا ـــ أن النور الطبيعى لا يوثق به مادام الله نفسه لم ينزل شيئا مخالفا له . وفضلا عن ذلك ، ينبغى أن يستقر فى ذاكرة الانسان بوصفه أعلى قاعدة أن ما انزله الله لنا ينبغى أن نؤمن بأنه اليقين الذى لا يعدله يقين آخر . وحتى ان بـــدا أن ومضة من ومضات العقل تشير بوضوح بشىء يخالف ذلك وجب علينا أن نخضع حكمنا للسلطة الالهية وحدها »(٤) .

ولم يصرخ ديكارت صائحا : « النار ! » ، كما أنه لم يجعل من واجب كل انسان أن يشك ، ذلك لأن ديكارت كان مفكرا هادئا متوحدا ، ولم يكن حارسا ليليا خوارا (كالثور) ، وقد اعترف متواضعا بأن منهجه لايهم أحدا غيره ، وأنه مبرر في جزء منه بالمعرفة المهوشة التى قام بتحصيلها فى سنواته المبكرة ، فيقول فى كتابه « المقال فى المنهج » :

« لا يظنن أحد إننى أحاول هنا نشر منهج ينبغى على كل إنسان أن يتبعه لكى يحكم عقله حكما رشيدا ، ذلك أن نيتى لم تتجه الا الى عرض المنهج الذى اتبعه انا نفسى .. بيد اننى ماكدت أفرغ من الدراسة التى يوضع المرء في نهايتها عادة بين صفوف العلماء ، حتى بدأت افكر فى شىء مختلف تمام الإختلاف عن ذلك ، اذ ادركت أننى متورط فى كثير من الشكوك ، وفى كثير من أخطاء ، بحيث لم يكن ثمة طائل من وراء جميع الجهود التى أبذلها للتعلم — كما أراها — الا فى اكتشاف جهلى أكثر فأكثر »(٥) .

ان ما كان أولئك الاغريق القدماء (الذين كان لديهم أيضا شىء من الفهم للفلسفة) يرونه مهمة تستغرق عمرا بأكمله ، اذ يدركون أن البراعة فى الشك لا تكتسب فى أيام قلائل أو اسابيع ، وما كان المجاهد المخضرم يبلغه حين يحافظ على توازن الشك عبر جميع العثرات التى يصادفها ، والذى كان ينكر فى جرأة يقين الادراك الحسى ، ويقين عمليات الفكر ، ويتحدى دون أية شائبة من تلوث مخاوف حب الذات وتلميحات التعاطف — هذا كله هو ما يبدأ منه كل انسان فى عصرنا الحاضر .

ما من أحد فى عصرنا يقنع بالوقوف عند الايمان، وانما يريد أن يمضى الى أبعد منه . وربما كان من التهور أن يتساءل المرء الى أين يمضى هؤلاء الناس جميعا ، ولكن من المؤكد انها علامة ادب وتهذيب منى أن افترض الايمان للجميع ، والا كان من الغريب بالنسبة لهم ... أن يمضوا الى أبعد منه . ففى تلك الازمنة القديمة كان الحال مختلفا ، حينذاك كان الايمان مهمة تستغرق عمرا بأكمله ، لأنه كان من المفروض أن اتقان الايمان لا

يكتسب فى أيام قلائل او فى أسابيع . وعندما كان الشيخ المحنك يقترب من ساعته الاخيرة . بعد أن يكون قد جاهد احسن جهاده ، وظل محتفظا بايمانه . ومازال قلبه غضا بحيث لم ينس الخوف والقشعريرة اللذين هذبا الشاب الذى كبح الرجل من جماحه حقا ، وان لم يتجاوزه تمام التجاوز . . اللهم الا أن ينجح فى أول فرصة تلوح له فى المضى قدما . وعند هذه الدرجة التى وصلت اليها تلك الشخصيات المبجلة ، هنا تكون النقطة التى يبدأ منها كل انسان فى عصرنا فى المضى الى أبعد من ذلك .

والكاتب الحاضر ليس فيلسوفا على اى نحو من الانحاء ، فهو لم يفهم « المذهب » ، بل لا يدرى ان كان له وجود فعلا ، ولا يدرى أن كان قد اكتمل ، يكفيه مالديه فعلا فى راسه الهزيلة من تفكير فيما ينبغى أن يكون لكل واحد فى أيامنا من رأس ضخمة ، مادام كل انسان عنده هذا الفكر الضخم . وحتى لو أن أمرءا استطاع أن يحول قارة الايمان بأكملها الى مفهوم ما ، فلا يلزم عن ذلك انه قد تصور الايمان تصورا صحيحا ، أو فهم كيف يدخل الانسان فيه ، او كيف يدخل هو فى الانسان . ان الكاتب الحاضر ليس فيلسوفا بحال من الاحوال ، وانما هو شاعر ومتأنق poetice et eleganter ، وكاتب هاو لا يكتب « المذهب » ولا يعطى « الوعود » (٦) بوضع « المذهب » ، وهو لا يدفع اشتراكا فى « المذهب » ولا يعزو اليه شيئا . وهو يكتب لان الكتابة بالنسبة اليه ترف ، ترف يزداد ما فيه من متعة وبينة كلما قل عدد من يشترون ما يكتبه وقتئذ من يقرأونه . وهو يستطيع أن يتنبأ فى يسر بمصيره فى عصر طمست فيه العاطفة لحساب المعرفة ، فى عصر ينبغى فيه على الكاتب الذى يريد أن يكون له قراء أن يحرص على الكتابة على نحو يمكن معه قراءة الكتاب بسهولة اثناء قيلولة ما بعد الظهر ، وان يحرص على أن يشكل هيئته الخارجية لتشبه صورة ذلك البستانى الشاب المهذب فى صحيفة الاعلانات (٧) ، ممسكا قبعته بيده حاملا شهادة حسن سير وسلوك اخذها من آخر مكان خدم فيه ، مزكيا نفسه للجمهور الموقر . ان هذا الكاتب يتنبأ بمصيره ، ويعلم أن تجاهله سيكون تاما . ولديه احساس مسبق بالحدث الرهيب ، وهو أن نقدا غيورا سيجلده بالسياط أكثر من مرة ، بل انه

ليرتعد لفكرة أشد من هذا رعبا وهي أن يقوم ناسخ جبسور ، أو مزيد للفقرات على استعداد دائما — بدعوى انقاذ العلم ، ان يصنع بكتابات الآخرين ما صنعه تروب (٨) Trop « للمحافظة على الذوق الرفيع » بكتاب باسمه : « تدمير الجنس البشرى » — بأن قرر تقطيع الكاتب الى فقرات ، وسيصنع ذلك بنفس المرونة التى اصطنعها رجل أراد أن يخدم علم الترقيم فقام بتقسيم محاضرته باحصاء الكلمات بحيث يجد خمسين كلمة للنقطة ، وخمس وثلاثين للشولة المنقوطة .

وأنا أجثو بأعمق انواع الاحترام أمام مهرب (شنطة) للمذهب امام مصلحة الجمارك محتجا : « ليس هذا هو المذهب ، وليس فيه ما يمت الى المذهب بصلة » . وانا استنزل كل ضروب البركات على المذهب وعلى المساهمين الدنماركيين فى شركة الاومنيبوس (٩) — فالاحتمال بعيد أن يصير برجا . وأنا أتمنى للجميع بلا استثناء حظا طيبا وازدهارا شاملا .

مع احترامات
يوحنا الصامت

اســـتهلال(١٠)

فى سالف العصر والاوان عاش انسان ، اســتمع وهو طفل الى قصة بديعة(١١) عن كيف امتحن الله ابراهيم ، وكيف اجتــاز ابراهيم الامتحان ، واحتفظ بايمانه ، وانجب ابنا للمــرة الثانية علــى عكس كل توقع . وعندما شب الطفل عن الطوق قرأ هذه القصة نفسها بمزيد من الاعجاب ، ذلك أن الحياة كانت قد فصلت ما كان متحدا بتقوى الطفل البسيطة . وكلما طعن فى السن ، تواترت عودة عقله حينا بعد حين الى تلك القصة ، ومع ذلك كانت قدرته على فهمها تقل وتزداد قلة . وأخيرا نسى فى اهتمامه بتلك القصة كل ما عداها . ولم تعد تحتل روحه سوى رغبة واحدة وهى أن يرى ابراهيم ، ولم يعتمل فى نفسه غير شوق واحد هو أن يكون شاهدا لذلك الحدث . ولم تكن رغبته أن تجتلى عيناه ببلاد الشرق الجميلة ، أو بذلك المجد الدنيوى لارض الميعــاد ، أو بالزوجين الورعين اللذين بارك الله شيخوختهما ، أو بالشخصية المبجلة للبطريرك العجوز ، أو بتلك الزجولة الفتية القوية التى ينزو بها صدر اســحق الذى وهبه الله لابراهيم — فقد كان لا يرى ما يمنع أن يحدث هذا الشىء نفسه على أرض الدنمارك القاحلة . وكان حنينه الى أن يصاحبهم فى رحلة الايام الثلاثة عندما ركب ابراهيم والحزن يفعم نفسه واسحق الى جانبه . وكانت رغبته الوحيدة أن يكون حاضرا فى ذلك الوقت حين رفع ابراهيم عينيه وابصر جبل آلمريا بعيدا هناك ، وفى الوقت الذى ترك فيه الحمير وراءه ، واوغل وحده مع اسحق مرتقيا الجبل ، ذلك لأن ما كان عقله مصوبا اليه هو رجفة الفكر لا نسيج الخيال المبدع .

لم يكن هذا الرجل مفكرا ، ولم يشعر بحاجة الى الايغال فيما وراء الإيمان ، وكان يعتقد أن أمجد الاشياء طرا أن يتذكره الناس بوصفه أبا الايمان ، وياله من نصيب يحسد عليه ، حتى ولم يعرف بهذا احد سواه .

ولم يكن هذا الرجل فقيها ضليعا ، فلم يكن يعرف العبرية ، ولو انه عرفها ، لكان من اليسير عليه أن يفهم قصة ابراهيم .

(١)

« وحدث بعد هذه الامور أن الله امتحن ابراهيم . فقال له يا ابراهيم . فقال هانذا . فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق واذهب الى ارض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى اقول لك » (سفر التكوين : الاصحاح ٢٢ الآيات ١ ، ٢) .

كان الوقت فى مطلع الصبح ، فبكر ابراهيم فى نهوضه من الفراش ، وشد على حميره ، وغادر خيمته ، وأخذ معه اسحق ، أما ساره فقد اطلت من النافذة ، وتابعتهم بنظرها حتى عبروا الوادى ، فلم تعد تستطيع رؤيتهم (١٢) ، وركبوا صامتين أياما ثلاثة . وفى صبيحة اليوم الرابع ، لم يتفوه ابراهيم بكلمة ، ولكنه رفع عينه وأبصر جبل الموريا بعيدا . فترك ابراهيم غلاميه وراءه ، وذهب وحده ومعه اسحق الى جانبه مصعدا فى الجبل . غير أن ابراهيم قال لنفسه : « لن أخفى عن اسحق الى أين يقوده هذا الطريق » . ووقف ساكنا ، ووضع يده على رأس اسحق مباركا اياه ، وانحنى اسحق ليتلقى البركة . وكان وجه ابراهيم عامرا بالابوة ، ونظرته فى غاية من العذوبة ، وحديثة ممتلئا بالتشجيع . بيد أن اسحق كان عاجزا عن فهمه ، ولم تكن روحه قادرة على الانتشاء ، فطوق ركبتى ابراهيم بذراعيه ، وجثا عند قدميه ضارعا ، وتوسل من أجل حياته الشابة ، ومن أجل امله الجميل فى مستقبله ، واسترجع الى ذهنه افراحه فى بيت ابراهيم ، واستعاد الحزن والوحدة . وهنا رفع ابراهيم الغلام ، وسار الى جانبه ، وكان حديثه مفعما بالسكينة والنصح ، غير أن اسحق لم يستطع أن يفهمه . وصعد جبل المريا ، ولكن اسحق لم يفهمه . واعرض عنه ابراهيم لحظة ، وعندما رأى اسحق وجه أبيه مرة أخرى ، رآه متغيرا ، فقد كانت نظرته ضارية ، وكانت

هيئته هى الرعب بعينه . واطبق على عنق اسحق ، وطرحه أرضا وقال : « أيها الغلام الاحمق ، أحسبت اذن اننى ابوك ؟ أنا رجل وثنى . أتظن أن هذه مشيئة الرب ؟ كلا ، انها مشيئتى » . وهنا ارتعد اسحق ، وصرخ مفزعا ، « يا اله السموات ، انزل رحمتك على ، لم يعد لى أب على الارض ، فلتكن انت أبى ! » غير أن ابراهيم قال لنفسه بصوت خفيض ، « ياالله السموات ، أوزعنى أن اشكرك . فمن الافضل على كل حال أن يعتقد أننى وحش ضار ، من أن يفقد ايمانه بك » .

فعندما يحين فطام الطفل ، تعمد الام الى تسويد ثديها ، فمن المخزى حقا أن يبدو الثدى لذيذا حين ينبغى أن يحرم منه الطفل . ومن ثم يعتقد الطفل أن الثدى قد تغير ، بيد أن الام مازالت هى نفسها ، ونظرتها مليئة بالحب والحنان كما كانت دائما . وانه لسعيد حقا ذلك الشخص الذى لا يحتاج لفطام الطفل الى حيل اشد بشاعة .

(٣)

كان صباحا مبكرا ، عندما نهض ابراهيم من فراشه ، وقبل ساره ، عروس شيخوخته ، وقبلت ساره اسحق ، فقد كان موضع فخرها ورجائها فى كل وقت . وركبا صامتين طيلة الطريق ، وكانت نظرة ابراهيم مطرقة الى الارض حتى كان اليوم الرابع عندما رفع عينيه ، وابصر جبل المريا بعيدا ، ولكنه عاد فأطرق ببصره الى الارض . واخذ يرتب اعواد الحطب صامتا ، وتل اسحق على الجبين ، واستل سكينه فى صمت — وهنا شاهد الكبش الذى انزله الله ... فقدمه قربانا ، وقفل راجعا الى البيت . ومنذ ذلك الحين شاخ ابراهيم ، ولم يكن يستطيع ان ينسى أن الله قد طلب منه ذلك . اما اسحق فقد اخذ ينمو ويزدهر كما كان من قبل ، على حين اظلمت عينا ابراهيم ، ولم يعد يعرف للسرور طعما .

فعندما يكبر الطفل ويحين موعد فطامه ، توارى الأم ثديها كما تفعل العذراء ، ومن ثم لا يجد الطفل له اما . وانه لسعيد ذلك الطفل الذى لا يفقد امه على نحو آخر .

(٣)

كان صباحا مبكرا ، عندما استيقظ ابراهيم ، فلثم ساره ، الام الشابة ، وقبلت ساره اسحق ، فرحتها وبهجتها فى كل زمان . وركب ابراهيم مستغرقا فى الفكر طوال الطريق ، وكان يفكر فى هاجر ، وفى ابنه الذى اصطحبه الى البرية ، وارتقى جبل المريا ، وأخرج السكين .

وكان الوقت قد أوغل فى المساء حين ركب ابراهيم وحده ، واتجه صوب جبل المريا ، وانبطح بوجهه على الارض ، وجعل يضرع الى الله ان يغفر له خطيئته ، وانه كان على استعداد لتقديم اسحق ، وان الاب نسى واجبه تجاه الابن . وكثيرا ما كان يركب طريقه الموحش ، ولكنه لم يعرف للراحة سبيلا . ولم يستطع أن يفهم أن يكون استعداده لتقديم افضل ما يملكه الى الله خطيئة ، وانه كان من الممكن ان يقدم حياته فداء لابنه ، ولو كانت هذه خطيئة ، انه لم يحب اسحق كما احبه ، فانه لن يستطيع أن يفهم اذن أن هذه الخطيئة يمكن أن تغتفر . فأى خطيئة يمكن ان تكون افظع من هذه ؟

وعندما ينبغى فطام الطفل ، فان الام لا تخلو هى ايضا من الحزن عندما تفكر انها وطفلها يزدادان انفصالا أحدهما عن الآخر ، وأن الطفل الذى رقد تحت فؤادها ، ثم استراح من بعد على صدرها ، لن يكون قريبا منها هذا القرب بعد الآن . ومن ثم فانهما يبكيان معا فترة الحداد القصيرة . وانه لسعيد ذلك الشخص الذى احتفظ بالطفل قريبا كل هذا القرب ولم يكن بحاجة الى الحزن بعد ذلك ابدا !

(٤)

كان صباحا مبكرا ، وكان كل شىء مهيئا للرحلة فى بيت ابراهيم ، فودع ساره وتبعه اليعازر خادمه الامين على طول الطريق حتى عاد مرة أخرى . وكان ابراهيم واسحق يركبان معا منسجمين ، حتى بلغا جبل

المريا . بيد أن ابراهيم كان قد أعد كل شيء للتضحية فى هدوء وسكون ، ولكنه عندما التفت واستل سكينه ، رأى اسحق أن يده اليمنى مطبقة فى يأس ، وأن رجفة قد سرت فى جسده ــ غير أن ابراهيم استل السكين .

ثم عادا مرة أخرى الى البيت ، وهرعت ساره لاستقبالهما ، ولكن اسحق كان قد فقد ايمانه . ما من كلمة عن هذا الامر قيلت فى العــالم أبدا ، ولم يتحدث اسحق أبدا الى احد بما رآه ، ولم تساور ابراهيم أية ريبة فى أن احدا شاهد شيئا من ذلك .

وعندما يجب فطام الطفل ، تكون الام قد أعدت له طعاما أقوى ، حتى لا يهلك الطفل . وانه لسعيد ذلك الشخص الذى يجد طعاما أقوى فى انتظاره !

وعلى هذا النحو ، وعلى أنحاء اخــرى كثيرة ، فكر الرجل الذى نتحدث عنه فى هذا الحدث . وفى كل مرة يعود الى بيته بعد ان يتجول فى جبل المريا ، كان يتساقط اعياء ، ويشبك يديه قائلا : « لا يوجد من هو فى عظمة ابراهيم ! من يستطيع أن يفهمه ؟ »

سـلام على ابراهـيم

لو لم يكن ثمة شعور أبدى فى الانسان ، ولو لم يكن فى أسـاس الاشياء جميعا سوى تلك القوة الهوجاء الضارية التى تتضافر مع الشهوات العمياء لتنتج كل ما هو عظيم ، وكل ما هو تافه ، لو أن وراء الاشياء جميعا يتوارى خواء لا قرار له ، لا يشبع ابدا — فماذا يمكن أن تكون الحياة عندئذ سوى يأس وقنوط ؟ لو أن الحال على هذا النحو ، ولم يكن ثمة رابطة مقدسة توحد البشرية ، وكان الجيل من الناس يتلو الجيل الآخر كما يحل ركام من أوراق الشجر فى الغابة محل ركام آخر ، وكان الجيل من الناس يأخذ مكان غيره فى الغابة كأنشودة للطير . ماذا لو أن الجنس البشرى كان يعبر خلال العالم كما تعبر السفينة عباب البحر ، والرياح خلال القفر وكأنه نشاط يخلو من الفكر ومن الثمر ، ماذا لو أن نسيانا أبديا يحوم دائما وأبدا جائعا باحثا عن فريسته ، ولم تكن ثمة قوة قادرة على انتزاعها من براثنه ، كم تكون الحياة عندئذ خاوية لا راحة فيهـا !

ولكن الامر ليس على هذا النحو ، فعندما خلق الله الذكر والانثى ، شكل أيضا البطل والشاعر أو الخطيب . فالشاعر لا يستطيع أن يفعل ما يفعله البطل ، كل ما يستطيعه هو أن يبدى اعجابه وأن يحب البطل ويبتهج به . ولكنه هو أيضا سعيد ، وسعادته لا تقل عن سعادة البطل ، ذلك لأن البطل هو طبيعته الافضـل ، وهى الطبيعة التى يعشقهـا ، مبتهجا فى الوقت نفسه بأنه لم يكن هـو البطل ، وبأن حبـه يمكن أن يكون اعجابا . انه عبقرية التذكر ، ولا يفعل شيئا اللهم الا استرجاع ما تم انجازه فعـلا ، ولا يفعل شيئا الا الاعجاب بما تم ، ولا يسـهم بشىء من صنعه ، وانما يشعر بالغيرة من ذلك الكنز المؤتمن عليه . وهو يتبع الاختيار الذى يهديه اليه قلبه ، ولكنه عندما يجد ما كان يسـعى

اليه ، فانه يتسكع عندما باب كل انسان منشدا أغنيته ، ملقيا خطبتـــه ، حتى يعجب الجميــع بالبطل كما أعجب هو به ، ويفخروا بالبطل كمـــا يفخر هو به . هذا هو انجازه ، وهذا هو عمله المتواضع ، وهذه هى خدمته الامينه فى منزل البطل . ولو ظل على هذا النحو صادقا فى حبه ، فانه يجاهد ليلا ونهارا ضد النسيان الخبيث الذى قد ينتزعه من بطله ، وهنا يتم عمله ، ويجتمع ببطله الذى احبه بنفس الوفاء ، ذلك أن الشاعر أيضا هو طبيعة البطل الافضل ، قد لا يتمتع بأية قوة كما لا تتمتع الذاكرة ، ولكنه يتسامى ايضا كما تتسامى الذاكرة . وهكذا لا يطوى النسيان أبدا من كان عظيما . ومع أن الزمان قد يتلكأ طويلا ، وقد تذهب سحابة(١٣) من ســـوء الفهم بالبطل بعيدا ، الا أن عاشقه سيأتى رغم كل هـــذا ، وكلما كان الزمان الذى أنقضى طويلا ، كان تمسكه ببطله أقوى ولاء .

كلا ، لن يطوى النسيان أبدا من كان عظيما فى هذا العالم . غير أن كلا من هؤلاء العظماء كان عظيما على طريقته ، وكلا منهم كان عظيما بالنسبة للعظمة التى أحبهـــا . فذلك الذى كان يحب نفســـه قد أصبح عظيما بنفسه ، وذلك الذى أحب غيره من الناس صار عظيما بتكريســه المنكر للذات ، بيد أن الذى أحب الله هو من أصبح أعظم الجميع . كل عظيم سيتذكره الناس ، ولكن كلا منهم صار عظيما بالنسبة لـ « توقعه » . فمنهم من أصبح عظيما بأن توقع الممكن ، وآخر توقع الأبدى ، أما مـــن توقع المستحيل فقد صار أعظمهم جميعا . كل منهم سيتذكره الناس ، ولكن كلا منهم كان عظيما بالنسبة لعظمة ما « جاهد » من اجله . فمن جاهد الدنيا اصبح عظيما عندما تغلب على الدنيا ، ومن جاهد نفســـه اضحى عظيما عندما انتصر على نفسه ، أما ذلك الذى جاهد فى سبيل الله فقد صار أعظم الجميع . أذن ، فثمة جهاد فى العالم ، الانســان ضد الانسان ، واحد ضد ألف ، أما ذلك الذى سعى الى الله فهو أعظمهـــم جميعا . أجل ، كان ثمة كفاح على الارض ، وكان هناك من قهر الجميع بقوته ، وكان هناك من كسب الله بعجزه . وكان هناك من اعتمد على نفسه وربح الجميع ، وكان هناك من هو آمن فى قوته وضحى بكل شىء ، أما ذلك الذى آمن بالله فهو أعظم الجميع . وكان هناك العظيم بقوته ،

كما كان هناك العظيم بحكمته ، أو العظيم بما يجول فى نفسه من أمل ، وهناك العظيم بما يمتلىء قلبه من حب ، أما ابراهيم فكان أعظم الجميع ، عظيما بالقوة التى تستمد سلطانها من العجز ، عظيما بحكمته التى يكمن سرها فى الحماقة ، عظيما بالامل الذى يتخذ شكل الجنون ، عظيما بالحب الذى هو بغض الانسان لنفسه .

وبالايمان خـرج ابراهيم من أرض آبائه ، وأصـبح مقيما فى أرض الميعاد . ترك شيئا واحدا وراءه ، وأخذ شيئا واحدا معه : ترك فهمه الدنيوى ، وأخذ معه الايمان — والا ما ضرب فى الارض ، ولحسب أن هذه الهجرة تخلو من العقل . وبالايمان كان غريبا فى أرض الميعاد ، فلم يكن فيها ما يذكره بكل ما هو عزيز عليه ، ولكنها بما فيها من جدة دفعت روحه الى حنين أسيان — ومع ذلك كان ممن اصطفاهم الله ، وكان الرب عنهم راضيا ! أواه ، لو أن الله أنكره ، وطرده من رحمته ، لأدرك الامر ادراكا أفضل ، ولكن المسألة الآن أشبه باستهزاء به وبايمانه . لقد كان هناك فى العالم شخص آخر يعيش منفيا (١٤) عن أرض أجداده التى عشقها . انه لم ينس ، ولم تنس « مراثيه » * عندما كان يبحث حزينا ، وعندما وجد الشىء الذى فقده . ولكن ابراهيم لم تكن له أنشودة يتضرع بها . وانه لشىء انسانى أن ينوح الانسان ، وأن يبكى مع الباكين ، ولكن أعظم من ذلك أن تؤمن ، وأكثر من ذلك بركة أن تتأمل المؤمن .

وبالايمان تلقى ابراهيم العهد بأن ذريته من الاجناس جميعا ستنالها البركة . ومضى الزمان ، وكان الامكان قائما ، وابراهيم مؤمنا ، وانقضى الزمان ، وأصبح الامكان محالا ، وظل ابراهيم على ايمانه . كان ثمة شخص فى العالم يحمل توقعا ، وانقضى الزمان ، واقترب غروب العمر ، ولكنه لم يكن من الضعة بحيث ينسى توقعه ، ومن ثم ، فلن ينسى هو أيضا . ثم انتابه الحزن ، ولم يخدعه الحزن كما خدعته الحياة ، فقد

* يشير كيركجور هنا الى « مراثى ارمياء » وهو سفر من أسفار العهد القديم . (ف . ك) .

صنع من أجله كل ما فى وسعه ، وفى عذوبة الحزن امتلك ذلك التوقع المراوغ . انه لشىء انسانى أن يحزن المرء ، وأن يحزن مع المحزونين ، ولكن أعظم من ذلك أن تؤمن ، واكثر من ذلك بركة أن تتأمل المؤمن . لم يترك ابراهيم مرثية ، ولم يكن يحصى الايام نائحا كلما مضى الزمان ، ولم ينظر الى ساره نظرة ارتياب متسائلا عما اذا كانت تطعن فى السن ، ولم يوقف مسيرة الشمس حتى لا تهرم ساره ، ويهرم معها توقعه . ولم ينشد أمام ساره معزيا مراثيه النائحة . وبلغ ابراهيم من الكبر عتيا ، واصبحت ساره أضحوكة البلاد ، ومع ذلك كان ممن اصطفاهم الله ، ووريثا للعهد بأن ذريته من أجناس العالم ستنالها بركة الاله . ألم يكن من الأفضل اذن الا يكون مختار الله ؟ وما معنى أن يكون ذلك المختار ؟ أن ينكر فى شبابه رغبات الشباب ، وذلك حتى تتحقق له بعد آلام عظيمة — فى سن الشيخوخة . غير أن ابراهيم ظل مؤمنا ، متمسكا بتوقعه . ولو أنه تذبذب ، لتنازل عن هذا التوقع . ولو قال لله : « ربما كانت مشيئتك على كل حال هى الا يحدث هذا الامر ، ومن ثم سأتخلى عن هذه الرغبة . لقد كانت رغبتى الوحيدة ، وسعادتى الوحيدة . وروحى مخلصة ، ولا اخفى أى حقد مستتر لأنك حرمتنى منها » — لو قال ذلك لما نسيه أحد ، ولأنقذ كثيرا من الناس بما يضربه من مثل ، ولكنه لن يكون فى تلك الحالة أبا الايمان . عظيم حقا أن يتخلى المرء عن رغبته ، ولكن أعظم من ذلك أن يتمسك بها بعد أن يكون قد يئس منها ، وقد يكون عظيما أن تمسك بالأبدى ، ولكن أعظم من ذلك أن تتشبث بالزمانى بعد أن تتخلى عنه (١٥) .

ثم أكمل الزمان دورته . فلو أن ابراهيم لم يؤمن ، لهلكت ساره حزنا بكل تأكيد ، ولن يفهم ابراهيم الذى يكون الاسى قد ران على عقله — وفاء الوعد ، بل لعله يبتسم كأنه يرى حلما من أحلام الشباب . بيد أن ابراهيم كان مؤمنا ، ومن ثم فقد كان شابا ، ذلك أن من يأمل دائما فى الافضل يصير شيخا ، ومن يوطن نفسه دائما للأسوأ يهرم مبكرا ، أما ذلك الذى يؤمن فيحتفظ بشباب أبدى . فلنغدق الثناء اذن على هذه القصة ! فان ساره التى ضربتها الاعوام ، كانت من الشباب بحيث ترغب فى نعمة الامومة ، وكان ابراهيم — وقد اشتعل رأسه شيبا —

من الشباب بحيث يطمع فى أن يكون أبا . فاذا أخذنا الامور بظواهرها كانت الاعجوبة أن تسير الامور وفق توقعهما ، أما بالمعنى الاعمق فان معجزة الايمان تكمن فى ان ابراهيم وساره كانا من الشباب بحيث يرغبان ، وان الايمان احتفظ لهما برغبتهما ، واحتفظ معها بشبابهما . وقد تقبل ابراهيم وفاء الوعد ، تقبله بالايمان ، وسارت الامور حسب الوعد ، ووفق ايمانه — أما موسى فقد ضرب بعصاه الحجر ، ولكنه لم يكن مؤمنا حينذاك .

وهناك عم الفرح بيت ابراهيم ، عندما أصبحت ساره عروسا فى عيد زواجهما الذهبى .

غير أن الحال لم يظل على هذا المنوال . فقد كان لابد من امتحان ابراهيم مزيدا من الامتحان . لقد ناضل تلك القوة الماكرة التى تختلق كل شىء ، ضد ذلك العدو اليقظ الذى لا يغفو أبداً ، ضد ذلك العجوز الذى يحيا بعد أن تفنى الاشياء جميعا — لقد حارب « الزمان » ، واحتفظ بايمانه . والآن ، تركز رعب النضال كله فى لحظة واحدة . « وحدث بعد هذه الامور أن الله امتحن ابراهيم . فقال له يا ابراهيم . فقال هأنذا . فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق واذهب الى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » .

وهكذا ضاع كل شىء — بأفظع مما لو أن شيئا لم يحدث قط ! اذن فقد كان الرب قد جعل من ابراهيم العوبة ! لقد جعل من المحال شيئا فعليا بمعجزة ، وها هو الآن يمحو ما قد فعل . كان الامر يبدو بعيدا على التصديق ، ولكن ابراهيم لم يضحك كما ضحكت ساره عندما بشرت بالوعد . ضاع كل شىء ! سبعون عاما من التوقع الامين ، والفرح القصير بمثوبة الايمان . من ذلك الذى ينتزع من الرجل العجوز عكازه ، ومن ذلك الذى يطلب منه أن يكسره هو بنفسه ؟ من ذلك الذى يجعل من شيبته زمنا لا راحة فيه ، ومن الذى يطلب منه أن يفعل بنفسه ذلك ؟ ألا وجود لشفقة بالشيخ الوقور ، أو بالطفل البرىء ؟ ومع

ذلك ، كان أبراهيم ممن أصطفاهم الله ، وكان الرب هـــو الذى قضى هذا الامتحان . كل شىء يضيع الآن . الذكرى المجيدة التى سيحفظها الجنس البشرى ، الوعد لذرية ابراهيم — لم يكن هذا كله سوى نزوة ، فكـــرة عابرة طافت بعقل الله ، وعلى ابراهيم الآن أن يمحوها . ذلك الكنز المجيد العتيد الذى كان عمره من عمر الايمان فى قلب ابراهيم ، اكبر بأعوام كثيرة كثيرة ، من عمر اسحق ، ثمرة حياة ابراهيم ، التى زكتها الصلوات ، وانضجتها المجاهدات — البركة على شفتى ابراهيم ، هذه الثمرة ينبغى أن تنتزع الآن قبل الاوان ، وأن تبقى بلا مغزى . فما مغزى أن يضحى باســـحق ؟ فى تلك الســـاعة الحزينة — وأن تكن مباركة — عندما كان على ابراهيم أن يودع كل ما كان عزيزا عليه ، عنـــدما كان عليه أن يرفع رأسه مرة أخرى ، عندما يشرق محياه وكأنه وجه الرب ، عنـــدما كان عليه أن يركز روحه كلها فى استنزال بركة تجعل اســـحق مباركا طيلة أيامه — هذه الساعة لم تكن لتأتى ! ان عليه أن يودع اسحق حقا ، ولكن على نحو يبقى فيه وراء اسحق ، سيفصل الموت بينهما ، ولكن على نحو يكون فيه اســـحق فريسته . لن يكون الشيخ مبتهجـــا بالموت وهو يضع راحتيه مباركا اسحق ، ولكنه سيكون ضجرا بالحياة عندما يضع قبضتين عنيفتين على اسحق . وكان الله هو الذى يمتحنه .. أجل ، سحقا ، سحقا للرسول الذى حمل الى ابراهيم هذا النبأ ! من الذى يجرؤ على أن يكون مبعوث هذا البلاء ؟ ولكنه الله كان هـــو الذى يمتحن ابراهيم .

ومع ذلك ، ظل ابراهيم على ايمانه ، وكان يؤمن بهـــذه الحياة الدنيا . أجل ، لو أن ايمانه اقتصر على أن يكون ايمانا بحياة أخرى ، لكان ألقى بكل شىء حتى يسارع بالخروج من هذه الدنيا التى لا ينتمى اليها . غير أن ايمان ابراهيم لم يكن من هذا النوع ، ان كان لمثل هذا الايمان وجود ، فالحق أن هـــذا ليس ايمانا ولكنه أبعد امكانية للايمان الذى يشعر بموضوعه فى الحد الاقصى من الافق ، ومع ذلك ينفصل عنه بهوة عميقة يقوم اليأس فى داخلها بلعبته . أما ابراهيم فكان يؤمن حقا بهذه الحياة الدنيا ، وبأنه ســـيهرم فى أرض آبائه ، وســـيقوم الشعب

بتكريمه ، وستحل عليه البركة فى جيله ، وسيتذكره الناس الى الأبد فى اسحق ، أعز ما لديه فى الحياة ، والذى يعانقه بحب قد يكون التعبير عنه هزيلا اذا قيل انه يؤدى باخلاص واجب الأب فى حب الابن ، كما يبدو ذلك حقا فى كلمات النداء الالهى « ابنك وحيدك الذى تحبــه » . وكان ليعقوب اثنا عشر ابنا ، وواحد منهم هو الذى احبه ، أما ابراهيم ، فلم يكن له غير ابن واحد ، الابن الذى يحبه .

ومــع ذلك ، كان ابراهيم يؤمن ، ولم يكن يشــك . كان يؤمن بالمحال . ولو راود الشك ابراهيم ، لفعل شيئا آخر ، شيئا مجيدا ، اذ كيف يمكن أن يصنع ابراهيم الا كل ما هو عظيم مجيد ! كان سيذهب الى جبل المريا ، وربما شق حطب النار ، واشعل المحرقة ، واســتل السكين ــ وسيصيح مخاطبا الله : « لا تستهين بهذه التضحية ، فهى ليست خير ما املك ، هذا شىء أعرفه جيدا ، فماذا يكون شيخ عجوز بالنسبة لطفل الميعاد ، ولكنه افضل ما أستطيع أن اقدمه لك . فلا تدع اسحق يعلم ذلك أبدا ، حتى يعزى نفسه بشبابه » وهنا ، سيغــرس السكين فى صدره . وسينال حينئذ اعجاب العالم ، ولن ينسى اســمه أبدا ، ولكن أن تنال الاعجاب شىء ، وأن تكون النجم الهادى الذى ينقذ الحيارى شىء آخر .

ولكن ابراهيم كان مؤمنا ، فلم يكن يصلي لنفسه ، آملا أن يحرك الرب ــ ولم يتقدم ابراهيم بصلواته الا عندما وقع العقاب العادل على سدوم وعموره .

ونحن نقرأ فى تلك الكتب المقدسة : « أن الله امتحن ابراهيم . فقال له يا ابراهيم . فقال هأنذا » . انت يا من أتوجه اليه بخطابى ، هل كان ذلك هو حالك ؟ عندما أبصرت بعيدا قضاء الله العسير يقترب منك ، ألم تقل للجبال ، فلتهــوى فوقى ، وللتلال زملينى ؟ أو ان كنت اقوى ألم تتحــرك قدماك متباطئة على الطريق ، مشــتاقة الى الدرب القديم ؟ وعندما صدر اليك النداء ، ألم تجب ، أم لعلك لم تجب بصوت

خفيض ، هامسا ؟ أما ابراهيم فلم يكن كذلك ، فلقد أجاب بصوت مرتفع ، مرحا ، مبتهجا ، واثقا من نفسه : « هأنذا » . ونمضى فى القــراءة : « فبكر ابراهيم صباحا » — وكأنه ذاهب الى حفل ، وهكذا كان متعجلا ، وفى الصباح المبكر ذهب الى الموضع الذى قال له الله ، الى جبل المريا . ولم يقل شيئا لساره ، أو لأليعازر ، حقا ، من كان يستطيع أن يفهمه ؟ الم ينتزع منــه الامتحان بطبيعته عهــدا بالصمت ؟ فلما رتب الحطب ، وأوثق اسحق ، أشعل المحرقة ، واخرج السكين .

يا من تستمــع الى ، كم من أب اعتقد انه بفقده ابنه فقــد أعز مالديه فى هذا العالم ، وأنه حرم من كل أمل فى المستقبل ، ومــع ذلك لم يكن بين هؤلاء الأبناء من كان أبن الميعاد بالمعنى الذى كان اســحق بالنسبة لابراهيم . كم من أب فقد ابنه ، ولكنه كان الله الذى لا يعتريه التغير ، وكانت ارادة العلى القــدير ، وكانت يــده هى التى استردت الطفل . ولم يكن الامر كذلك بالنسبة لابراهيم . فقــد أدخر له امتحان أصعب ، فها هو مصير اسحق معلق بالسكين فى قبضة ابراهيم . وهناك وقف الشيخ العجوز ، مع أمله الوحيد ! ولكن الشك لم يخالجه ، ولم ينظر قلقا الى اليمين او الى الشمال ، ولم يتحد السماء بصلواته . كان يعرف أن الله العلى القدير هو الذى يمتحنه ، وكان يعلم انها أقسى تضحية يمكن أن تطلب منه ، ولكنه كان يعلم أيضا أن ما من تضحية يمكن أن تكون قاسية اذا طلبها الله — واستل السكين .

من ذا الذى منح القوة لذراع ابراهيم ؟ من الذى رفع يده اليمنى ، ولم يجعلها تسقط مسترخية الى جواره ؟ ان من يحدق بعينيه فى هذا ، يصيبه الشلل . من الذى أمد بالقوة روح ابراهيم ، فلم ترين الغشاوة على عينيه حتى لا يرى اسحق ولا يرى الكبش ؟ ان من يحدق فى هذا يصبح اعمى — ومع ذلك ، ما أندر الشخص الذى يصير مشلولا واعمى ، وأندر من ذلك من يعيد بأمانة — رواية ما حدث . كلنا نعرفها — انها لم تكن سوى امتحان .

ولو أن ابراهيم شك فى الامر عندما وقف على جبل المريا ، ولو انه حملق حوله مترددا ، ولو انه قبل أن يستل سـكينه اكتشف الكبش مصادفة ، ولو أن الله أذن له أن يقدمه بدلا من اسحق — اذن لكان قد عاد الى البيت ، ولكان كل شىء على حاله ، فلديه ساره ، وها هو ذا قد احتفظ باسحق ، ولكن أى تغيير قد اعتراه ! سيكون انسحابه حينئذ هروبا ، وخلاصه مجرد حادث عارض ، ومكافأته خـزيا ، وربما كان مستقبله ضياعا . ولعله لن يقف حينذاك شاهدا على الايمان او على الفضل الالهى ، وانما يشهد فحسب كيف كان الخروج الى جبل المريا مريعا . ولن ينسى ابراهيم عندئذ ، ولن ينسى جبل المريا ، هذا الجبل سيذكر ، لا كما يذكر جبل أرارات التى رست عليه سفينة نوح ، وانما سيتحدث عنه الناس بوصفه موضعا للرعب ، فهاهنا كان ابراهيم فريسة للشك .

ابراهيم يا أيهـا الأب المبجل ! لست بحاجة فى سيرك من جبـل المريا الى بيتك الى نشيد للثناء عليك قد يجلب اليك العزاء على خسارتك ، فقد ربحت كل شىء واحتفظت باسحق . الم يكن الامر كذلك ؟ ان الرب لم يأخذه منك بعـد ذلك أبدا ، ولكنك جلست معه الى المـائدة فى خيمتك يستخفك الفرح ، وكأنك تجلس فى العالم الآخر فى ظل الابدية المقيم . ابراهيم يا أيها الأب المبجل ! لقد جرت آلاف الاعوام فى مسيرتها منـذ تلك الايام ، ومع ذلك فلست فى حاجة الى عاشق متأخر لتنتزع ذكراك من مخالب النسيان ، فكل لغات الارض تستعيد ذكراك — ومـع ذلك فانك تكافىء محبك بأمجد مما يكافئه اى انسان آخر ، فأنت تجعله مباركا فى حضنك . فهنـا تسحر عينيه وقلبه باعجاز فعلتك . يا أيهـا الأب المبجل ابراهيم ! الأب الثانى للجنس البشرى ! انت يا من كنت أول من احسن وأول من حمل الشـهادة لتلك العاطفة الهائلة التى اسـتهانت بالصراع المخيف مع ثورة العناصر وقوى الخلق من اجل الجهاد مع الله ، انت يا من كان أول من عرف تلك العاطفة العليا ، ذلك التعبير المقدس الخالص المتواضع عن الجنون الالهى (١٦) ، الذى أعجب به الوثنيون — فاغفر لمن يتحدث ممتدحا اياك ، ان لم يفعل ذلك على النحو المناسب .

كان يتحدث فى تواضع ، وكأنها مشيئة قلبه ، وكان يتحدث بايجاز ، كما يليق به أن يفعل ، ولكنه لن ينسى أبدا أنك كنت بحاجة الى مائة عام ليكون لك ولد فى شيخوختك على غير توقع ، وأن تستل السكين قبـــل الاحتفاظ باسحق ، ولن ينسى أبدا أنك فى مائة وثلاثين عاما لم تتقدم الى أبعد من الايمان .

مشكلات

تمهيدات مبدئية

يقول مثل قديم مأخوذ من العالم الخارجى المرئى : « لن ينال الخبز الا الرجل الكادح » . والغريب أن هذا المثل لا ينطبق بصدق فى ذلك العالم الذى ينتمى اليه بجلاء . ذلك لأن عالم الظاهر خاضع لقانون النقص ، وفيه تتكرر حينا بعد آخر تلك التجربة التى نرى فيها أن من لا يعمل يحصل أيضا على الخبز ، بل ان من ينام يحصل عليه بوفرة أكثر من الرجل الكادح . وكل ما فى عالم الظاهر مربح لصاحبه ، فهذا العالم أسير لقانون عدم الاكتراث (أو قانون استواء الطرفين) ، ومن يملك الخاتم ـــ سواء أكان نور الدين أم علاء الدين(١٧) ـــ تذعن له روح الخاتم . ومن يحصل على كنز العالم يملكه أيا كان سبيله الى ذلك . أما فى عالم الروح فالأمر جد مختلف . فهنا يسود النظام الالهى الأبدى ، وهنا لا تمطر السماء على العادل والظالم سواء ، وهنا لا تشرق الشمس على الطيب والشرير معا . وهنا ينطبق ذلك المثل : ان من يعمل هو وحده الذى يحصل على الخبز ، وأن من يحيا فى القلق هو وحده الذك يجد الراحة ، وأن من يهبط الى العالم السفلى هو وحده الذى ينقذ المحبوب ، وأن من يشهر السكين هو وحده الذى ينقذ اسحق . ومن لا يعمل لا يحصل على الخبز بل يبقى مخدوعا ، كما خدعت الآلهة أورفيوس بأن وضعت له شخصية هوائية مكان محبوبته ، أضلته لأنه كان مخنثا ، ولم يكن شجاعا ، لأنه كان عازفا على القيثارة ، ولم يكن رجلا . وهنا لا جدوى لأن يكون ابراهيم اباك ، أو أن يكون لك سبعة عشر جدا ـــ وعلى من لا يعمل أن يرجع الى ما كتب عن عذارى اسرائيل(١٨) ، فانه لا يلد غير الريح ، أما من يكون على استعداد للعمل فانه يلد أباه .

وهناك معرفة من المحتمل أن تدخل الى عالم الروح نفس قانون الاستواء الذى يئن تحت وطأته عالم الظاهر . فهى تحسب أن التفكير فيما

هو عظيم أمر كاف — أما ما عدا ذلك من عمل فأمر لا ضرورة له . ولكنها لا تظفر حينذاك بالخبز ، بل تهلك جوعا ! على حين يتحول كل شيء الى ذهب . وما ذلك الذى تعرفه حقا ؟ لقد كانت هناك آلاف مؤلفه من الاغريق المعاصرين ، واعداد لا حصر لها من الأجيال اللاحقة الذين يعرفون كل انتصارات ميلتيادس Miltiades ولكن شخصا واحدا(١٩) فارق النوم جفونه بسببها . وهناك أجيال لا حصر لها تعرف قصة ابراهيم بحذافيرها ، وكلمة كاملة — ولكن كم من الناس أقضت مضاجعهم هذه القصة !

تتميز قصة ابراهيم الآن بأن لها تلك الخاصية العجيبة وهى أنها مجيدة دائما أيا كان فهم المرء لها بسيطا ، وهنا أيضا يصدق المثل ، وهو أن كل شيء يتوقف على ما اذا كان المرء مستعدا للكدح ولتحمل الاثقال. ولكنهم لن يكدحوا ، ومع ذلك يفهمون القصة . انهم يمجدون ابراهيم — ولكن كيف ؟ انهم يعبرون عن المسألة كلها فى عبارات عامة تماما فيقولون : « الشيء العظيم هو انه أحب الله بحيث كان مستعدا أن يضحى له ، بالأفضل » هذا صدق صراح ، ولكن « الافضل » تعبير غير محدد . وفى سياق الفكر ، عندما يهتز اللسان يتطابق اسحق و « الأفضل » بكل ثقة ، ومن يتأمل يستطيع أن يدخن غليونه جيدا خلال التأمل ، كما يستطيع المستمع أن يمد رجله مرتاحا تمام الارتياح . وفى حالة ذلك الشاب الغنى الذى التقى به المسيح فى الطريق وباع كل بضاعته وأعطى للفقير ، فاننا ينبغى أن نمجده ، كما نمجد كل شيء عظيم ، وان كنا لا نستطيع أن نفهمه دون أن نكدح — ومع ذلك كان يمكن الا يكون ابراهيم وأن أعطى أفضل ما عنده . أن ما يغفلونه فى قصة ابراهيم هو القلق (٢٠) ، فلست ملتزما بالنسبة للمال بأى التزام أخلاقى ، ولكن على الأب بالنسبة للابن أسمى التزام وأقدسه . والقلق على كل شيء محفوف بالخطر بالنسبة للطبائع الانثوية ، ومن ثم فانهم يتناسونه ، ويريدون مع ذلك أن يتحدثوا عن ابراهيم . وهكذا يتكلمون — وفى أثناء خطابتهم يستخدمون دون تمييز عبارتى اسحق و« والأفضل » . ويسير كل شيء على أروع مثال . ولكن ، اذا تصادف وجود شخص بين المستمعين يعانى من الأرق — فهنا يكمن على قرب منا شديد أدعى أنواع سوء الفهم المأساوية والمهاوية العميقة للقلق .

وسيذهب الى بيته ، وسيفعل كما فعل ابراهيم ، لأن الابن هو حقا « الأفضل » .

ولو علم الخطيب بهذا الامر ، فربما اقبل نحوه ، واستجمع كل مهابته اللاهوتية وصاح : « أيها الانسان البشع ، يانفاية المجتمع ، أى شيطان استحوذ عليك فأردت أن تذبح ابنك ؟ » ويتعجب القس الذى لم يشعر بالحرارة ولم يتفصد عرقا وهو يعظ بابراهيم — يتعجب من نفسه ، ومن ذلك الغضب الماحق الذى انهال به على ذلك الرجل المسكين . لقد كان مسرورا من نفسه ، لأنه لم يتحدث قط بمثل هذه الحماسة والطلاوة . وقد قال لنفسه ولزوجته : « أنا خطيب مفوه ، ولم يكن ينقصنى الا المناسبة، وعندما تحدثت عن ابراهيم يوم الأحد ، لم أشعر بأننى تأثرت أدنى تأثير » . وفى حالة ما اذا كان نفس هذا الخطيب يملك قليلا من وفرة زائدة فى العقل يمكن أن يفقدها ، فاننى أعتقد أنه سيفقدها اذا قال الخاطىء فى هدوء ووقار : « هذا فى الحقيقة هو ما وعظت به يوم الأحد » . كيف يمكن للقس أن يدخل فى رأسه مثل هذه النتيجة ؟ ومع ذلك فقد كان الامر على هذا النحو ، ويكمن الخطأ فى مجرد أنه لم يكن يدرى ما يقول . آه لو كان هناك شاعر يقرر ايثار مثل هذه المواقف ، على ذلك الهراء والغناء الذى تزخر به المهازل والروايات فالملهاوى والمأساوى يتماس أحدهما مع الآخر عند نقطة اللانهائية المطلقة . وربما كانت خطبة القس مضحكة فى ذاتها بما فيه الكفاية ، ولكنها أضحت مضحكة الى ما لا نهاية بتأثيرها ، ومع ذلك كانت هذه النتيجة طبيعية تماما . فلو أن الخاطىء كان يمكن أن يتحول الى الايمان بخطبة القس الصارمة — دون ابداء أى اعتراض ، ولو أن رجل الكنيسة المتحمس انقلب الى بيته مسرورا ، مبتهجا لشعوره بأنه لم يكن مؤثرا على منبر الوعظ فحسب ، ولكن فوق كل شىء بسلطانه الذى لا يقاوم بوصفه كاهنا للارواح يثير الحماسة يوم الاحد فى جموع المصلين ، ويوم الاثنين يقف كالكروبيم شاهرا سيفا من نار ازاء الرجل الذى اراد بفعلته ان يلقى الخزى على المثل القديم القائل « بأن الامور

لا تجرى فى العالم على نسق مواعظ القسس » ✻ .

فاذا لم يقتنع الخاطىء ، من جهة أخرى ، كان موقفه فاجعا حقا . فمن المحتمل أن يعدم ، أو يرسل الى مستشفى المجانين ، وباختصار يمكن أن يصير تعسا فى علاقته بالواقع المزعوم — وبمعنى آخر يمكن أن افكر فى أن ابراهيم قد جعله سعيدا ، لأن من يكدح لا يهلك .

كيف يمكن للمرء أن يفسر التناقض الذى يصوره ذلك الخطيب ؟ هل السبب هو ان لابراهيم حقا مكتسبا فى أن يكون رجلا عظيما ، فاذا فعل مثله شخص آخر ، عد عمله خطيئة ، وخطيئة مشينة ؟ وفى هذه الحالة ، لا أريد أن اشارك فى مثل هذا التأبين المأفون . واذا لم يكن الايمان يجعل استعداد المرء لذبح ابنه فعلة مقدسة ، فلنصدر نفس الادانة على ابراهيم كما نصدرها على غيره . واذا كان الانسان يفتقر الى الشجاعة للمضى فى تفكيره الى أقصى مداه ، ولأن يقول ان ابراهيم كان قاتلا ، فانه من الافضل بكل تأكيد عندئذ ان نكتسب تلك الشجاعة بدلا من اضاعة الوقت فى مراثى تدبج فيمن ليسوا لها أهلا . ان التعبير الاخلاقى عما فعله ابراهيم هو أنه سوف يقتل اسحق ، أما التعبير الدينى فهو انه سوف يضحى باسحق ، ولكن فى هذا التناقض بالذات يكمن القلق الذى يؤرق الانسان ، ولن يكون ابراهيم على ما هو عليه بدون هذا القلق . أو لعله لم يفعل شيئا على الاطلاق مما يرويه الناس ، وانما فعل شيئا مختلفا تمام الاختلاف يخضع لظروف تلك الازمنة — وحينئذ دعنا ننساه ، لانه لا داعى لتذكر ذلك الماضى الذى لا يمكن أن يصير حاضرا . أو لعل ذلك الخطيب قد نسى شيئا يتجاوب مع النسيان الاخلاقى لتلك الحقيقة وهى أن اسحق كان ابنا ؟ ذلك ان الايمان عندما يلغى ليصبح صفرا أو لاشىء ، لاتبقى عندئذ الا تلك الواقعة المجردة

(✻) يقولون فى سالف الايام : « انه لشىء يدعو الى الرثاء الا تجرى الامور فى العالم على نحو ما يعظ القس » — وربما جاء الوقت الذى سوف يقولون فيه ، بمعونة الفلسفة على الاخص : من حسن الحظ أن الامور لا تجرى على النحو الذى يعظ به القس ، فهناك على كل حال شىء من المعنى فى الحياة ، ولكن وعظه يخلو من كل معنى » .

وهى أن ابراهيم أراد قتل اسحق — وهى واقعة من اليسير على كل انسان أن يحاكيها ان لم يكن له ايمان ، فالايمان هو الذى يجعلها عسيرة عليه .

أما من ناحيتى ، فأنا لا أفتقر الى الشجاعة التى تجعلنى أفكر فى الفكرة ككل . ومن ثم ، فلم تكن هناك فكرة خشيت منها ، ولو عرضت لى مثل هذه الفكرة ، فأرجو أن يكون لدى على الاقل الاخلاص لأن أقول : « اننى أخاف من هذه الفكرة ، انها تثير شيئا آخر فى نفسى ، ومن ثم فلن أفكر فيها . وان كنت أخطىء فى هذا ، فلن يتوانى العقاب عن النزول » . ولو أننى أدركت أن حكم الحقيقة هو أن ابراهيم قاتل ، فلا أعرف ان كنت أستطيع أن أسكت توقيرى الورع ازاءه . ولو أننى فكرت فى هذا على كل حال ، فمن المرجح أن التزم الصمت حياله ، لأنه ينبغى ألا يدعو المرء الآخرين الى اعتناق مثل هذه الافكار . غير أن ابراهيم لم يكن وهما خلابا ، ولم ينم فى الشهرة ، ولم تكن المسألة نزوة من نزوات القدر .

هل يستطيع المرء اذن أن يتحدث صراحة عن ابراهيم دون أن يتعرض لخطر ان يمضى فرد ما فى حيرته ليفعل مثلما فعل ابراهيم ؟ فاذا لم أجـرؤ على الحديث بحرية ، فسأخلد الى الصمت التام فيما يتعلق بابراهيم ، وفوق كل شىء ، لن استخف به على النحـو الذى يجعله فخـا للضعفاء . لأن الانسان اذا جعل الايمان كل شىء ، أى أن يجعله ما هو فعلا — فعلى المرء وفقا لطريقتى فى التفكير — أن يتحدث عنه دون خطر فى عصرنا الذى لايسرف كثيرا فى مسألة الايمان ، وبالايمان وحده لا بالقتل يبلغ المرء الى مثل ما بلغه ابراهيم ، فاذا جعل المرء من الحب مزاجا عابرا ، وعاطفة شهوانية فى الانسان ، فان الانسان لا ينصب الا الشراك للضعفاء عندما يتحـدث عن مآثر الحب . فكل انسان يمر بالعواطف العابرة بكل تأكيد ، ولكن اذا فعل الانسان نتيجة لمثل هذه العواطف الشىء الرهيب الذى تقدسه الحب بوصفه مأثرة خالدة ، ضاع حينئذ كل شىء ، بما فى ذلك المأثرة ، وفاعلها الضال .

وهكذا يستطيع المرء يقينا ان يتحدث عن ابراهيم ، ذلك لأن الرجل العظيم لا يمكن أن يضار اذا فهم فى عظمته ، فهو أشبه بسيف ذى حدين : يذبح وينقذ . واذا كان من نصيبى أن أتحدث عن هذا الموضوع ، فسأبدأ

ببيان اى رجل ورع يخشى الله كان ابراهيم ، بحيث كان جديرا أن يدعى مختار الله . فعلى مثل هذا الرجل يفرض مثل ذاك الامتحان . ولكن ، أين يوجد مثل هذا الرجل ؟ وسأصف بعد ذلك كيف كان ابراهيم يحب اسحق. ولتحقيق هذه الغاية اهيب بالارواح الطيبة جميعا أن تهرع لمعونتى ، حتى يأتى حديثى متوهجا توهج الحب الابوى . وانى لآمل أن اتمكن من وصفه على نحـــو يجعل كثيرين من الآباء الذين يعيشون فى بلاد الملك وأراضيه لا يتجاسرون على تأكيد أنهم يحبون أبناءهم على هذا النحو . ولكن اذا لم يكن الاب يحب كما أحب ابراهيم ، فان كل فكرة للتضحية باسحق لن تكون امتحانا ، وانما مجرد غواية وضيعة (Anfechtung) . وعن هذا الموضوع يمكن أن يتحدث المرء آحادا عديدة ، ولا حاجة به الى العجلة .

وستكون النتيجةأنه اذاتحدث المرء حديثا صائبا،فان بعض الاباء القلائل لن يحتاجوا الى سماع المزيد ، ولكنهم سيشعرون بالفرح اثنـــاء ذلك اذا نجحوا حقا فى حب أبنائهم كما أحب ابراهيم . ولو أن هناك أحـــد جازف — بعد أن سمع عن عظمة الفعلة التى أتاها ابراهيم وعن فظاعتها أيضا — جازف بالمضى قدما فى ذلك الطريق فسوف أسرج جوادى ، واركب معه . وفى كل موضع للوقوف حتى نصل الى جبل المريا سوف أبين له انه يستطيع الرجوع ، ويستطيع أن يندم على سوء الفهم الذى جعله يعتقد انه مدعو للإمتحان فى هذا الصراع ، كما يستطيع أن يعترف بافتقاره الى الشجاعة، ومن ثم ينبغى على الله نفسه أن يأخذ اسحق ، اذا شاء واقتناعى أن مثل هذا الرجل لن يرفض ، بل ربما اصبح مباركا كالآخرين جميعا . ولكنه لم يكن مباركا فى حينه . هل كان من الممكن ، حتى فى تلك العصور العظيمة للايمان ، أن يصدروا هذا الحكم على مثل ذلك الرجل ؟ أنا أعرف شخصا كان يمكن فى مناسبة من المناسبات أن ينقذ حياتى لو انه(٢١) كان شهما ، قال هذا الشخص : « أرى جيدا بما فيه الكفاية اننى كنت أستطيع أن أفعل ذلك ، ولكننى لم أجرؤ . وخشيت أن تعوزنى القوة فيما بعد ، فأندم على ذلك » . ولم يكن شهما ، ولكن من ذا الذى يستطيع لهـــذا السبب الا يستمر فى حبه ؟

وبعد أن تحدثت على هذا النحو ، وحركت مشاعر المستمعين حتى احسوا على الاقل بذلك الصراع الجدلى بين الايمان وشهوته الهائلة ، لن

أسمح للمستمعين ان يقعوا فى هذا الخطأ وهو « أنه على درجة عالية من الايمان بحيث يكفينا ان نتمسح بأطراف ثوبه » . لأننى سوف أضيف : « لا ايمان لى على الاطلاق ، فأنا بطبيعتى عقل صارم ، ومثل هذا الشخص يلقى صعوبة كبيرة فى التحرك نحو الايمان — وليس معنى ذلك علــى كل حال أننى أعلق **أية قيمة — لذاتها أو فى ذاتها — على هذه الصعوبة التى** من خلال التغلب عليها حملت الرأس الذكية الى ابعد من النقطة التى يصل اليها **أبسط الناس وأشدهم عادية على نحو أيسر من ذلك** » .

ومهما يكن من أمر ، فان للحب كهنته فى الشعراء ، وقد يسمع المرء أحيانا صوتا يعرف كيف يدافع عنه ، أما عن الايمان فلا يسمع المرء كلمة ابدا . من الذى يتحدث تكريما لهذا الشعور ؟ الفلسفة تمضى الى ابعد من ذلك ، واللاهوت يجلس متزينا عند النافذة يغازل وصله ، عارضــا بيع مفاتنه للفلسفة . ومن المفترض أن فهم هيجل شىء صعب ، على حين أن فهم ابراهيم شىء تافه . وتجاوز هيجل يعد معجزة ، أما تجاوز ابراهيم فأسهل شىء على الاطلاق . وأنا — من ناحيتى — قد كرست وقتا طويلا لفهم الفلسفة الهيجيلية ، وأعتقد أيضا أننى أفهمها فهما حسنا . ولكن عندما تكون هناك فقرات معينة لا أستطيع ان أفهمها على الرغم من المشقة التى أخذت بها نفسى ، فاننى من الجراة بحيث أعتقد ان هيجل نفسه لم يكن واضحا تمام الوضوح . هذا كله أفعله فى يسر وبطريقة طبيعية ، ولا تعانى رأسى منه شيئا . ولكننى عندما أفكر فى ابراهيم من جهة اخرى ، اشعر وكأنما محيت محوا . ذلك أننى أبصر فى كل لحظة تلك المفارقــة الهائلة التى هى جوهر حياة ابراهيم ، وفى كل لحظة أشعر بالابتعاد ، ولا يستطيع فكرى رغم كل حماسته أن يتقدم شعرة واحدة الى الامام . وانى لأمسك كل عضلة من عضلاتى ان تطل عليها — وأنا فى هذه اللحظة بالذات أشعر بالشلل .

ولست غريبا عما نال اعجاب الناس بوصفه شيئا عظيما نبيــلا فى هذا العالم ، بل ان روحى لتشعر بالصلة به ، اذ أقتنع بكل تواضع أن البطل يكافح عن قضيتى ، وفى اللحظة التى أتأمل فيها فعلته أهتف لنفسى : « الامـــر يتعلق بك عندما يشب الحريق فى بيت جارك »(٢٣) فأنا أتأمل نفسى

فى البطل ، ولكننى فى ابراهيم لا أستطيع أن أتأمل نفسى ، وعندما أصل الى الأعالى ، أهوى من حالق ، لأن ما ألقاه هناك هو المفارقة . ولكننى لا أعنى على كل حال أن أقول بأى معنى من المعانى أن الايمان شىء دنى ، بل على العكس ، انه أسمى الاشياء ، وتجافى الفلسفة الامانة عندما تعطى شيئا آخر بدلا منه ، وعندما تستخف بالايمان ، ولكن ينبغى عليها أن تفهم نفسها وان تعرف ما يجب أن تعطيه ، وألا تستبعد شيئا ، والا تخـدع الناس فى قيمه شىء ما بحسبانه لا شيئا . ولست على غير ألفة بتعقيدات الحيـاة وأخطارها ، فأنا لا أخشاها ، بل أتصدى لها فى جسارة ، ولست على غير ألفة بالمرعب ، وذاكرتى زوجة وفية ، وخيالى (وان كنت أنا نفسى لست كذلك) عذراء مجتهدة تجلس اليوم كله هادئة عاكفة على عملها ، فاذا أقبل المساء عرفت كيف تثرثر معى عن هذا العمل ثرثرة جميلة تحملنى على النظر اليه ، وان لم يكن دائما ما ترسمه وهذا ما ينبغى أن أقوله — مجـرد مناظر طبيعية أو أزهار أو اقاصيص رعوية . لقد رأيت المرعب بعينى رأسى ، ولا ألوذ بالفرار منه فرقا ، ولكننى أعلم جيدا ، أننى على الرغم من تقدمى لملاقاته ، أن شجاعتى ليست هى شجاعة الايمان ، أو أى شىء يمكن أن يقارن بها . فلست قادرا على أن أتحرك حركات الايمان ، ولا أستطيع أن إغمض عينى لاغوص واثقا فى اللامعقول ، هذه استحالة بالنسبة الى ... ولكننى أتباهى بذلك . اننى مقتنع بأن الله محبة(٢٤) ، ولهذه الفكرة عندى صحة غنائية بدائية .وعندما تتماثل أمامى اشعر بسعادة لا سبيل الى التعبير عنها ، وعندما تغيب ، أشتاق اليها بأعنف مما يشتاق العاشق الى معشوقته. ولكننى لا أومن ، هذه الشجاعة هى ما أفتقر اليه . وحب الله فى نظرى سواء بالمعنى المباشر أم بالمعنى العكسى ، لا يقاس بالواقع كله . ولست جبانا بالدرجـة التى تجعلنى أشـكو وأتذمر ، ولكننى أيضـا لست مخادعـا بالدرجة التى تجعلنى أنكر أن الايمان شىء أعلى كثيرا . واستطيع أن أتحمل العيش على طريقتى ، فأنا فرح سعيد ، ولكن فرحى ليس هو فرح الايمان ، واذا قورن به كان شقاء . وأنا لا أزعج الله بأشجانى التافهة ، فالجزئى لا يزعجنى ، وانما أحلق فى حبى فحسب ، واحتفظ بشعلته العذراء صافية نقية . والايمان مقتنع بأن الله معنى بكل كبيرة وصغيرة . وأنا قانع فى هذه الحياة بأننى مقترن الى اليد اليسرى ، فالايمان من التواضع بحيث لا يطلب

الا اليد اليمنى ـ وهذا هو التواضع الذى لا انكره ، ولن انكره ابدا .

ولكنى اتساءل هل يستطيع حقا أن يقوم كل شخص من جيلى بحركات الايمان ؟ فاذا لم أكن مخطئا أشد الخطأ ، فان هذا الجيل أميل الى الزهد بفعل مالا يعتقد أننى قادر على فعله ، أعنى الحركات الناقصة . ومن دواعى النفور بالنسبة الى أن أفعل ما يفعل فى كثير من الأحيان ، أعنى أن اتحدث بطريقة لا انسانية عن فعلة عظيمة ، وكأن بضعة آلاف من السنين مسافة شاسعة ، بل الاحرى أن أتحدث عنها بنغمة انسانية ، وكأنها حدثت بالامس ، جاعلا العظمة وحدها هى المسافة فاما أن تمجد أو تدين . فاذا استدعيت (بصفتى **البطل المأساوى** ، لأنى لا أستطيع أن ارتفع الى أعلى من ذلك) للقيام بتلك المسيرة الملكية الى جبل المريا ، فانى اعرف جيدا ما كان يمكن أن أفعله . فلن أكون جبانا بحيث اقبع فى المنزل ، لا لن اتقاعس أو اتلكأ فى الطريق ، أو انسى السكين ، حتى يكون ثمة تأجيل صغير ـ بل انا مقتنع تماما بأننى سأكون هناك عند دقة الساعة ، وأن يكون كل شىء فى موضعه ، بل ربما بكرت فى الذهاب ، حتى أفرغ من كل شىء بأسرع ما يمكن . ولكننى أعرف أيضا ما كان يمكن أن افعله بدلا من ذلك . ففى اللحظة التى امتطى فيها الجواد ، كنت سأقول لنفسى : « الآن ضاع كل شىء ، الله يطلب اسحق ، وانا أضحى به ، ومعه أضحى بفرحى ـ ومع ذلك فالله محبة ، وسيظل كذلك بالنسبة الى ، ففى العالم الزمانى لا يمكن أن اتحدث انا والله معا ، فليست بيننا لغة مشتركة » . وربما كان فى عصرنا شخص أحمق بما فيه الكفاية ، أو حسود بما فيه الكفاية لما هو عظيم ، بحيث يريد أن يجعل نفسه ويجعلنى اعتقد اننى لو فعلت ذلك حقا لكان فى مقدروى أن اقوم بفعلة أعظم من فعلة ابراهيم . ذلك أن تسليمى الفذ كان اكثر مثالية وشاعرية بكثير من ضيق أفق ابراهيم . ولكن هذا هو الزيف الاعظم ، لأن تسليمى الفذ لم يكن سوى بديل عن الايمان ، كما لا استطيع ان افعل أكثر من تلك الحركة اللامتناهية لكى أجد نفسى ، واستقر فى نفسى مرة أخرى ـ وفى هذه الحالة لن أكون قد أحببت اسحق كما احبه ابراهيم ، اما اننى كنت عازما على الاتيان بتلك الحركة فقد يبرهن على شجاعتى اذا تحدثنا من وجهة النظر الانسانية ، اما اننى أحببته بكل روحى ، فهو الافتراض الذى بدونه تصبح المسألة كلها جريمة ، ولكننى

(م ٤ ـ خوف)

مع ذلك ، لم أحب كما احب ابراهيم ، لانني كنت في هذه الحالة امسك (عن قتل اسحق) حتى ولو كان ذلك في اللحظة الاخيرة ، وان لم يكن هذا السبب هو ما يجعلني أصل الى جبل المريا في وقت متأخر جدا . وفضلا عن ذلك فأنني بمسلكي هذا يمكن أن افسد القصة كلها ، لانني لو استعدت اسحق ، لوضعني ذلك موضع الحيرة . فما ألفاه ابراهيم اسهل شيء كنت أجده صعبا ، اى ان اعود مرحا مع اسحق : لأن من استطاع بكل ما في روحه من لا نهاية ، وبقوته الخاصة وعلى مسئوليته الخاصة — أن يؤدى هذه الحركة اللامتناهية (اعني التسليم) ولا يستطيع أن يفعل المزيد ، هو الذي يحتفظ باسحق في جهد جهيد .

ولكن ، ماذا فعل ابراهيم ؟ انه لم يصل مبكرا جدا أو متأخرا جدا ، وانما امتطى حماره ، وسار متئدا في طريقه . وكان يعتقد طيلة ذلك الوقت — كان يعتقد ان الله لن يطلب منه اسحق ، وان يكن في الوقت نفسه مهيئا للتضحية باسحق اذا طلب منه ذلك . كان يؤمن بفضل اللامعقول ، لان الامر لا يمكن أن يكون نتيجة لحساب انساني ، وكان اللامعقول حقا ان الله الذى طلب منه التضحية يرجع عنها في اللحظة التالية . وارتقى الجبل ، وحتى في اللحظة التي لمعت فيها السكين كان يعتقد ... أن الله لن يطلب اسحق . وكان في دهشة حقا من النتيجة ، ولكنه بحركة مزدوجة بلغ موضعه الاول ، ومن ثم تلقى اسحق بفرح أعظم من المرة الاولى . فلنمض الى ابعد من ذلك . ولندع اسحق يضحى به حقا . وكان ابراهيم مؤمنا . ولكنه لم يكن ايمانه أنه سيكون يوما ما مباركا في الاخرة ، ولكن انه سيكون سعيدا في هذا العالم . ويستطيع الله ان يمنحه اسحاق جديدا ، وأن يعيد الى الحياة من قدم قربانا . كان يؤمن بفضل اللامعقول ، ذلك أن كل حساب انساني قد توقف منذ مدة طويلة عن اداء وظيفته ، ان الحزن يمكن أن يفسد عقل الإنسان ، هذا ما نراه ، وهو أمر محزن غاية الحزن ، وان هناك ما يسمى بقوة الارادة بحيث يمكن ان تهب مقتربة كل هذا القرب من الريح لانقاذ عقل الانسان ، حتى ولو ظل غريبا الى حدما (٢٥) ، فهذا شيء نلمسه أيضا . ولست انوى الاستخفاف بهذا كله ، ولكن أن يكون

الانسان قادرا على فقدان عقله ، وبالتالى كل التناهى الذى يتخذ العقل وسيطا ، ثم أن يكتسب بفضل اللامعقول ذلك التناهى نفسه دون زيادة أو نقصان — هذا كله يصدم روحى ، ولكنى لا أقول لهذا السبب انه شيء دنيء ، مادام هو على العكس من ذلك الاعجوبة الوحيدة . والناس يذهبون عامة الى ان ما ينتجه الايمان ليس عملا من أعمال الفن ، وانما هو شيء غليظ مبتذل ، لا يخاطب الا الطبائع الفظة ، والواقع أن هذا الكلام ابعد ما يكون عن الحقيقة ، ذلك أن جدل (ديا لكتيك) الايمان هو ألطف أعمال الفن وأروعها جميعا ، أنه يمتلك سموا أستطيع أن أكون عنه تصورا بكل تأكيد ، ولكن دون زيادة . وأنا أستطيع أن أقوم من المنصة بتلك الوثبة العظيمة التى أبلغ بها اللامتناهى ، وان يكن ظهرى أشبه بظهر راقص الحبال ، فقد أصابه التواء فى طفولتى (٢٦) ، ولهذا أجد هذا شيئا يسيرا ، مع العد : واحد ، اثنين ، ثلاثة ! واستطيع ان امشى فى الوجود على راسى ، ولكن الشيء التالى هو مالا استطيع أن أفعله ، فأنا عاجز عن أداء الشيء المعجز ، وان كنت قادرا على الاندهاش ازاءه . أجل ، لو ان ابراهيم قال فى نفسه لحظة أن هز رجله فوق ظهر حماره : « الان ، مادام اسحق قد فقد ، فقد كنت أستطيع ان أضحى به هنا فى البيت ، بدلا من أن اركب ذلك الطريق الطويل حتى المريا » — وعندئذ ، لن تكون بى حاجة الى ابراهيم ، وان كنت الان أنحنى سبع مرات أمام اسمه ، وسبعين مرة أمام فعلته . لان هذا هو ما لم يفعله بكل تأكيد ، كما أستطيع ان اثبت ذلك بسروره لتلقى اسحق ، سرورا من أعماق القلب ، وانه لم يكن بحاجة الى أى اعداد ، أو اى وقت للتركيز على المتناهى وافراحه . ولو لم تكن هذه حالة ابراهيم ، لكان من الممكن أن يحب الله ، ولكن دون أن يؤمن ، ذلك لان من يحب الله بلا ايمان يفكر فى نفسه ، ومن يحب الله بايمان يفكر فى الله .

وعلى الذروة ، وقف إبراهيم ، وفى المرحلة الاخيرة يغيب عن بصره التسليم اللامتناهى . والحق أنه يمضى الى أبعد من ذلك ، ليصل الى الايمان ، فانه بالنسبة لكل تلك الاشكال الممسوخة من الايمان ،

وذلك التراخى الفاتر الذى يفكر قائلا : « ليست هناك بكل تأكيد حاجة فورية ، ولا جدوى من الاسف قبل حلول الوقت » ، أو ذلك الامل الهزيل الذى يقول : « لا يعلم المرء ما يمكن أن يقع .. فقد يكون الامر ممكنا على كل حال » — هذه المسوخ من الايمان هى جزء لا يتجزأ من تعاسة الحياة ، وقد أسلمهم التسليم اللامتناهى فعلا للاحتقار اللامتناهى .

أما ابراهيم ، فأنا لا أستطيع أن أفهمه (٢٧) ، ولا أستطيع أن أتعلم منه شيئا — بمعنى من المعانى — اللهم الا الدهشة . ولو تخيل الناس أنهم بتأمل حصيلة هذه القصة قد يتركون انفسهم للتأثر بالايمان ، فانهم يخدعون أنفسهم ، ويريدون أن ينتزعوا الله فى أول حركة للايمان ، وهى التسليم اللامتناهى . انهم بذلك يمتصون الحكمة الدنيوية من المفارقة ، وربما نجح واحد أو أكثر فى ذلك ، لان عصرنا ليس مهيئا للوقوف عند الايمان ، وعند معجزته فى تحويل الماء الى نبيذ ، وانما يمضى الى أبعد من ذلك ، فيقوم بتحويل النبيذ الى ماء .

الم يكن من الافضل الوقوف عند الايمان ، وأليس من دواعى النفور أن يريد كل انسان أن يمضى الى أبعد من ذلك ؟ وعندما لا يريدون فى عصرنا (كما يعلنون ذلك بطرق شتى) أن يقفوا عند الحب ، فالى أين يذهبون اذن ؟ الى الحكمة الارضية ، الى الحسابات التافهة ، الى الخسة والوضاعة ، الى كل ما يمكن أن يجعل الاصل الالهى للانسان أمرا مشكوكا فيه . الم يكن من الافضل ان يقفوا بلا حراك عند الايمان ، وأن من يقف ينبغى عليه أن يحذر من السقوط ؟ ذلك لان حركات الايمان جميعا يجب أن تتم بفضل اللامعقول ، وان يكن مما ينبغى أن نلاحظه أن المرء لا يفقد المتناهى بهذه الطريقة ، ولكنه يكسب كل بوصة فيه . وأستطيع — من ناحيتى — أن أصف حركات الايمان ، ولكنى لا أستطيع أن أقوم بها . وعندما يتعلم المرء أن يؤدى حركات السباحة ، فانه يستطيع أن يترك نفسه معلقا بحزام السباحة من السقف ليقوم بتلك الحركات (وصف هذه الحركات ، كما نتحدث عن

وصف دائرة) ، ولكنه لا يعوم فى هذه الحالة . وعلى هذا النحو استطيع أن أصف حركات الايمان ، ولكن عندما يلقى بى الماء ، فأسبح ، هـذا حق (فأنا لا انتسب الى الخائضين على الشاطىء) ، ولكننى سـأقوم بحركات أخرى ، سأقوم بحركات اللامتناهى ، على حين يؤدى الايمان عكس ذلك : فبعد أن يقـوم بحركات اللامتناهى ، فانه يؤدى حركات التناهى . سلاما لذلك الذى يستطيع أن يقوم بتلك الحـركات ، فانه يؤدى شيئا رائعا ، ولن أسأم أبدا من الاعجاب به ، سواء أكان ابراهيم أم عبدا فى بيته ، سواء أكان أستاذ فلسفة ، أم خادمة ، فأنا لا أنظر الا الى الحركات . ولكننى انظر اليها ، ولا أدع للخداع نفسى ، سواء بواسطتى او بواسطة أى شخص آخر . ان فرسان التسليم اللامتناهى يمكن التعرف عليهم فى يسر : مشيتهم منسابة واثقة فى نفسها . أمـا أولئك الذين يحملون جوهرة الايمان ، فانهم عرضة لتضليل الاخرين ، لأن مظهـرهم الخارجى يشبه شبهـا كبيرا ما يزدريه كل من التسـليم اللامتناهى والايمان ازدراء عميقا ... اعنى مظهر التنطع .

واعترف بصراحة اننى لم أعثر فى ممارستى للحياة العملية علـى مثل موثوق به لفارس الايمان ، وان كنت لا أنكر ان كل رجل ثان يمكن أن يكون هذا المثل . وقد حاولت على كل حال — اعواما عـديدة أن أتعقب هذا المثل ، ولكن دون طائل . والناس يطوفون عادة بالعالم ليشاهدوا الانهار والجبال ، والنجوم الجـديدة ، والطيور النادرة ، والاسماك الغريبة ، والسلالات البشرية المضحكة — وهم يستسـلمون لذلك الذهول الحيوانى الذى يفغر فاه ازاء الوجود ، ويعتقدون أنهم قد شاهدوا شيئا . هذا شىء لا يعنينى . ولكننى لو علمت أين يوجد فارس الايمان ، لشرعت فى الحج اليه سيرا على الاقدام ، لان هـذه الاعجوبة تثير اهتمامى اثارة مطلقة . ولن أدعه يفلت منى لحظة واحدة ، وسـأراقبه كل دقيقة لارى كيف وصل الى القيام بحـركات الايمان ، وسأعتبر نفسى آمنا طيلة الحياة ، وسأقسم وقتى بين مراقبته وممارسة التدريبات بنفسى ، وهكذا أنفق وقتى كله فى الاعجاب به . وكما قلت آنفا : اننى لم أعثر على مثل هذا الشخص ، ولكننى أستطيع تصـوره .

هاهو ذا . تم التعارف ، وقدمت اليه . وفى اللحظة التى وقعت فيهـــا عيناى عليه ، دفعته فورا بعيدا عنى ، وقفزت انا نفسى متراجعـــا ، وضربت كفا بكف ، وهتفت بصوت أدنى الى الارتفاع ، « سبحانك ربى ، هل هذا هو الانسان ؟ أحقا هو هذا ؟ ولماذا يبدو كجامع الضرائب ! » ولكنه ، هو نفسه ذلك الرجل على كل حال . وأدنو منه ، مـــراقبا أدنى حركاته لارى ما اذا كانت هناك رسالة صغيرة غير مرئية تلغرافية متنافرة الاجزاء من اللامتناهى ... لمحة ، نظرة ، اشارة ، نغمة حزن ، ابتسامة ، تنم عن اللامتناهى فى تنافره مع المتناهى . ابدا ! وافحص هيئته من قمة رأسه الى أخمص قدميه لارى ان كان هناك صدع يطل من خلاله اللامتناهى . ابدا ! انه متماسك من أوله الى آخره . ومشيته ؟ انها قوية ، تنتمى تماما للتناهى ، فما من رجل انيق الملبس من سكان المدينة يسير الى فريسبرج بعد ظهر يوم أحد يدب على الارض فى ثقة كما يدب عليها ذلك الفارس ، انه ينتمى تماما الى هذه الدنيا ، لا يقل عن أى شخص غرير . ولا يكتشف المرء فيه شيئا مـــن تلك الطبيعـــة المترفعة السامية التى يتعرف بها المرء علـــى فارس اللامتناهى . انه يستمتع بكل شىء ، وعندما يراه المرء مشاركا فى متعة بعينهـــا ، فانه يفعل ذلك بالاصرار الذى هـــو سمة الرجـــل الدنيوى الذى تستغرق روحه مثل تلك الامور . وهو مواظب على عمله ، بحيث أن من ينظـــر اليه قد يفترض أنه كاتب أرشيف قد ضاعت روحه فى نظام معقد للمحفوظات، فهو شديد التدقيق . وهو يأخذ عطلته يوم الاحد ، فيذهب فيـــه الى الكنيسة . ولا تشى به أية نظرة سماوية أو أية علامة أخرى من علامات المطلق ، فاذا لم يعرفه المرء ، لكان من المحال أن يميزه عن بقية الحشد ، لان غناءه الصحى القوى للتراتيل يثبت أن له صدرا سليما . وبعـــد الظهر ، يسير الى الغابة ، فتراه مستمتعا بكل ما يراه ، فى الحشـــود البشرية المندفعة ، فى الحافلات الجديدة (٢٨) ، فى مياه « الصوت » Sound وعندما يلتقى به المرء فى طريق الشاطىء ، قد يظنه صـــاحب حانوت يأخذ حظه من متع الحياة ، هذه هى الطريقة التى يروح بها عن نفسه ، لانه ليس شـــاعرا ، وقد حاولت أن أفتش فيه عبثا عـــن ذلك المطلق الشاعرى . اذا اقترب المساء ، سار الى بيته ، لا يشوب مشيته أى

ارهاق كساعى البريد . وفى طريقه يفكر فى طبق خاص من الطعام الدافىء اعدته له زوجته ، رأس عجل مشوية مثلا متبلة بالخضروات . فاذا التقى برجل مماثل له فى عقليته ، واصل معه الحديث حتى « البوابة الشرقية » حول هذا الطبق . بشهوة تليق برئيس الخدم فى احد الفنادق . وواقع الامر ان رصيده لا يحمل اربعة بنسات ، ولكنه يعتقد اعتقادا راسخا ان زوجته أعدت له ذلك الطبق الفاخر . فاذا كانت قد اعدته ، فسيكون حينذاك منظرا محسودا من علية القوم ، وملهما للرجل البسيط ، أن تراه وهو يتناول طعامه .. لان شهيته أعظم من شهية ايساو Esau . ولكن زوجته لم تعد له شيئا من هذا — والغريب ، ان الامر سيان عنده . وفى طريقه يمر بموقع بناء ، ويلتقى بشخص آخر ، فيتجاذبان لحظة أطراف الحديث .. وفى مثل طرفة عين يقيم بناء جديدا ، ففى متناول يده كل القوى الضرورية لمثل هذا البناء . ويتركه الرجل الغريب معتقدا انه راسمالى بكل تأكيد ، على حين يفكر فارسى العجيب قائلا : « أجل ، اذا كان المال هو ما نحتاج اليه ، فأستطيع أن أقول اننى قادر على الحصول عليه » . ويتكىء على حافة نافذة مفتوحة ، ويلقى ببصره الى الميدان الذى يقطن فيه ، ان كل ما يجرى تحت ناظريه يثير اهتمامه : ذلك الفأر الذى يتسلل تحت الافريز ، أولئك الاطفال الذين يمرحون ، وهو يهتم بهذا كله على ذلك النحو من اللامبالاة الذى تتصف بنه فتاة فى السادسة عشرة . ومع هذا ، فهو ليس عبقريا ، وقد حاولت دون جدوى أن أجد فيه سمات التفرد (أو اللاقياسية) ، الذى تتسم به العبقرية . وفى المساء يدخن غليونه ، فاذا نظرت اليه ، أمكنك أن تقسم بأنه البقال الذى يحب حياة الخمول فى غبش المساء . فهو يحيا خالى البال ، وكأنه شخص متبطل ، ومع ذلك ، فانه يشترى الوقت المقبول بأغلى الاسعار ، وذلك لانه لا يفعل اتفه الاشياء الا بفضل اللامعقول . ومع ذلك ، ومع ذلك — وهذا شىء يمكن أن يثير فى فعلا ، حسدا ان لم يكن ثمة سبب آخر — فان هذا الرجل قام ، ويقوم فى كل لحظة — بحركات اللامتناهى . فبالتسليم اللامتناهى ، افرغ كأس الحياة من حزنها العميق ، وعرف سعادة اللامتناهى ، وهو يحس بالالم الذى

يتنمنا عن العزوف عن كل شيء ، وبأعز مـا يملك فى هـذه الـدنيا ؛ ومع ذلك فان طعم المتناهى لايختلف فى لـذته اختلافه بالنسبة لشخص لـم يعرف مـا هو اسمى أبدا ؛ ذلك أن استمراره فى المتناهى لا يحمل أى اثر من الروح المروعة المخيفة التى تتولـد عن عملية التـدريب ، ومع ذلك ، فان لـديه ذلك الاحساس بالامـان فى استمتاعه بهـا ، وكأن الحيـاة المتناهية هى أشـد الاشياء يقينا . ومع ذلك ، ومـع ذلك ، فان ذلـك الشكل الدنيوى الـذى يتبدى به هو خلق جديد بفضل اللامعقول . لقـد زهـد فى كل شيء زهـدا لامتناهيا ، ثم عاد ، فقبض على كل شيء بفضل اللامعقول . وهو يقوم دون انقطاع بحركات اللامتناهى ، وهو يفعل ذلك بدقة وثقة بحيث ينتزع المتناهى منـه باستمرار ، ولا توجد لحظة واحـدة يكون لديه فيها أيـة فكرة عن شيء آخر . ومن المفروض أن أشق مهمـة بالنسبة للراقص أن يثب الى وضع محـدد بحيث لا توجد لحظة واحـدة يتمسك بها بعد اتخاذ ذلك الووضع ، ولـكن بتلك الوثبة نفسها يقف ثابتا فى ذلك الوضـع ؛ وربما لم يكن فى امكان أى راقص أن يفعـل ذلك — وهذا ما يفعله الفارس . فمعظم الناس يحيون مكتئبين فى افراح الحيـاة واتراحها ، انهم أولئك الذين يجلسون الى جوار الجدار ، ولا يشـاركون فى الرقص . أما فرسان اللامتناهى فراقصون يملكون القدرة على الارتفاع . وهـم يؤدون الحركات صاعـدين ، ويهبطون الى الارض مرة أخرى . وهذا أيضا ليس نوعا دنيئا من تزجيـة الفراغ ، وليس فى مشاهدته شيء من الخزى . ولكنهم فى كل مرة يهبطون فيهـا لا يستطيعون أن يتخـذوا الوضع على الفور ، وانما يترنحون لحظة ، ويكشف هذا الترنح — على كل حال — عن انهم غرباء فى هـذه الدنيا . ويزداد هذا وضوحا أو يقصل بالقياس الى الفن الذى يملكونه ، ولكن حتى أكثر الفرسـان اتقانا لفنه لا يستطيع اخفاء هذا الترنح . ولاحاجة بالمرء ان ينظر اليهم مرتفعين فى السماء وانما فى اللحظـة التى يلمسون فيها الارض — فى هـذه اللحظة يتعرف المرء عليهم . ولكن ، ان يكون المرء قادرا على الهبوط بحيث يبدو انـه واقف سائر فى آن معا ، وعلى تحويل وثبة الحيـاة الى مشية ، للتعبير عما هو جليل فى السائر على قدميه — هذا هو ما يستطيع فارس الايمـان وحده أن يفعله — وهـذه هى الاعجوبة الوحيدة والفريدة .

ولكن ، لما كانت الاعجوبة تميل الى أن تـكون مضللة ، فسأصف الحركات فى مثل محـدد يمكن أن يصور علاقتها بالواقع ، فعلى هذا يتوقف كل شىء . راع شاب يقـع فى غرام أميرة(٢٩) ، ويتألف مضمون حياته كله فى هذا الحب ، ولكن الموقف يجعل من المحال على هذا الحب أن يتحقق ، محال أن يترجم من عالم المثال الى عالم الواقع(*) . ومن الطبيعى أن يصيح عبيد التفاهه ، أولئك الضفادع القابعون فى مستنقع الحياة : « حماقة مثل هذا الحب ، فأرملة صانع الجعة الثرية تليق به تماما زوجة مناسبة محترمة » . دعهم يرسلون نقيقهم فى المستنقع دون أن يزعجهم أحـد . فليس الامر على هذا النحو بالنسبة الى فارس التسليم اللامتناهى . فهو لا يتخلى عن حبه ، نظير أمجاد العالم . وهو ليس من الحمق فى شىء . فهو يتأكد أولا من أن هذا هو مضمون حياته حقا، وروحه من الصحة والكبرياء بحيث لا يبدد اتفه الاشياء على شىء مخدر . وهو ليس جبانا ، ولا يخشى أن يترك الحب يتسلل الى أشد أفكاره استسرارا واختفاء ، وأن يدعه يلتف جدائل لا حصر لها مع كل ثنية من ثنايا شعوره ـــ فاذا أصبح الحب شقيا ، فلن يكون قادرا أبدا على انتزاع نفسه بعيدا عنه . بل انه ليشعر بوجد سعيد حينما يترك الحب يوخزه فى كل عصب من اعصابه ، ومع ذلك فان روحه مطمئنة اطمئنان الذى أفرغ قنينة السم ، وأخذ يشعر بالرحيق يسرى ممتزجا بكل قطرة من دمه ـــ لأن هذه اللحظة هى الحياة والموت . وهكذا ، عندما امتص فى نفسه الحب كله، واستغرقت نفسه فيه ، فانـه لا يفتقر الى الشجاعة ليختبر كل شىء ، وليغامر بكل شىء، وهو يستعرض موقف حياته ، وهو يستجمع الافكار الخاطفة التى تطيع كل ما يأمر به كأنها اليمام المستأنس ، وهو يلوح بعصاه عليها ، فتنطلق فى كل اتجاه . ولكن،

(*) من الطبيعى أن أى مثل آخر يجد فيه أن واقع الوجود الفعلى بأكمله مركز بالنسبة اليه ، أو قد يكون ـــ عندما يراه غير قابل للتحقيق ـــ مناسبة لحركة التسليم . ومهما يكن من أمر فقد اخترت تجربة حب لكى أجعل الحركة مرئية ، لأن هذا الموضوع أسهل للفهم بلا شك ، ومن ثم ، فانه يعفينى من ضرورة ابداء ملاحظات أولية قد لا تكون بمعنى أعمق الا مثار عدد قليل من القراء .

عندما ترجع جميعا ، بوصفها رسل الحزن ، وتعلن له أن الأمـــر محال ، تهدأ نفسه ، فيصرفها ، ويبقى وحيدا ، ثم يؤدى حركات الايمان . فاذا كان لما أقوله اية دلالة ، فان من الضرورى أن تأتى الحركة على نحـــو سوى(*) .

وهكذا ، سيكون الشيء الاول هو أن يتمكن الفارس من تركيز مضمون الحياة كله ، ودلالة الواقع كلها فى رغبة واحدة . فاذا افتقر الانسان الى هذا التركيز والى هذه الشدة ، واذا تبعثرت روحه منذ البداية فى المتعدد ، فلن يصل ابدا الى النقطة التى يستطيع عندها ان يقوم بحركة الايمـــان ، وسيتعامل فى الحيـــاة بحصافة كما يتعامل الراسماليون الذين يستثمرون اموالهم فى كل أنواع التأمينات حتى يربحون فى الواحد ما يخسرونه فى الآخر — وباختصار — انه ليس فارســا . وفى المحل الثانى ، سيكون للفارس

(*) العاطفة ضرورية لتحقيق هذه الغاية . وكل حركة من حركات اللامتناهى تتم بالعاطفة ، أما التفكير فلا يمكن ان يأتى بحركة واحدة . وهذه هى الوثبة المستمرة فى الوجود التى تفسر الحركة ، على حين ان التأمل ما هو الا وهم يفترض هيجل انه يفسر كل شيء ، وهذا — فى الوقت نفسه — هو الشيء الوحيد الذى يحاول تفسيره . وحتى اذا أردنا أن نقـــــوم بالتمييز السقراطى الشهير بين ما يفهمه المرء وما لا يفهمه ، نحتاج الى العاطفة ، وبالطبع تزداد حاجتنا اليها اذا أردنا أن نقوم بالحركة السقراطية المميزة اعنى حركة الجهل. وعصرنا لايفتقر — على كل حال — الى التأمل،بل الى العاطفة ، ومن ثم ، فان عصرنا — بمعنى ما — شديد التمسك بالحياة بحيث لا يريد الموت ، لأن الموت من أبرز الوثبات ، وهناك بيت من الشعر لشاعر اجتذبنى دائما اجتذابا شديدا ، لأنه بعد أن عبر فى جمال وبساطة فى الابيات الخمسة أو الستة السابقة — عن رغبته فيما تحتويه الحيـــاة من اشياء جميلة يختتم بهذا البيت(٢١) **Ein seliger Sprung in die Fwigkêit** وثبة هنيئة الى الابدية .

القدرة على تركيز كل حصيلة عمليات الفكر فى فعل واحد للشعور ، فـاذا افتقر الى هذه الشدة وكانت روحه مبعثرة منذ البداية فى المتعدد ، فلن يتاح له الوقت ابدا للقيام بحركات الايمان ، وسيكون منغمسا دائما وابدا فى مهام الحياة ، ولن يدخل الابدية أبدا ، حتى فى اللحظة التى يكون فيها أقرب ما يكون اليها ، سيكتشف فجأة انه نسى شيئا ينبغى ان يعود على أعقابه من أجله . وسيعتقد أن دخول الابدية امر ممكن فى اللحظة التالية ، وهذا حق تماما ، ولكن الانسان — بمثل هذه التقديرات — لا يصل قط الى نقطة القيام بالحركات ، وانما يغوص المرء بمعونتها فى المستنقع الى اعمق فأعمق .

وهكذا يقوم الفارس بالحركة — ولكن اية حركة ، اتراه ينسى المسألة كلها ؟ (لأن فى هذه ايضا ثمة ضرب من التركيز) كلا ! لأن الفارس لا يناقض نفسه ، ومن التناقض أن ينسى المرء مضمون حياته كلها ، ويبقى — مع ذلك، هو نفسه . أما أن يصبح شخصا آخر ، فأمر لا يشعر بأى ميل اليه ، كما لا يعتبر ذلك عظمة بأى حال من الاحوال . والطبائع الخسيسة وحدها هى التى تنسى نفسها ، وتصير شيئا جديدا . فالفراشة تنسى تماما انها كانت يرقة ، وربما نسيت تماما أنها كانت فراشة حين تصبح سمكة . أما الطبائع العميقة فلا تنسى نفسها أبدا ، ولا يمكن ان تصبح شيئا آخر غير ما كانت عليه . وهكذا يتذكر الفارس كل شىء . غير أن هذا التذكر هو الألم بعينه ، ولكنه بالتسليم اللامتناهى متصالح مع الوجود ، لقد اصبح حبه للاميرة بالنسبة اليه تعبيرا عن حب أبدى ، وأتخذ طابعا دينيا ، وتسامى الى حب « الوجود الابدى » ، الذى ينكر عليه بكل تأكيد اشباع هذا الحب ، ولكنه يصالحه مرة اخرى بواسطة الشعور الابدى بصحته على صورة الابدية التى لا يستطيع اى واقع انتزاعها منه . ويهذى الحمقى والشباب بأن كل شىء ممكن للانسان . وهذا خطأ جسيم على كل حال . فمن وجهة النظر الروحية ، كل شىء ممكن ، اما فى عالم المتناهى فثمة الكثير مما لا يدخل فى عداد الممكن . وهذا المجال يجعله الفارس ممكنا — على كل حال — بالتعبير عنه تعبيرا روحيا ، ولكنه يعبر عنه ذلك التعبير الروحى بالتنازل عن المطالبة

به . والرغبة التى يمكن أن تحمله الى الواقع ، ولكنها تحطمت على صخرة المحال ، قد انطوت الآن الى الداخل ، ولكنها لم تضع مع ذلك ، ولم يطوها النسيان . ففى لحظة تكون العاطفة الغامضة للرغبة التى تعتمل فى داخله هى التى توقظ الذكريات ، ولحظة أخرى يقوم بايقاظها هو نفسه ، فهو اشد كبرياء من أن يكون مضمون حياته كله شيئا تحمله اللحظة العابرة . وانما يحتفظ بحبه ، وكلما مضى معه كبر فى الاعوام وازداد بهاء . وهو من ناحية اخرى ، ليس فى حاجة الى تدخل المتناهى ليزداد حبه نموا . فمنذ اللحظة التى اقدم فيها على الحركة ، ضاعت الاميرة بالنسبة اليه . فلم يعد بحاجة الى تلك الدغدغة العاشقة فى االأعصاب عند مرأى الحبيبة ... الخ ، كما انه ليس بحاجة الى أن يستأذنها باستمرار للرحيل ، بالمعنى المتناهى ، لأنه يتذكرها (أو يسترجعها) بمعنى أبدى(٣٢) ، وهو يعلم جيدا ان المحبين الذين يميلون الى « رؤيتها » ولو مرة اخرى ، ليقولوا لها وداعا للمرة الأخيرة ، مصيبون فى هذا الميل ، وأنهم على حق حين يظنون أنها المرة الاخيرة ، لانهم ينسون أحدهما الآخر بأسرع وقت . وقد فهم أيضا ذلك السر العميق وهو أن المرء عندما يحب شخصا آخر ، فعليه أن يكتفى بذاته . فلا يعنيه فى قليل أو كثير ما تفعله الاميرة ، وهذا بالضبط دليل على أنه قد اتخذ الخطوة بصورة لا متناهية . وهنا قد تتاح للمرء الفرصة لأن يرى ان كانت الخطوة التى يتخذها شخص معين صادقة أم زائفة . فهنا من اعتقد أيضا أنه اتخذ تلك الخطوة ، ولكن عجبا ، لقد انقضى الزمن وفعلت الاميرة شيئا آخر ، لقد تزوجت(٣٣) — وليكن أميرا ، وهنا فقدت روحه مرونة التسليم ، ومن ثم يعرف أنه لم يتخذ تلك الخطوة بحق ، لأن ذلك الذى اقدم على فعل التسليم بصورة لا متناهية يكتفى بنفسه ، أما الفارس فلا يلغى تسليمه ، ويحتفظ بحبه فتيا كما كان فى لحظته الاولى ، ولا يتركه يفلت منه ابدا ، لأنه قد أقدم على الخطوة اقداما لا متناهيا . وما تفعله الاميرة ، لا يمكن أن يزعجه ، والطبائع **الوضيعة** وحدها هى التى تستمد من الآخرين قانون أفعالها ، وتجد مقدمات افعالها خارج انفسها . فاذا كانت الاميرة من ناحية اخرى بهذه العقلية ، كانت النتيجة الجميلة واضحة ، فسوف تنضم الى طريقة الفروسية هذه ،

التى لا يقبل فيها الاعضـــاء بالاقتراع ، وانما لكل انســـان أن يكون عضوا فيها اذا كانت لديه الشجاعة لتقديم نفسه ، طريقة الفروسية هذه التى تثبت خلودها بأنها لا تضع أى تمييز ، بين الرجل والمرأة . وسيحتفظ الاثنان بحبهما فتيا سليما ، وستتمكن هى أيضا من الانتصار على آلامها ، وان لم ترقد ـــ كما تقول الاغنية الشعبية (البالاد) « كل ليلة الى جوار سيدها » . وهذان العاشقان سيظل أحدهما متفقا مع الآخـــر الى الأبـــد ، فى انسجام ازلى(٣٤)، harmonia praestabilita أحسن توقيته ، بحيث لو حانت اللحظـــة ـــ تلك اللحظة التى لا تعنيهما بصورة متناهية (لانهما سيكونان حينئذ عجوزين)، لو حانت هذه اللحظة التى تبدى استعدادها لاعطاء الحب تعبيره فى الزمان ، فسيكون فى مقدروهما البدء تمامـــا عند النقطة التى كان من الممكن أن يتحـــدا عندها أصـــلا . ومن يفهم ذلك ســـواء أكان رجـــلا أم امرأة ـــ لا يمكن أن يخدع أبـــدا ، لأن الطبائع الخسيسة هى وحـــدها التى تتخيل انها خدعت . والفتـــاة التى لا تكون على مثـــل هذه الكبرياء لا تعـــرف كيف تحب حقا ، ولكن اذا كانت على مثـــل هـــذه الكبرياء ، فان مكـــر العالم كله ودهـــاءه لا يمكن أن يخـــدعاها .

. . . .

وفى التسليم اللامتناهى يكون السلام والراحـــة ، وكل من يعـــــزم عليه ، وكل من لميحط من شـــأن نفسه باحتقـــارها (وهو امر افظع مـــن أن يكون المرء متكبرا) يمكن أن يدرب نفسه على اتخـــاذ هذه الحـــركة التى بما تنطوى عليه من ألم تصالح الانسان مع الوجـــود . والتسليم اللامتناهى هو ذلك القميص الذى نقـــرأ عنه تلك الخـــرافة القديمـــة(٣٥) . فالخيط ينسج تحت الدموع ، والثـــوب يبيض بالدموع ، والقميص يحـــاك بالدموع، ولكنه يصبح بعـــد هذا كله أقـــوى حماية من الحـــديد والصلب . والنقص الذي نلمســـه فى تلك الخـــرافة أن طرفا ثالثـــا يمكن أن يصنع هـــذا القميص. والسر فى الحياة هـــو أن كل شخص ينبغى أن يصنع هذا القميص لنفســـه، والشىء المدهش هو أن الرجـــــل يستطيع ان يحيكه تماما كما تحيكه المرأة. وفى التسليم النهائى يكون السلام والراحـــة والاستقرار فى الحـــزن ـــ هذا اذا تمت الحركة على نحو سوى . ولن يكون من العسير على ـــ على كل

حال ـــ أن أكتب كتابا بأكمله ان أردت ان افحص الالوان المتعددة من سوء الفهم ، والمواقف الشاذة ، والحركات المضللة التى صادفتها فى حياتى العملية القصيرة . فالناس لا يؤمنون الا قليلا بالروح ، ومع ذلك فان الاقدام على هذه الحركة يعتمد على الروح ، كما تعتمد على ما اذا كانت هذه أو لم تكن نتيجة ذات جانب واحد لحكم الضرورة **dira necessitas** ، فان كان ذلك حاضرا ، زاد الشك دائما فيما اذا كانت الحركة سوية . فاذا كان المرء يعنى بهذا أن تكون الضرورة البناردة العقيم حاضرة بالضرورة ، فيستطيع المرء أن يؤكد حينئذ أن ما من أحد يمكنه أن يختبر الموت قبل أن يموت فعلا ، وهذا ما يبدو لى نزعة مادية مسرفة . ومهما يكن من أمر ، فان الناس فى زماننا لا يعبأون كثيرا باتخاذ الحركات الخالصة . ولو أن شخصا كان بسبيله الى تعلم الرقص قال : « مضت قرون الآن أخذ فيها جيل بعد جيل يتعلم اتخاذ المواقف ، وقد حان الوقتلاستخلص من هذا شيئا من الامتياز ، فأبدأ مباشرة بالرقصات الفرنسية » ـــ فسيسخر منه الناس ، أما فى عالم الروح فانهم يجدون هذا أمرا مقبولا تماما . فما هى التربية ؟ افترض ان التربية هى المقرر الذى ينبغى على المرء أن يدرسه لكى يدرك نفسه ، ومن لم يدرس هذا المقرر لن ينفعه الا قليلا أنه ولد فى اكثر العصور استنارة .

والتسليم اللامتناهى هو المرحلة الاخيرة السابقة على الايمان ، بحيث أن الشخص الذى لم يقم بهذه الحركات لا يبلغ الايمان ، لأنه بالتسليم اللامتناهى وحده أصبح واضحا أمام نفسى فيما يتعلق بصحتى الابدية **Validity** ، وهنا فحسب يمكن أن نكون بصدد الامساك بالوجود بفضل الايمان .

والآن فلندع فارس الايمان يظهر فى الدور الذى وضعناه آنفا . انه يقوم بنفس الحركات التى يقوم بها الفارس الآخر تماما ، فيتخلى بصورة لا متناهية عن المطالبة بالحب الذى هو مضمون حياته ، وهو يتصالح فىالألم ، ولكن عندئذ تحدث الاعجوبة ، اذ يقوم بحركة أخرى أروع من كل الحركات ، لأنه يقول : « أعتقد مع ذلك أننى سأنالها بفضل اللامعقول ،

وبفضل هذه الحقيقة وهى أن الاشياء جميعا ممكنة عند الله »(٣٦) . فليس اللامعقول عامـــلا من العوامل التى يمكن تمييزها فى نطـــاق الفهم العـــادى : انه فى هوية مع اللامحتمل ، واللامتوقع ، وما لا يمكن التنبؤ به . وفى اللحظة التى قام فيها الفارس بفعل التسليم (٣٧) ، كان مقتنعا بالمحال ، اذا تحدثنا من وجهة نظر انسانية ، وكانت هذه هى النتيجـــة التى وصـــل اليها بالعقل ، وكانت لديه طاقة كافية للتفكير فيها . ولكنها كانت من ناحية اخـــرى ممكنة ، بمعنى لا متناه ، أعنى بالزهـــد فيها . غير أن هـــذا النوع من الامتـــلاك هو فى الوقت نفسه نـــوع من التخلى ، ومع ذلك لا يوجـــد شىء من اللامعقـــول فى هـــذا الموقف بالنسبة للعقـــل ، لأن العقل يستمر فى مجـــال الصـــواب حين يؤكد أنه فى عالم التناهى الذى يسيطر عليه ، يكـــون هـــذا الموقف ـــ ويظل ـــ استحالة . وهـــذا واضح كل الوضـــوح لفارس الايمـــان ، ومن ثم ، فإن الشىء الوحيد الذى يمكن أن ينقذه هو اللامعقول ، وهـــذا يمسكه بواسطة الايمـــان . اذن ، فهو يتعرف على الاستحالة ، وفى هـــذه اللحظة عينها يؤمـــن باللامعقـــول . لأنه بدون التعرف على الاستحالة بكل ما فى روحه من عواطف ، وبكل قلبه ، فانـــه قـــد يرغب فى تخيل أنه يملك الايمان ، فيخـــدع نفسه ، ولا يكون لشهادته أى وزن ، مادام لم يصـــل حتى الـــى التسليم اللامتناهى .

ليس الايمان اذن عاطفة جمالية ، بل شيئا أعلى من هـــذا كثـــيرا ؛ لأنه يتخـــذ من التسليم شرطه الاولى ، وهو ليس غريزة مباشرة من غرائز القلب ، ولكنه مفارقة الحياة والوجود . وهكذا حين تظـــل فتاة صـــغيرة مقتنعة رغـــم كل الصعاب أن رغبتها ســـوف تتحقق يقينا ، فان هذا الاقتناع ليس ضمانا للايمان لو انها نشئت على أيـــدى والدين مسيحيين ، أو ربمـــا ظلت عاما بأكمله تلقن تعاليم الدين على يـــد قسيس . انها مقتنعـــه بـــكل سذاجتها وبراعتها الطفولية ، وهـــذا الاقتناع يسم طبيعتها بالنبل ، ويضفى عليها عظمة خارقـــة للطبيعة ، ولهـــذا تستطيع وكانها صانعة للمعجـــزات ـــ أن تستحضر قوى الوجـــود المتناهية ، وأن تجعـــل الصخور نفسهـــا تبكى ، وان كان من الممكن ـــ من ناحيـــة أخـــرى ـــ أن تهرع فى فـــورة

اضطرابها الى هيرود ، أو الى بلاطس ، وأن تحرك العالم كله بدموعهـــا . فأقتناعها شيء محبب ، ويستطيع المرء أن يتعلم منها الكثير . غير أن شيئا واحـــدا لا يمكن تعلمه منها ، فالمرء لا يتعلم الحركات ، ذلك أن اقتناعهـــا لا يجرؤ أثناء عذاب التسليم على مواجهة الاستحالة .

وهكذا أستطيع أن ادرك أن الامـــر يتطلب القـــوة والطاقـــة وحرية الروح لكى نقـــوم بحركة التسليم اللامتناهية ، كمـــا أستطيع ان أدرك أيضا أنه شيء قابل للفعل . بيد أن الشيء التالى يثير دهشتى ، ويجعـــل راسى فى بحران ، فبعـــد أن يقوم المرء بحركة التسليم ، فاذا به يحصـــل على كل شيء بفضـــل اللامعقول ، وتتحقق مشيئته كاملة غـــير منقوصة ــ هـــذا ما يتجاوز القـــوة البشرية ، انه اعجوبة ، ولكننى أستطيع أن اتصور هـــذا : أن اقتناع الفتاة مجرد نزق بالقيـــاس الى الصـــلابة التى يتبدى بها الايمان رغـــم ادراكها للاستحالة . وكلما حاولت الاقـــدام على هـــذه الحـــركة ، يصيبى الدوار ، وفى اللحظة التى يستولى فيها على الاعجاب بها بصـــورة مطلقة يعتصر روحى قلق هائل ــ فما معنى امتحان الله ؟ ومع ذلك فان هذه حركة هى حركة لايمان ، وستبقى كذلك ، حتى وان جعلتنا الفلسفة ــ بغرض الخلط بين المفاهيم ــ نؤمـــن بأنها تملك الايمـــان ، وحتى لـــو باع اللاهوت الايمان بثمن بخس .

فعل التسليم لا يتطلب الايمان ، لأن ما اكسبه بالتسليم هـــو شعورى الابـــدى ، وهـــذا الشعور حركة فلسفية خالصـــة اتجاسر وأقـــول اننى قادر على اتيانها اذا طلبت منى ، كما أستطيع أن ادرب نفسى على اتيانها ، فأينما استطاع أى تناه أن يسيطر على ، ســـأجاهـــد نفسى حتى استطيع القيام بالحركة ، لأن شعورى الابـــدى هو محبتى لله ، وهذا بالنسبة الى أعلى من كل شيء . فعـــل التسليم لا يقتضى الايمـــان ، ولكنه مطلوب فى حالة اكتساب أقـــل شيء يزيـــد على شعورى الابـــدى ، وهذا هـــو المفـــارق Paradoxical وكثيرا ما يحدث الخلط بين الحركتين ، اذ يقـــال ان المرء

يحتاج الى الايمـــان ليتخلى عن المطالبـــة بكل شيء ، أجل ، بل يمكـــن أن نسمع ما هـــو أغـــرب من ذلك ، فعندما يندب شخص ما ضياع ايمـــانه ، وعندما ينظـــر المرء الى الميزان ليرى أين مكانه ، يـــرى ــ وياللغرابة ! ــ انه لم يبلغ الا النقطة التى ينبغى عليه عنـــدها أن يقـــوم بحـــركة التسليم اللامتناهية . وفى التسليم ، ازهـــد فى كل شيء ، وهذه الحـــركة أقـــوم بها بنفسى ، واذا لم أقم بها ، فذلك لاننى رعديد مخنث خلو من الحماسة ، ولا اشعر بدلالة تلك الكرامة الساميـــة الممنوحـــة لكل انسان وهى أن يـــكون الرقيب على نفسه ، وهـــو لقب أفخم كثيرا من لقب « الرقيب العـــام » على الامبراطورية الرومانية بأسرها . هـــذه الحركة أقـــوم بها بنفسى ، ومـــا أكسبه هو نفسى فى شعورها الابدى ، وفى اتفاق سعيد مع حبى « للكائن الابدى » . ولكننى بالايمان ، لا اتخلى عـــن شيء ، وانما علـــى العكس ، بالايمان أنال كل شيء ، بذلك المعنى الذى يقال به ان من يملك حبـــة مـــن خردل من الايمان يستطيع أن يزحزح الجبال . مجرد الشجاعة البشرية هـــى المطلوبة للتخلى عن الزمانى كله فى سبيل اكتساب الابدى ، ولكن هـــذا شيء أكسبه ، ولا أستطيع أن أتخلى عنه الى الابد ــ وهذا تناقض ذاتى . ولكن ثمة شجاعـــة مفارقـــة متواضعة مطلوبة للامساك بالزمانى كله بفضـــل اللامعقول ، وهذه هى شجاعة الايمان . وبالايمان لم يتخـــل ابراهيم عـــن مطالبته باسحاق ، ولكنه بالايمان استعاد اسحاق . وبفضل التسليم كان ينبغى على ذلك الشاب الموسر أن يزهـــد فى كل شيء ، ولكنه عنـــدما يفعـــل ذلك ، لابد أن يقول له فارس الايمان : « بفضل اللامعقول سوف تسترد كل فلس أنفقته .. لا تستطيع أن تؤمن بهذا ؟ » . وهذا القول ينبغى الا يمر دون اكتراث بأى حـــال من الاحوال ، من جانب الشاب الموسر المذكـــور ، ففى حالة تنازله عن خيراته لأنه قـــد سئمها ، فلن يـــكون فى تسليمه مـــا يزهـــو به .

ان كل شيء فى هذه الحالة يدور حـــول الزمانى ، والمتناهى . واننى لقادر بقـــوتى الخاصـــة على أن ازهـــد فى كل شيء وأن أجـــد الســـلام والسكينة فى الألم الأشـــد فظاعة من الموت ، تلك الفظائع ، حتى لو لوح

(م ٥ ــ خوف)

الجنون أمام عينى بقميص المجانين ، وفهمت من نظرته أنه أنا الذى ينبغى أن يرتديه ، فما زلت قادرا على انقاذ روحى ، اذا كان انتصـــار حب الله فى نفسى اكبر عنـــدى من سعادتى الدنيوية . وقـــد يكون قادرا أن يركز روحه كلها — ولو فى اللحظة الاخيرة — فى نظرة واحـــدة يتوجه بها صوب السماء التى تأتى منها كل نعمة جليلة ، وستكون نظرته مفهومه لنفسه ، «وله » ايضـــا ذلك الذى تبحث عنه كعلامة على أنه مع كل هذا — ما برح صادقا فى حبــه. وهنا يمكن أن يرتدى فى هدوء قميص المجانين . وهذا الذى لا تؤجج روحه هذه الحماسة الرومانسية يكون قد باع روحه ، سواء أخذ فى مقابلها مملكة ، أو قطعة تافهة من الفضة . ولكن بقوتى الخاصـــة لا استطيع الحصـــول على اقل الاشياء التى تنتسب الى التناهى ، لأننى استخدم قوتى باستمرار للعزوف عن كل شىء . وبقوتى الخاصة أستطيع التنازل عن الاميرة ، ولن اتحـــول الى شخص متذمر ، وانما سأجد الفرح والسكينة فى آلامى ، ولكننى بقوتى الخاصة ، لا استطيع أن استردها ، لاننى استخدم كل قـــوتى حتى أرضى بالتسليم . ولكن بالايمان — على حد قول ذلك الفارس الرائع — بالايمان يمكن أن استردها بفضل اللامعقول .

اذن فأنا لا استطيع أن أقوم بتلك الحركة . . فمـــا أكاد أشرع فى القيام بها حتى يدور كل شىء حـــولى دورات سريعة ، فألوذ بآلام التسليم . وأنـــا أستطيع السباحة فى الوجود ، أما بالنسبة لهذا التحليق الصوفى ، فأنا اثقل من اللازم . وأن أوجد على نحـــو يتيح لى أن أعبر عن اعتراضى على الوجود بوصفه أجمـــل وآمـــن انسجام مع هـــذا الوجود ، فهـــو شىء لا اقـــدر عليـــه . ولكن لابـــد أن الظفر بالامـــيرة شىء مجيـــد ، هـــذا مـــا أردده لنفسى كل لحظة ، وفارس التسليم الذى لا يقول هـــذا القـــول مخـــادع، انـــه لم تكن له رغبـــة وحيـــدة وحسب ، كمـــا أنه لم يحافظ على شباب رغبته بما كابـــده من الم . وربما كان هناك من خطر له انـــه من المنـــاسب تماما أن تكون حـــدة الرغبـــة قد هـــدات ، وأن تكون شـــوكة الالم قـــد ثلمت ، غـــير أن مثـــل هذا الرجل ليس فارســـا بحـــال من الاحـــوال . فالروح التى ولـــدت حـــرة اذا فاجأت نفسها حاضنة لمثـــل هـــذه الافكار

لن تلبث أن تحتقر نفسها ، وتبدأ من جديد ، ولن تسمح لنفسها على كل حال أن تخدع نفسها . ومع ذلك لابد أن الظفر بالاميرة شيء مجيد ، ومع ذلك فان فارس الايمان هو الشخص السعيد الوحيد ، ذلك الوارث الظاهرى للتناهى ، على حين أن فارس التسليم أجنبى غريب . وهكذا فان الفوز بالاميرة ، والعيش معها فى فرح وسعادة حينا بعد حين (من المتصور أيضا ان فارس التسليم يمكن أن ينال الاميرة ، ولكن روحه تكون قد أدركت أيضا استحالة سعادتهما المقبلة) ، ذلك أن الحياة فى فرح وسعادة كل لحظة بفضل اللامعقول ، ورؤية السيف معلقا فى كل لحظة على رأس المحبوبة ، ولا يجد الراحة مع ذلك فى الم التسليم ، وانما يجد الفرح بفضل اللامعقول — هذا كله شيء رائع . ومن يفعل ذلك يكون عظيما ، العظيم الوحيد . والفكرة نفسها تثير روحى ، تلك الروح التى لم تبخل قط بالاعجاب بالعظمة .

وفى هذه الحالة فان كل انسان من جيلى لا يقف عند الايمان يكون حقا انسانا ادرك ما تنطوى عليه الحياة من رعب ، وفهم ما يعنيه دوب(٣٨) aub عندما قال ان جنديا يقف وحده فى موقعه ببندقية مشحونة فى ليلة عاصفة الى جوار مخزن للبارود .. لابد أن تطرأ على ذهنه أفكار غريبة — ومن ثم ، فان كل من لايقف عند الايمان هو رجل يملك من قوة الروح ما يؤهله لأن يفهم أن تلك الرغبة كانت استحالة ، وبالتالى يمنح نفسه مهلة ليبقى وحيدا مع هذه الفكرة ، ومن ثم فان كل من لا يقف عند الايمان يعد رجلا متصالحا فى الألم ومتصالحا مع الألم ، ومن ثم فان كل من لا يقف عند الايمان فى المقام التالى (فاذا كان لم يفعل ما قد سبق ، فلا داعى لان يزعج نفسه بالايمان) — فى المقام التالى فعل الشيء الرائع ، واحتضن الوجود كله بفضل اللامعقول .... ويكون ما أكتبه اذن هو أرفع رثاء لمعاصرى يكتبه واحد من أدناهم ، ولكنهاستطاع ان يقوم بحركة التسليم فحسب . ولكن لماذا لا يقفون عند الايمان ، ولماذا استطيع أن أفهمه . وان تحايلت لأكون قادرا على القيام بهذه الحركة ، فسأستقل فى المستقبل عربة تجرها خيول أربعة !

وإذا كان من الصدق حقاً أن كل المباهاة بالجهل التى أراهـا فى الحياة (والتى لا أسمح لكلمتى ، بل لافعالى أن تدينها) ليست على ما تبدو عليه ـ فهل هذه معجزة ؟ هذا أمر يمكن تصوره ، ذلك لان بطل الايمان يشبهها فى الحقيقة شبها عجيبا ـ لان بطل الايمـان هـذا لم يكن مـن طائفة الساخرين أو الظرفاء ، ولكنه شىء أعلى كثيرا . ولقد قيل الكثير فى عصرنا عن التهكم والفكاهة ، وخاصة من أناس لم يستطيعوا قط أن يشتركوا فى ممارسة هذين الفنين ، وان كانوا يعرفون رغم ذلك كيف يفسرون كل شىء . ولست غريبا كل الغربة عن هاتين الشهوتين (٣٩) ، وأنا أعرف عنهمـا أكثر قليلا مما يوجد فى الخلاصـات الوافية باللغتين الالمانية والالمانية ـ الدنماركية . فأنا أعرف اذن أن هاتين الشهوتين تختلفان اختلافا جوهريا عن شهوة الايمان . فالتهكم والفكاهة ينعكسان ايضا على نفسيهما ، ومن ثم فانهما ينتميان الى مجال التسليم اللامتناهى ، ونرجع مرونتهما الى أن الفرد لا سبيل الى قياسه بالواقع .

والحركة الاخيرة هذه ، حركة الايمان التى تتسم بالمفارقة ، هى مالا استطيع أن أقوم به (سواء أكان ذلك واجبا أم كان ما يكون) ٤٠ على الرغم من أننى ان قمت بها ، سيكون ذلك بشىء أكثر من السرور . أما اذا كان للانسان الحق فى أن يؤكد هذا التأكيد ، فأمر متروك له ، انها مسألة بينه وبين « الموجود الأبدى » الذى هو موضوع الايمان ـ أعنى ان كان يسـتطيع ان يقع فى هذا الصدد علـى ضرب من التوفيق الودود . وما يستطيع كل انسان أن يفعله هو أن يقوم بحركة التسليم اللامتناهى ، وأنا لا اتردد من ناحيتى فى أن أصف بالجبن كل من يريد أن يقنع نفسه بأنه لا يستطيع القيام بها . أما مع الايمان ، فالمسـألة مختلفة . ولكن ما ليس لكل انسان الحق فى أن يفعله ، هو أن يقنع الآخرين بأن الايمان شىء فى المرتبة الدنيا ، أو أنه شىء يسير ، على حين انه أجل الامور وأصعبها .

والناس يفسرون قصة ابراهيم على نحو آخـر . فهم يمجدون فضل الله فى اعادة اسحق اليه ـ فلا تعدو المسألة كلها أن تكون مجرد

امتحان . امتحان — هذه الكلمة يمكن أن تقول الكثير او القليل ، ومع ذلك نمر المسألة كلها سراعا كاللحظة التى قيلت فيها . هـذا شخص يمتطى جوادا مجنحا (براقا) ، وفى اللحظة ذاتها يجد نفسه على جبل المريا ؛ وفى اللحظة عينها يشاهد الكبش ، وينسى المرء أن ابراهيم لم يركب الا حمارا ، يسير متباطئا عبر الطريق ، وينسى أن رحلته استغرقت ثلاثة أيام ، وأنه احتاج الى بعض الوقت ليقطع الحطب ، ويوثق اسحق ، ويشحذ السكين .

ومع ذلك فانهم يثنون على ابراهيم . ومن كان عليه القاء الخطبة يستطيع أن يستغرق فى النوم حتى تمضى ربع ساعة قبل القاء موعظته ، كما يستطيع المستمع أن يغفو قليلا أثناء الخطبة ، لأن كل شىء يمضى هينا ، دون أدنى متاعب من أى جهة . ولو كان بين الحضـور رجل يعانى من الارق ، فربما عاد الى منزله وجلس فى ركن ، وفكر قائلا : « انها مسألة لحظة ، هـذا الموضوع كله ، ولو أنك انتظرت لحظـة واحدة ، لرأيت الكبش ، وأنتهى الامتحان » . ولو أن الخطيب التقى به فى هـذه الحالة ، فاعتقد أنه سيواجهه بكل وقاره قائلا : « أيهـا التعس ، أنت يا من تجعل روحك تغوص فى مثل هذه الحماقة ! لا معجزة فى الامر . والحياة كلها امتحان » . وكلما أوغل الخطيب فى صب عباراته ، ازداد انفعاله شيئا فشيئا ، وازداد سروره بنفسه ، ولما لم يلحظ أى احتقان فى الدم أثناء حديثه عن ابراهيم ، شعر الآن كيف انتفخ ذلك العـرق فى جبينه . وربما لم تكن أنفاسه تنقطع وكذلك لسـانه لو أن الخاطىء أجابه فى هدوء ووقار : « ولكن هذا ما كنت تعظ به يوم الاحد الماضى » .

دعنا اذن نلقى بابراهيم فى غمار النسيان ، أو دعنا نتعلم كيف نفزع من تلك المفارقة الهائلة التى تؤلف دلالة حيـاة ابراهيم ، حتى نستطيع أن نفهم أن عصرنا — ككل عصر — يمكن أن يعيش فى الفرح لأن لديه ايمانا . وفى حالة ما اذا لم يكن ابراهيم شيئا ، بل مجرد طيف أو استعراض يستخدمه المرء لتزجية الفراغ ، فان الخطأ لا يمكن أن

يكمن قط فى أن الخاطىء يريد أن يفعل مثلما فعل ابراهيم ، وانما المسألة هى أن نرى كم كان عظيما ذلك العمل الذى قام به ابراهيم حتى يستطيع الانسان أن يحكم بنفسه هل يملك الدافع والشجاعة لمعاناة مثل هذا الاختبار . والتناقض المضحك فى سلوك الخطيب هو أنه أحال ابراهيم الى شىء تافه ، ومع ذلك ، فانه يحض الآخر على أن يسلك مسلك ابراهيم .

اينبغى اذن الا يتجاسر المرء على الحديث عن ابراهيم ؟ أحسب أن هذا هو ما ينبغى . واذا كان لى أن اتحدث عنه ، فسأصف أولا ما اكتنف امتحانه من عذاب . ولهذا الغرض كنت أود أن تمتص دودة من العلق كل ما فى عذاب الأب من قلق وحزن وأوجاع ، حتى أستطيع أن أصف ما عاناه ابراهيم ، على حين انه كان يؤمن طيلة الوقت ، وعلى الرغم من هذا كله . وكنت أعمد الى تذكير المستمعين بأن الرحلة استغرقت ثلاثة أيام وشطرا محترما من اليوم الرابع ، اجل وبأن هذه الايام الثلاثة والنصف كانت أطول بما لا نهاية من آلاف الاعوام القلائل التى تفصلنى عن ابراهيم . ثم أذكرهم بأن كل انسان يستطيع — فى رأيى — أن يولى الدبر قبل أن يضطلع بمثل هذه المهمة ، ويستطيع — فى كل لحظة — أن يعود نادما على عقبيه . فاذا فعل هذا ، لن اخشى أى خطر ، كما لن أخشى أن أوقظ فى الناس ميلا الى أن يتعرضوا لامتحان ابراهيم . ولكن ، اذا لم يكن فى متناول المرء غير طبعة رخيصة من ابراهيم ، وأن يحض كل انسان — مع ذلك — أن يفعل مثله — فهذا هو الامر المضحك .

وفى نيتى الآن ان استخلص من قصة ابراهيم النتائج الجدلية المتضمنة فيها ، معبرا عنها فى شكل « مشكلات » ، حتى نرى المفارقة الهائلة التى ينطوى عليها الايمان ، مفارقة كفيلة بأن تحيل الجريمة الى عمل مقدس يرضى الله ، مفارقة أعادت اسحق الى ابراهيم ، ولا يستطيع أن يسيطر عليها أى فكر ، وذلك لأن الايمان يبدأ تماما عندما يرحل التفكير .

المشكلة الأولى

هل هناك ما يمكن أن يسمى بالتعليق الغائى لما هو اخلاقى ؟

الاخلاقى the ethical — بوصفه كذلك — هو الكلى universal ، وبوصفه الكلى فانه ينطبق على كل انسان ، وهذا ما يمكن التعبير عنه من وجهة نظر أخرى بأنه ينطبق فى كل لحظة . وهو مستقر — بصورة جوانية (كافية) محايثة — ولا يقع خارج نفسه شىء يمكن ان يكون غايته (٤٠) telos ، ولكنه هو نفسه غاية كل شىء خارجه ، وعندما يتجسد هذا بواسطة ما هو أخلاقى ، فأنه لا يستطيع أن يمضى الى أبعد من ذلك . فاذا تصورنا الفرد الجزئى تصورا مباشرا على انه الفزيائى والنفسى ، فانه يكون الفرد الذى تقوم غايته فى الكلى ، وتكون مهمته الاخلاقية أن يعبر عن نفسه فى هذا الكلى باستمرار ، لالغاء طابعه الجزئى حتى يصير كليا . وما أن يؤكد الفرد نفسه فى طابعه ذاك معاندا للكلى ، فانه يرتكب الخطيئة ، ولن يصالح نفسه ثانية مع الكلى الا بادراكه هذه الحقيقة . وحيثما أحس الفرد الذى دخل الكلى بدافع الى تأكيد نفسه بوصفه شيئا جزئيا ، فانه يحيا الغواية Anfechtung ويستطيع أن يجاهد للخروج منها بأن يتخلى عن نفسه تائبا بوصفه الجزئى فى الكلى . واذا كان هذا هو أعلى ما يمكن أن يقال عن الانسان وعن وجوده ، فان للأخلاقى نفس الصفة التى تتصف بها سعادة الانسان الابدية والتى هى « غايته » الى الابد وفى كل لحظة ، وما دام من التناقض أن يقال ان من الممكن التنازل عنها (أعنى تعليقها غائيا) ، ذلك لأنه ما أن يتم التنازل عنها حتى يكون فى ذلك خسرانها ، على حين أنه فى حالات أخرى لا نخسر ما نضعه موضع التعليق ، بل نحفظه تماما فى ذلك الشىء الأعلى الذى هو « غايته » (٤١) .

فاذا كان الامر كذلك ، فان هيجل اذن على حق عندما وصف الانسان فى الفصل الذى كتبه تحت عنوان « الخير والضمير » (٤٢) بأنه الجزئى وحسب ، ونظر الى هذه الصفة باعتبارها « شكلا أخلاقيا للشر » وهو شكل ينبغى الغاؤه فى غائية الخلقى teleology of the moral ، بحيث أن الفرد الذى يبقى فى هذه المرحلة اما أن يكون خاطئا أو خاضعا للغواية Anfechtung ومن ناحية أخرى ، يخطىء هيجل عندما يتحدث عن الايمان ، ويخطىء حين يحتج احتجاجا صارخا واضحا على أن ابراهيم يتمتع بالشرف والمجد بوصفه أبا الايمان ، على حين أنه كان من الواجب اعدامه بعد ادانته بجريمة القتل .

ذلك أن الايمان هو هذه المفارقة وهى أن الجزئى أعلى من الكلى — وان يكن ذلك على نحو تكرر فيه الحركة نفسها ، وهذا ما تنبغى ملاحظته وأن الفرد — بالتالى — بعد أن كان فى الكلى — يعزل الآن نفسه بوصفه جزئيا ، لأنه يعد نفسه أعلى من الكلى . فاذا لم يكن هذا هو الايمان ، ضاع ابراهيم اذن ، ولم يكن للايمان وجود قط فى هذا العالم ... لأنه موجود دائما وأبدا . لأنه اذا كان الاخلاقى (أعنى الخلقى the moral هو أعلى الاشياء ، وأن ما من شىء يند عن القياس يبقى فى الانسان على أى نحو آخر الا بوصفه شرا (أعنى الجزئى الذى ينبغى التعبير عنه فى الكلى) ، فلن يحتاج المرء عندئذ لأية مقولات أخرى الى جانب المقولات التى امتلكها الاغريق ، أو التى يمكن اشتقاقها من تلك المقولات بالتفكير المتسق Consistent . هذه حقيقة لم يكن ينبغى على هيجل اخفاؤها ، لأنه كان على الفة بالفكر الاغريقى على كل حال .

ويسمع الانسان فى كثير من الاحيان ما يقوله أشخاص تراهم بسبب افتقارهم الى فقدان أنفسهم فى الدراسات — مستغرقين فى عبارات — يقولون ان ثمة نورا يسطع على العالم المسيحى ، بينما تخيم الظلمة على الوثنية . هذا القول قد بدا غريبا فى نظرى دائما ، وخاصة كلما رأيت ان كل مفكر عميق وكل فنان جاد يتجدد شبابه حتى فى أيامنا هذه بالشباب الابدى الذى اتسم به الجنس الاغريقى . ويمكن تفسير

مثل ذلك القول اذا وضعنا فى اعتبارنا أن الناس لا يعرفون ما ينبغى أن يقولوا ، وانما ينبغى أن يقولوا شـــيئا ما وحسب . فمن الصواب تماما أن يقول المرء ان الوثنية لم تمتلك الايمان ، ولكن اذا كان للمرء أن يقول شيئا ما مع هذا ، فينبغى أن يكون واضحا بعض الوضوح عما يفهمه بالايمان ، والا وقع الانسان مرة أخـرى فى مثل تلك العبارات . ولتفسير الوجود كله ومعه الايمان دون أن يكون لدينا أى تصور للايمان ، فهذا شىء يسير ، وأن الانسان لا يحسب أدنى حساب فى الحياة اذا اعتمد على الاعجاب حين يمتلك مثل هذا التفسير ، فانه على حد قول بوالو Boileau « يجد الاحمق دائما من هو أحمق منه للاعجاب به » .

الايمان هو بالضبط هـــذه المفارقة وهى أن الفرد بوصفه الجزئى يكون أعلى من الكلى ، وأنه مبرر عليه ، وانه ليس تابعا بل متبوعا — ولكن ينبغى أن نلاحظ ، ان ذلك كله يحدث على نحو يصير فيه الفرد الجزئى — بعد أن كان تابعا للكلى بوصفه الجزئى — يصير الآن من خلال الكلى الفرد الذى بوصفه الجـــزئى أعلى من الكلى ، وذلك لأن الفرد بوصفه الجزئى يقف فى علاقة مطلقة مع المطلق . وهذا الموقع لا يمكن أن يكون وسيطا ، لأن كل توسط يأتى بفضـــل الكلى ، فهى مفارقة وستبقى دائما وابدا مفارقة تستعصى على الفكر . ومع ذلك ، فالايمان هو هذه المفارقة — والا (وهذه هى الاستنباطات المنطقية التى أرجو أن يضعها القارىء فى ذهنه عند كل نقطة — وان كان اســـهابا شديدا من ناحيتى أن أرددها فى كل مناسبة) — والا لم يكن هنـــاك ايمان قط ... لأنه كان موجودا دائما وأبدا . أو بعبارة أخرى يتعرض ابراهيم للضياع .

أما أن يخطىء الفرد الكلى فى سهولة فيأخذ هـــذه المفارقة على أنها امتحان ، فأمر صحيح حقا ، ولكن لا ينبغى على المرء أن يخفيه لهذا السبب عينه . أما أن تركيب كثير من الاشخاص يدفعهـــم بأكمله الى النفور من هذه المفارقة ، فأمر صحيح حقا ، ولكن لا ينبغى علـــى المرء لهذا السبب أن يجعل الايمان شيئا مختلفا حتى يكون قادرا علـــى امتلاكه ، ولـــكن الأولى به أن يعترف بأنه لا يملك هـــذا الايمان علـــى

حين أن هؤلاء الذين يملكونه ينبغى أن يحرصوا على وضع معايير معينة للتمييز بين المفارقة والغواية .

والآن ، تحتوى قصة ابراهيم على مثل هـذا التعلق الغائى لما هو اخلاقى . ولم نعـدم العقول الذكية والباحثون المتعمقـون الذين وجدوا مشابهات لها . ذلك أن حكمتهم مستمدة من تلك القضية البديعة القائلة بأن قاع الاشياء جميعا واحد . فاذا نظر الانسان بمزيد مـن الامعان ، فلا اشك مطلقا أنه لن يجد فى العالم كله شيئا واحدا يماثل هذه القصة (ماعدا مثل متأخر لا يثبت شيئا) ، هذا اذا ثبت لدينا أن ابراهيم هو ممثل الايمان ، وأن الايمان يتم التعبير عنـه عادة فى ذلك الذى لا تكون حياته اشد الاشياء التى يمكن التفكير فيها مفارقة ، بل التى تكون من المفارقة بحيث لا يكون ثمة سبيل الى التفكير فيها على الاطلاق . أنه يتصرف بفضل اللامعقول ، فمن اللامعقول تماما أن يكون بوصفه الجزئى — أن يكون أعلى من الكلى . هـذه المفارقة تند عن التأمل ، لأنه ما أن يشرع فى ذلك ، حتى يعترف بأنه كان واقعـا فى الغواية ، واذا كان الامر كذلك ، فانه لن يصل أبدا الى حد التضحية باسحق ، أو لو أنه ضحى باسحق ، فلابد أن يعود نادما الى الكلى . وبفضل اللامعقول يستعيد اسحق مرة ثانية . فابراهيم اذن ليس بطلا مأساويا فى أية لحظة ، بل شيئا مختلفا تمام الاختلاف ، فاما أن يكون قاتلا أو مؤمنا . أما الحد الاوسط الذى ينجى البطل المأساوى ، فشىء لم يتح لابراهيم . ولهذا أستطيع أن أفهم البطل المأساوى ، ولكننى لا استطيع أن أفهم ابراهيم ، وان كنت بمعنى مهووس معين ، اضمر له من الاعجاب اكثر مما أضمره لغيره من الناس جميعا .

فاذا تحدثنا بلغة الاخلاق قلنا ان علاقة ابراهيم باسحق يتم التعبير عنها فى بساطة بأن الاب ينبغى أن يحب أبنه باعزاز أشـد مما يحب نفسه . ومع ذلك ، فاننا داخل نطاق الاخلاقى نفسه نجد مراتب متعددة . دعنا ننظـر اذن فيما اذا كنا نستطيع ان نجد فى هـذه القصة اى تعبير أعلى عن الاخلاقى بحيث يمكن أن يفسر سلوكه تفسيرا اخلاقيا ، وأن

يبرره أخلاقيا فى تعليق الالتزام الاخلاقى نحو ابنه ، دون أن نتجاوز فى هذا البحث غائية ما هو أخلاقى .

وعندما تعاق مهمة تتعلق بأمة بأسرها(٤٢) ، وعندما تعطل مثل هذه المهمة بسبب سخط السماء ، وعندما يرسل الاله الغاضب سكونا يسخر من كل الجهود ، وعندما يؤدى الساحر واجبه الثقيل ويعلن أن الاله يطلب تقديم عذراء قربانا له — عندئذ يتحمل الاب فى بطولة هذه التضحية . وسيختفى ألمه فى وقار مهيب ، حتى وان كان يود لو أنه كان « ذلك الرجل الخسيس الذى يجرؤ على البكاء (٤٤) ، ولم يكن الملك الذى يتصرف بطريقة ملكية . ومع أن العذاب الموحش يشق طريقه فى صدره ، لم يكن له غير ثلاثة فحسب يأتمنهم على سره بين الناس ، ولكن سرعان ما تعرف الامة كلها ما يعانية من آلام ، ولكنها ستعلم أيضا بمأثرته ، وبأنه من أجل رفاهية المجموع كان على استعداد للتضحية بها ، بابنته ، العذراء الشابة المحبوبة . يا للصدر الساحر ! ويا للخدود الفاتنة ! ويا للشعر الذهبى اللامع ! وستحرك الابنة مشاعره بدموعها ، وسيشيح الاب بوجهه ، أما البطل فسيرفع سكينه — وعندما تبلغ القصة بيت الاسلاف ستتوهج خدود عذارى الاغريق الفاتنات حماسة ، واذا كانت الابنه مخطوبة ، فلن يغضب حبيبها الصادق بل سيفخر بمشاركته فى مأثرة الأب ، لأن الفتاه تنتمى اليه بمشاعرها أكثر مما تنتمى للأب .

وعندما ارتبط ذلك القاضى الجسور (٤٥) الذى أنقذ اسرائيل فى وقت الشدة ، ارتبط فى نفس واحد مع الله بنذر واحد ،فأحال فى بطولة فرح العذراء الشابة ، فرح ابنته الحبيبة الى حزن ، ومعها ستنوح اسرائيل كلها على شبابها العذرى ، بيد أن كل رجل ولد حرا سيفهم ، وكل امرأة متينة القلب ستعجب بيفتاح ، وكل عذراء فى اسرائيل ستتمنى أن تتصرف كما تصرفت ابنته . فأى خير فى أن ينتصر يفتاح بفضل نذره فلا يفى بهذا النذر ؟ الن ينتزع الله النصر ثانية من الامة ؟

وعندما يتناسى ابن واجبه (٤٦) ، وعندما تعهد الدولة الى الاب بسيف العدالة ، وعندما تقضى القوانين بالعقوبة على يد الاب ، اذن

فسينسى الاب فى بطولة أن المذنب أبنه ، وسيخفى عذابه فى شهامة ، ولن يكون هناك عندئذ شخص واحد بين الناس جميعـا ، حتى الابن نفسه ، لا يضمر الاعجاب للاب ، وحيثما فسر قانون روما ، فسنتذكر أن كثيرين قد فسروه تفسيرا قد يكون أعمق فى العلم ، ولكن أحدا لم يفسره بأمجد مما فسره بروتوس .

ومن ناحية أخرى ، لو أن أجاممنون أرسل رسـولا للبحث عن افيجينيا للتضحية بها ، عندما هبت ريح مواتية فحملت الاسطول بقلوع منتفخة الى هدفه ، ولو أن يفتاح دون أن يتعهد بأى نذر يحدد مصير الامة — قال لابنته : « نوحى الآن على عذريتك لمدة شهرين لأننى سوف أضحى بك » ، ولو أن لبروتوس ابنا بريئا ومع ذلك أصدر أوامره الى الجلادين باعدامه — لو انهم فعلوا ذلك ، من كان يفهمهم ؟ ولو أن هـؤلاء الرجال الثلاثة أجابوا على هذا السؤال : لماذا فعلوا ذلك بقولهم : « انه امتحان ابتلينا به » فهل كان الناس يفهمونهم أفضل من ذلك ؟

وعندما تغلب كل من أجاممنون ويفتاح وبروتوس على آلامهم ببطولة فى اللحظة الحاسمة ، وفقدوا أحباءهم فى بطولة ، وكان عليهم أن ينجزوا تلك التضحية الظاهرية ، فلن تكون هناك روح نبيلة فى العالم لا تذرف دموع الشفقة على آلامهم ، ودموع الاعجاب ببطولتهم الخارقة . ولو أن هؤلاء الرجال الثلاثة — من ناحية أخرى — اضافوا الى سلوكهـم البطولى هذه العبارة القصيرة فى اللحظة الحاسمة : « ومع هذا كله ، لن يقع شىء من هذا » ، من كان يمكن أن يفهمهم عندئذ ؟ ولو أنهـم أضافوا على سبيل الشرح : « هـذا ما نؤمن به بفضل اللامعقول » ، من كان يفهمهم أفضل من ذلك ؟ فمن اليسير أن يفهم الناس جميعـا أن المسألة لا معقولة ، ولكن من ذا الذى سيفهم أن أحـدا يمكن أن يؤمن بهـا ؟

والاختلاف بين ابراهيم والبطل المأساوى جلى بين . فما برح البطل المأساوى فى نطاق الاخلاقى . وهو يترك التعبير عن الاخلاقي يلتمس

غايته فى تعبير أعلى عن الاخلاقى ، والعلاقة الاخلاقية بين الاب وابنه ، أو بين الاب وابنته ، يحيلها الى عاطفة تقع جدليتها dialectic فى علاقتها بفكرة الاخلاقية العملية morality . وهنا لا مكن ان يكون ثمة تعليق غائى للاخلاقى نفسه .

وكان الموقف مختلفا مع ابراهيم ، فبفعلته تخطى الاخلاقى كلية ، وامتلك غاية أعلى تقع خارجه ، وبالنسبة لهذه الغاية قام بتعليق ما هو اخلاقى . فانى لاود أن أعرف كيف يمكن أن نضع فعلة ابراهيم فى علاقة مع الكلى ، وما اذا كان من الممكن اكتشاف أية صلة كانت بين ما فعله ابراهيم وبين الكلى . فيما عدا تلك الحقيقة وهى انه قد تعدى ذلك الكلى .

لم كن ما فعله ابراهيم من أجل انقاذ شعب ، أو فى سبيل الحفاظ على فكرة الدولة ، أو لمصالحة الالهة الغضبى . فلو كانت المسألة تتعلق بالله غاضب ، فانه لم يكن غاضبا الا على ابراهيم . ولم يكن فعل ابراهيم كله على اية علاقة بالكلى ، انه عمل شخصى بحت . ومن ثم ، فبينما يكون البطل المأساوى عظيما بفضل فضيلته الاخلاقية ، فقد كان ابراهيم عظيما بفضل فضيلة شخصية بحتة . وليس فى حياة ابراهيم تعبير أعلى عن الاخلاقى الا هذا : وهو أن يحب الاب ابنه . ولا مجال للحديث عن الاخلاقى بمعنى الاخلاقية العملية فى هذا المثل . فمادام الكلى حاضرا ، فقد كان حاضرا حقا فى اسحق بصورة ملغزة ، متواريا فى احشائه ، وكان لابد ان يصرخ بفم اسحق : « لا تفعل ذلك ! انك تقضى على كل شىء بالعدم » .

لماذا اذن فعل ابراهيم هذا ؟ فى سبيل الله ، وفى سبيل نفسه (وهذا مطابق لذلك تمام المطابقة) ، فعله فى سبيل الله لان الله طلب منه هذا دليلا على ايمانه ، وفعله فى سبيل نفسه حتى يستطيع أن يقدم الدليل . ووحدة وجهتى النظر هاتين قد تم التعبير عنها تعبيرا كاملا بتلك الكلمة التى تستخدم دائما لوصف الموقف : انه امتحان ، ابتلاء (٤٧) Fristelse لكن ماذا يعنى هذا ؟ ان ما يمتحن الانسان عادة هو ما يمنعه من القيام بواجبه ،

أمـا فى هـذه الحالة فالامتحان هو نفسه الاخلاقى . . الـذى يمنعه من تنفيذ مشيئة الرب . ولكن مـا هو الواجب اذن ؟ الواجب هـو بالضبط التعبـير عن مشيئة اللـه .

هنا تتضح ضرورة اللجوء الى مقولة جديدة اذا أردنا أن نفهم ابراهيم . مثـل هـذه الصلة باللـه شيء لم تعرفه الوثنية . فالبطل المـأساوى لايدخل فى ايـة علاقة شخصية بالاله ، ولكن الاخلاقى بالنسـبة اليه هو الالهى ، ومن ثـم فان المفارقة التى يتضمنها موقفه يمكن أن تتوسط الكلى .

امـا ابراهيم فلا يمكن ان يوضع موضعا وسـطا ، وهـذا هـو نفسه مـا يمكن التعبير عنه ايضـا بأن نقول انـه لا يستطيع أن يتكلم . فمـا أن اتكلم حتى أعبر عن الكلى ، فـاذا لـم افعل ذلك ، لـم يستطع أن يفهمنى احـد . ومن ثم ، لو ان ابراهيم عبر عن نفسه بلغة الكلى ، فـلا مندوحة عن أن يقول ان موقفـه غواية (Anfechtung) لانـه لا يملك تعبـيرا اعلى عن ذلك الكلى الـذى يعلو الكلى الذى يتعداه .

وعلى هذا ، فان كان ابراهيم يثـير اعجابى ، فهو يدفعنى فى الوقت نفسه الى الاستنكار ، لان ذلك الـذى ينكر نفسه ، ويضحى بنفسه على مذبح الواجب ، يتخلى عن التناهى ليظفر باللامتناهى ، وهذا الرجل آمن امنا كافيا . والبطل المأساوى يتخلى عن اليقين فى سبيل ما هـو اشد يقينا منه ، وعليه تقع فى ثقـة عين المشاهد . امـا ذلك الـذى يتنازل عن الكلى لكى ينـال شيئا اعلى وان لم يكن هو الكلى — فماذا هو صانع ؟ أمن الممكن أن يكون هذا شيئا سوى غواية (Anfechtung) ؟ واذا كان ذلـك ممكنا ، وكان الفرد مخطئا — فماذا يمكن ان ينقذه ؟ انه يعانى كل عذاب البطل المأساوى ، ويمحو كل افراحه فى هـذا العالم ، ويتخلى عن كل شىء . . . وربما حرم نفسـه فى تلك اللحظة عينها من الفرح الجليل الذى كان ثمينا بالنسبة اليه حتى ليبتاعه بأى ثمن . امـا هو فلا يستطيع المشاهد أن يفهمه ، أو ان تستقر عليـه عينـه فى

ثقــة . ربما لـــم يكن من الممكن أن ينعل ما قترحه المؤمن ، مادام هـــذا الـــذ؛ يقترحه لا سبيل حقـــا الى التفكير فيه . أو حتى اذا أمكن فعله ، ولـــكن الفرد اساء فهم الاله — فماذا يمكن أن ينجيه ؟ البطل المـــأساوى فى حاجة الى الدموع وهو يطالب بها ، ولكن ، أين تلـــك العـــــين الحسود التى يمكن أن تكون من النضوب بحيث لا تستطيع البكاء مع اجا ممنون ، ولكن اين ذلك الرجل الذى تكون روحه من الضلال بحيث يـــدعى انـــه يبكى على ابراهيم ؟ والبطـــل المـــأساوى ينجز فعلته فى لحظة محددة من الزمان ، ولكنه يفعل فى تيـــار الزمان شيئا لا يقل عن ذلك دلالة ، انـــه يزور الانسان الـــذى أحدثت الاحزان بروحه ، والـــذى لا يستطيع أن يلتقط انفاسه لان صـــدره مفعم بالتنهـــدات المكتومة ، وتجثم افكاره الحبلى بالدموع ثقيلة على فؤاده ، أمام هـــــذا الرجل يظهر ، ويمحو سحر الاحزان ، ويفك أساره ، ويستدر دموعه بهذه الحقيقة . وهى أن المعذب ينسى فى عذاب الناس عذابه الخاص . والمرء لا يستطيع أن يبكى على ابراهيم ، بل انه ليقترب منه فى «رعب دينى» **horror religiosus** كما اقترب اسرائيل من جبل سيناء . — ماذا اذن لو كان ذلك الرجل المتوحـــد الـــذى يصعد جبل المريا بقمته التى ترتفع شماء فى السماء فوق وادى عوليس **Aulis** ، ماذا لو كان سائرا فى نومه يمشى مطمئنا فوق الهـــاوية على حين أن من يقف عنـــد سفح الجبل ثم يرنو ببصره يرتعد من الخوف ولايستطيع من الهيبة والقلق حتى أن ينـــادى عليه احـــد — ماذا لو كان هذا الرجـــل فمثل العقل ، وارتكب خطـــأ ! شكرا ، وشكرا مرة اخرى لذلك الرجل الـــذى يقـــدم للانسان الـــذى هاجمته احزان الحياة ، وتركته عاريا — الذى يقـــدم له ورقة التين على هيئة الكلمة التى يستطيع أن يستر بها تعاسته . شكرا لك — أيها العظيم شكسبير الـــــذى استطعت أن تعبر عن كل شىء — عن كل شىء على الاطلاق ، كما هو تماما ، ولكن لم تعبر قط عن وخزة الالم هـــذه ؟ اكنت تحتفظ بها لنفسك — كالمحبوبة التى لايستطيع المرء ان يتحمل أن يذكر العالم اسمها ؟ ذلك ان الشاعر يشرى سلطان الكلمات ، سلطان التعبير عن أسرار الآخرين المخيفة — بثمن سر صغير لا يستطيع البوح به . . . والشاعر ليس رسولا ، فهو يطرد الشياطين بقوة الشيطان وحدها .

ولكن الآن وقد تم تعليق الاخلاق غائيا على هذا النحو ، كيف يحيا الفرد الذى علق فيه هذا الاخلاقى ؟ انه يحيا بوصفه الجزئى فى مضاد الكلى . أيرتكب الخطيئة اذن ؟ فهذا هو شكل الخطيئة ، منظورا اليه فى الفكرة idea . تماما كالطفل ، وان لم يخطىء ، لانه بوصفه طفلا لا يعى بعد وجود الخطيئة — الا ان وجوده نفسه خطيئة ، منظورا اليه فى الفكرة ، ولايكف الاخلاقى فى كل لحظة عن مطالبه عليها ، فاذا أنكر المرء ان هذا الشكل يمكن تكراره (فى البالغ) على نحو لا يتخذ فيه شكل الخطيئة ، اذن فان حكم الادانة يصدر على ابراهيم . اذن كيف كان ابراهيم موجودا ؟ كان مؤمنا . هذه هى المفارقة التى تمسكه على شفا الهاوية ، والتى لا يستطيع توضيحها لاى شخص آخر ، لان المفارقة هى انه يضع نفسه بوصفه فردا فى علاقة مطلقة مع المطلق . ايجد تبريرا لفعله هذا ؟ ان تبريره هو ايضا مفارقة ، ذلك لانه اذا كان مبررا ، فليس ذلك بفضل اى شىء كلى ، ولكن بفضل كونه الفرد الجزئى .

كيف يمكن للفرد اذن ان يؤكد لنفسه انه مبرر ؟ ان من السهل جدا تسطيح (تسوية) الوجود كله بفكرة الدولة او بفكرة المجتمع . فاذا فعل المرء هذا ، استطاع أيضا أن يكون وسطا فى يسر يسير ، لانه لن يلتقى حينئذ بالمفارقة التى مؤداها أن الفرد بوصفه فردا يكون أعلى من الكلى — وهذا ما أستطيع التعبير عنه ايضا فى ذكاء بدعوى فيثاغورس القائلة بأن الاعداد الفردية أكمل من الاعداد الزوجية . ولو استمع الانسان فى عصرنا مصادفة الى دعوى تكون متصلة بموضوع المفارقة ، فمن المرجح ان تكون على هذا النحو : «فلنحكم عليها بالنتيجة» . ان بطلا أصبح حجر عثرة (٤٨) لمعاصريه لانهم على وعى بأنه مفارقة ، ولا يستطيع أن يجعل نفسه مفهوما لديهم ، سيصبح متحديا جيله : «ستثبت النتيجة يقينا اننى مبرر» . ونادرا مانستمع فى عصرنا الى هذه الصيحة ، لانه مادام عصرنا لا ينتج ابطالا — وهذا يحسب من سيئاته — فان من حسناته أيضا انه ينتج مسوخا قليلة . وعندما يسمع المرء فى عصرنا هذا القول ، « فلنحكم عليها حسب النتيجة » ، فانه يتضح

للانسان على الفور نوعية الشخص الذى يتشرف المرء بالتحدث اليه . وهؤلاء الذين يتحدثون على هذا النحو قبيلة كثيرة العدد سأخلع عليها الاسم الشائع « مدرسو الجامعة »(٤٩) Docents وتراهم فى أفكارهم يعيشون حياة آمنة فى الوجود ، فلهم مركز « راسخ » وامكانيات « مضمونة » فى دولة حسنة التنظيم ، وتفصل بينهم قرون ، بل آلاف السنين ، وبين صدمات الوجود ، فهم لا يخشون أن تقع هذه الاحداث مرة أخرى — والا فماذا تقول الشرطة فى هذا ! ناهيك بالصحف ! وشغل حياتهم الشاغل هو أن يحكموا على العظماء ، وان يأتى الحكم عليهم وفق النتيجة . مثل هذا السلوك ازاء العظماء ينم عن مزيج عجيب من الوقاحة والبؤس : من الوقاحة لانهم يعتقدون أنهم خلقوا ليكونوا قضاة ، ومن البؤس لانهم لا يشعرون أن حياتهم تمت بأية صلة — ولو بعيدة — بالعظماء . ومن المؤكد أن رجلا يمتلك ولو قليلا من الطريقة الرفيعة فى التفكير erectioris ingenii ولم يصبح رخوا باردا طبا تماما ، فانه عندما يقترب مما هو عظيم ، فلن يغيب عن ذهنه قط أنه منذ خلق العالم جرت العادة على أن النتيجة تأتى فى نهاية المطاف ، وانه اذا كان للمرء أن يتعلم شيئا بصدق من الافعال العظيمة ، فعليه ان يوجه انتباهه — على وجه الدقة — الى البداية . وفى حالة ما اذا كان الشخص الذى يفعل هو الذى سيحكم على نفسه وفقا للنتيجة ، فانه لن يصل ابدا الى نقطة البداية . وحتى لو أن النتيجة جاءت بحيث يبتهج لها العالم كله ، فانها لا يمكن أن تساعد البطل ، لانه سيعرف النتيجة عندما تكون المسألة كلها قد انتهت ، ولم يكن هذا هو الذى أصبح به بطلا ، ولكنه صار كذلك لانه بدأ .

وفضلا عن ذلك ، فان النتيجة (من حيث هى اجابة التناهى على سؤال اللامتناهى) متنافرة تماما فى جدليتها مع وجود البطل . أمن الممكن اذن اثبات أن ابراهيم كان مبررا فى اتخاذه لوضع الفرد فى علاقته بالكلى .. من حيث أنه استعاد اسحق « بمعجزة » ؟ فلو أن ابراهيم قد ضحى باسحق فعلا ، أيكون فى هذه الحالة أقل جدارة بالتبرير ؟

غير أن الناس حريصون على معرفة النتيجة ، مثلما يحرصون على معرفة النتيجة فى كتاب — انهم لا يريدون أن يعرفوا شـيئا عن القلق ، والاسى ، والمفارقة . انهم يتغزلون جماليا فى النتيجة ، ولكنهـا تأتى على غير توقـع ، ولكنها تأتى أيضـا فى يسر كجـائزة اليانصيب ، وعندما يسمعون النتيجـة ، يشعرون بأن أرواحهم قـد تهذبت . ومع ذلك ، فان اى سـارق للمعابد ، محكوم عله بالاشغال الشاقة المؤبدة وراء القضبان الحديدية ، يمكن أن يكون مجرما اشد وضاعة من الرجل الذى ينهب المقدس ، وحتى يهوذا الـذى باع « سيده » بثلاثين قطعة فضية ليس أحقر من الرجال الذى يبيع العظمة .

انه لشىء بشع بالنسبة لروحى أن اتحدث فى غير انسانية عن العظمة ، وان اتركها تحوم مظلمة على مسافة بعيـدة فى شكل مبهم ، حتى يحكم الناس بأنهـا عظيمة دون أن أجعل الطابع الانسانى لهـا جليا — وبذلك تكف عن أن توصف بالعظمة . فليس مـا يحدث لى هـو مـا يجعلنى عظيما ، ولكن مـا افعله ، ومن المؤكد انـه لا يوجـد شخص يفكر ان انسانا أصبح عظيما لانـه فاز بالجائزة الكبرى فى اليانصيب . وحتى لو ولد انسان فى ظروف متواضعة ، فاننى اطلب منـه مع ذلك الا يكون لا انسانيا نحو نفسه بألا يكون قادرا على التفكير فى قصر المـلك الا على مسافة بعيدة ، حالمـا حلما مبهما بعظمته ، ومريـدا فى الوقت نفسـه أن يمجـده ، وأن يمحوه أيضـا لانـه مجـده بوضاعة . اننى اطلب أن يكون من الرجولة بحيث يمضى قدما فى ثقـة وجدارة حتى فى ذلك المكان. وينبغى الا يكون خاليا من الرجولة بحيث يريد فى صـفاته أن يهين كل انسان بالاندفاع رأسـا من الشارع الى قاعة المـلك . فانه يفقد بهـذا اكثر مما يفقـد المـلك . وانما على العكس ، ينبغى أن يجد متعته فى اتباع كل قواعد الادب فى حماسة مرحـة واثقة تجعله صريحا غير هيـاب . هـذا مجرد رمز . ذلك لان الاختلاف الـذى نلاحظه هنـا ما هو الا تعبـير قاصر عن المسافة الروحية . وانـا اطلب من كل انسان الا يفكر فى نفسـه تفكيرا لا انسانيا ، وبأنه لا يجرؤ على دخول تلك القصور حيث لا تقيـم ذكرى المصطفين فحسب ، بـل حيث يقيم المصطفون أنفسهم . ولا ينبغى عليه أن

يندفع فى صفاته ، وأن يلصق بهم قرابةً له ، بل على العكس ، ينبغى أن يكون سعيدا فى كل مرة ينحنى فيها أمامهم ، ولكن ينبغى أن يكون صريحا واثقا من نفسه ، وان يكون دائما شيئا اكثر من مجرد شغالة ، لانه ان لم يكن اكثر من ذلك ، فلن يتاح له الدخول . والشيء الذى يمكن أن يساعده هو القلقوالحزن اللذين امتحن بهما العظماء ، والا لو كان فيه اثارة من نخوة ، فسوف يثيرون فى نفسه حسدا له ما يبرره . وأما تجعله المسافة (الزمنية) وحدها شيئا عظيما ، وما يجعله الناس عظيما بالعبارات الفارغة الجوفاء ، فهذا ما ينبغى الاعراض عنه .

من كان أعظم من تلك المراة المباركة التى اصطفاها الله ، مريم العذراء ؟ ومع ذلك ، كيف نتحدث عنها ؟ نقول أن الله فضلها على نساء العالمين . فاذا لم يحدث — على نحو غريب — أن يكون أولئك الذين يسمعون قادرين على أن يفكروا تفكيرا لا انسانيا مثل هؤلاء الذين يتكلمون ، فقد تتساءل كل فتاة : « لماذا لم اكن انا ايضا مفضلة عند الله ؟ » فاذا لم يكن لدى ما اقوله سوى ذلك ، فلن استبعد هذا السؤال على أنه سؤال غبى ، لانه اذا كانت المسألة مسألة تفضيل ، فان كل انسان مرشح لذلك ، اذا نظرنا الى المسألة نظرة مجردة . أما الشيء الذى يغيب عنهم ، فهو الحزن والقلق والمفارقة . ان فكرى طاهر كفكر أى انسان آخر ، وفكر الشخص الذى يستطيع أن يفكر فى مثل هذه الاشياء لابد أن يكون طاهرا — فاذا لم يكن الامر كذلك ، فربما توقع المحنة ، لان ذلك الذى استحضر هذه الصور مرة ، لا يستطيع أن يتخلص منها ، فاذا أخطأ فى حقها انتقمت لنفسها انتقاما رهيبا ، أشد هولا من صخب عشرة محررين اشتهروا بالشراسة . ومن المؤكد أن مريم حملت طفلها بمعجزة ، ولكن الامر استمر معها بعد ذلك كما يستمر مع النساء العاديات ،وكان حملها قلقا وحزنا ومفارقة . ومن المؤكد ان الملاك كان روحا مبعوثا ، ولكنه لم يكن روحا متذللا قد من عليها بقوله لعذارى اسرائيل الاخريات : « لا تحتقروا مريم ،

لان مـــا حـــدث لها شيء غير عادى » . ذلك أن الملاك لم يأت الا لمريم ، وما كان لاحـــد أن يفهمها . فأين تلك المرأة التى تحملت مـــا تحملته مريم ؟ أليس من الحق فى هـــذا المثل أيضا أن من يباركه الرب يلعنه فى نفس واحد ؟ هـــذا هو تأويل الروح لمريم ، فهى ليست (.وهذا شيء صدمنى أن أقوله ، ولكنـــه يصدمنى اكثر عنـــدما افكر انهم قـــد أولوا المسألة بحمق ونزق على هـــذا النحو) ـــ فهى ليست سيـــدة من علية القوم تجلس فى أبهـــة تلاعب ابنهـــا المسيح . ومع ذلك ، عنـــدما تقول « انظروا خادمة الرب » ـــ هنـــا تكون عظيمة ، واعتقـــد انـــه لن يكون عسيرا على المرء أن يفسر لمـــاذا أصبحت أم المسيح . انها ليست بحاجة الى الاعجاب الدنيوى ، بأكثر مما يحتـــاج ابراهيم الى الدموع ، وهى لم تكن بطلة ، كما لم يكن ابراهيم بطلا ، ولـــكن كلا منهما صـــار أعظممن ذلك ، ولم يكن ذلك بحال لانهما أعفيـــا من الحزن والعذاب والمفارقة ، ولكنهما أصبحا عظيمين من خلال ذلك (٥٠) .

انه لشيء عظيم أن يجرؤ الشاعر وهو يقـــدم بطله المأســـاوى لينال اعجـــاب الناس ـــ يجرؤ على أن يقـــول « اذرفوا الدمع عليه ،لانـــه أهـــل لذلك » . لأنـــه من العظمة أن يستحق البطل دموع أولئك الجديرين بسكب الدموع . وانه لشيء عظيم أن يجرؤ الشاعر على كبح جماح الجمهور ، وأن يجرؤ على تأنيب الناس ، متطلبا أن يفحص كل انسان نفسه ليرى ان كان جديرا بالبكاء على البطل . ذلك لأن الماء الضائع الذى يسكبه أصحاب الأوداج المنتفخة اهانة للمقدس ـــ وأعظم من هذا كله أن يجرؤ فارس الايمان على أن يقول لنبلاء الناس الذين يبكون من أجله : « لا تبكوا على ، بل ابـــكوا على أنفسكم » .

ان المرء ليتأثر تأثرا عميقا ، ويشتاق الى العـــودة الى تلك الازمنـــة الجميلة ، وثمة حنين عذب يقـــود المرء الى الهدف المنشود ، ليشاهد المسيح متجولا فى أرض الميعاد . وهنا ينسى المرء القلق والأسى والمفارقة . أكانت المسألة من اليسر بحيث لا يخطؤها المرء ؟ ألم يكن رهيبا أن هذا الرجـــل الذى يمشى بين الناس ـــ ألم يكن رهيبا أنه السيد المسيح ؟ ألم يكن رهيبا

أن يجلس المرء معه الى المائدة ؟ أكان أمرا يسيرا أن يصبح المرء رسولا ؟ ولكن النتيجة ، ألف وثمانمائة عام — هذا شىء يساعد ، يساعد على هذا الخداع الرخيص الذى به يخدع المرء نفسه ويخدع الآخرين . وانا لا أجد فى نفسى الشجاعة لأن أرغب فى أن أكون معاصرا لمثل تلك الأحداث ، ولكننى لا أحكم بقسوة على أولئك الذين كانوا مخطئين ، كما لا أفكر بخسة فى أولئك الذين استقامت رؤيتهم .

وها أنذا أعود — على كل حال — الى ابراهيم . وقبل النتيجة ، أما أن يكون ابراهيم قاتلا مدققا ، أو أننا نواجه مفارقة أعلى من كل توسط mediation .

وعلى هذا فان قصة ابراهيم تحتوى على تعليق غائى لما هو أخلاقى وهو كفرد أصبح أعلى من الكلى . هذه هى المفارقة التى لا تسمح بالتوسط ودخوله فى هذه المفارقة يستعصى على التفسير كبقائه فيها سواء بسواء . ولو لم يكن هذا هو موقف ابراهيم ، لما كان حتى بطلا مأساويا . وأما أن نستمر فى تلقيبه بأبى الايمان ، وأن نتحدث بهذا الى الناس الذين لا يعبأون بشىء الا بالكلمات .. هذا كله شىء يخلو من كل معنى . فالانسان يستطيع أن يكون بطلا مأساويا بقواه الخاصة — لا فارسا للايمان . فاذا سلك الانسان الطريق ، أو بمعنى ما الطريق الشاق الذى يسلكه البطل المأساوى ، فقد يستطيع الكثيرون اسداء النصح اليه ، أما ذلك الذى يسلك الطريق الضيق للايمان ، فلا يمكن أن يسدى اليه النصح أحد ، لأن أحدا لا يستطيع أن يفهمه . الايمان معجزة ، ومع ذلك ، فان أحدا ليس بمستبعد منه ، لأن هذا الذى تتحد فيه الحياة الانسانية لايكون الا عاطفة(*) ، والايمان عاطفة .

(*) عبر لسنج Lessing فى موضع ما عن فكرة مماثلة من وجهة نظر جمالية بحتة . وما يريد بيانه بوضوح فى تلك الفقرة أن الحزن أيضا يمكن أن يجد تعبيرا لماحا . ولهذا الغرض يستشهد برد للملك الانجليزى =

* * * * * * * * * * *

= التعس ادوارد الثاني.وفي مضاد ذلك يورد قصته من ديدرو عن امرأة فلاحة ورد لها . ثم يواصل كلامه قائلا : « هذا أيضا لون من حضور البديهة، ولون تتمتع به فلاحـة ، غير أن الموقف جعله شيئا محتوما . وبالتالي لاينبغي على المرء ان يلتمس العذر للتعبيرات اللماحـة عن الألم والأسى في تـلك الحقيقة وهي أن الشخص الذي تفوه بها كان شخصا متفـوقا ، حسـن التعليم ، ذكيـا ، لماحا فوق هذا كله ، **لأن العواطف تجعل الناس جميعـا متساوين ، مرة أخـرى** ــ ولكن ، يمكن التماس التفسير في انه من المرجـح أن يقول كل انسان الشيء عينه في الموقف عينه . والفكرة التي تطرأ عـلى ذهن فلاحة يمكن أن تطرأ على ذهن ملكة ، تماما ، كما أن ما قاله الملك في ذلك المثل يمكن أن تقوله فلاحة ، بل لا شك أنها قالته » قارن

Sämtliche Werke, XXX. p. 223.

المشكلة الثانية

هل هناك شيء يسمى واجب مطلق نحو الله ؟

الأخلاقي هو الكلي ، وبوصفه الكلي فانه — مرة أخرى — يكون الالهي . ومن ثم يحق للمرء أن يقول أن كل واجب هو أساسا واجب نحو الله ، ولكن ، اذا لم يستطع الانسان أن يضيف المزيد ، فانه يؤكد حينئذ في الوقت نفسه أنه لا واجب على نحو الله ، اذا شئنا الدقة . والواجب يصبح واجبا بارجاعه الى الله ، ولكنني في الواجب نفسه لا أدخل في علاقة مع الله . فمن الواجب مثلا أن يحب المرء جاره ، ولكنني في أداء هذا الواجب ، لا أدخل في علاقة مع الله ، ولكن مع الجار الذي أحبه . فاذا قلت حينئذ بصدد هذه المسألة ان من واجبي ان أحب الله ، كنت أعبر حقا عن تحصيل حاصل ، من حيث أن « الله » في هذا المثل يؤخذ بمعنى مجرد تماما بوصفه الالهي ، أعني الكلي ، أعني الواجب . وبهذا يستدير الوجود الانساني كله تماما مثل الكرة ، وعلى الفور يصبح الأخلاقي حده ومضمونه . ويصبح الله نقطة متلاشية غير مرئية ، فكرة خالية من القوة ، من حيث أن « قوته » لا تكمن الا في الاخلاقي الذي هو مضمون الوجود . فلو خطر لأي انسان على أي نحو من الانحاء أن ينشد حب الله بأي معنى آخر غير المعنى المشار اليه هنا — فانه يكون رومانسيا ، ويحب — في هذه الحالة — طيفا لو أتيحت له القدرة على الكلام لقال له : « أنا لا أريد حبك . أمكث حيث تنتمي » . فاذا عن لانسان — على أي نحو كان أن يحب الله حبا مختلفا ، فان هذا الحب يكون عرضة للارتياب ، مثل ذلك الحب الذي تحدث عنه روسو ، مشيرا الى أولئك الناس الذين يحبون الكافرين بدلا من جيرانهم .

ففى الحالة التى يكون فيها ما نعرضه صحيحا ، وفى حالة عـــدم وجـــود شيء لا يمكن أن يقاس عليه فى حياة انسانية ، وأن ما هو موجـــود فيها مما لا سبيل اليه لم يكن الا شيئا عرضيا لا يمكن أن نستخلص منه أية نتائج ، أى طالما نظرنا الى الوجود فى حـــدود الفكرة ، فان هيجـــل عـــلى حق ، ولكنه ليس على حـــق فى حديثه عن الايمـــان ، أو حين يسمح بأن ينظر الى ابراهيم بوصفه أبا الايمان ، لأنه بهـــذا العمل الأخـــير يصـــدر حكما على ابراهيم وعلى الايمـــان على السواء . وفى الفلسفة الهيجلية(٥٢) يوضـــع الخـــارجى das Aussere أعلى من الداخـــلى das Innere ويضرب لهذا مثل فى كثير من الاحيان . فالطفل هو الداخلى das Innere والرجـــل هو الخارجى das Aussere . ومن ثم فان الطفل يتحدد بما هـــو خارجى ، وبالعكس ، يتحـــدد الرجل — بوصفه خارجيا ، بما هـــو داخلى . أما فى الايمان — فالامـــر على النقيض — لأن الجوانى أعلى من البرانى — أو الرقـــم الفردى أعلى من الزوجى ، اذا تذكرنا تعبيرا استخدمناه آنفـــا .

وفى الطريقة الاخلاقية للنظر الى الحياة تكون مهمة الفرد اذن هى أن يجـــرد نفسه من المحـــددات determinants الداخلية وأن يعبـــر عنها بطريقة خارجية . وحيثما أحجم عن هـــذا ، وحيثما مـــال الى الاصرار ، أو الى الانزلاق مـــرة اخـــرى فى المحددات الداخليـــة للشعور أو المزاج ... الخ ، فانه يرتكب الخطيئة ، ويكون فى الغوايـــة Anfechtung ومفارقة الايمان هى أن هناك جوانية لا سبيل الى قياسها بالنسبة للخارج ، جوانية لا يمكن أن تتطابق مع الاولى — وهـــذا ما ينبغى أن نلاحظه — وانما هى جوانية جديدة . وهذا شيء ينبغى الا نتجاهله . ولقد سمحت الفلسفة الحديثة (٥٣) لنفسها دون مزيد من الضجة أن تستبدل المباشر بـ « الايمـــان » . وعندما يفعل المرء ذلك ، فان من المضحك أن ينكر أن الايمان وجد فى كل العصور . وعلى هـــذا النحـــو يأتى الايمان مرافقا بسيطا للشعور والمزاج ، وفرط الحساسية ، وحالات الكآبة والهستيريا ... الخ ، والى هذا الحد يمكن أن تصيب الفلسفة عندما تقـــول انه ينبغى على المرء الا يتوقف هناك . ولكن ، ليس هناك ما يبرر الفلسفة فى استخدامها لهذه الجملة بصدد الايمان . فقبـــل الامان تجـــرى حركة للامتناهى ، وعندئذ فحسب ، ودون توقع(٥٤) ،

وبفضل اللامعقول ، يظهر الايمان على المسرح . وهذا شيء أستطيع أن أفهمه دون أن أدعى — على هذا الاساس — انني مؤمن . واذا كان الايمان ليس أكثر مما تجعله الفلسفة ، فان سقراط يكون قد مضى فعلا الى ابعد من ذلك ، أبعد كثيرا ، على حين أن العكس هو الصحيح . وهو انه لم يصل اليه قط . فلقد قام بحركة اللامتناهي ، ولكن في مجال العقل . وجهله تسليم لا متناه . وهذه المهمة في حد ذاتها مباراة للقوى الانسانية حتى لو كان الناس في زماننا يترفعون عنها . ولكن ، بعد الانتهاء منها ، وبعد أن يكون الفرد قد أفرغ نفسه في اللامتناهي ، عندئذ فحسب يبلغ النقطة التى يمكن فيها أن يظهر الايمان .

ومفارقة الايمان هى أن الفردى أعلى من الكلى ، وأن الفردى (على سبيل التذكير بتمييز دجماطيقى (قطعى) نادرا ما نسمع به الآن) يحدد علاقته بالكلى بواسطة علاقته بالمطلق ، ولا يحدد علاقته بالمطلق بواسطة علاقته بالكلى . ويمكن التعبير أيضا عن هذه المفارقة بقولنا ان هناك واجبا مطلقا نحو الله ، ذلك لأن فى علاقة الواجب هذه يقف الفرد بوصفه فردا فى علاقة مطلقة مع المطلق . وهكذا عندما يقال بهذا الصدد انه لواجب ان نحب الله ، فان شيئا مختلفا عن هذا قد قيل فيما سبق ، لأنه لو كان هذا الواجب مطلقا ، اذن لاستحال الاخلاقى الى وضع النسبية . ولا يلزم عن ذلك على كل حال أن الاخلاقى شيء ينبغى الغاؤه ، ولكنه يكتسب تعبيرا مختلفا تمام الاختلاف — وهو على سبيل المثال أن حب الله قد يدفع فارس الايمان الى اعطاء حبه لجاره هو التعبير المعارض لما يقتضيه الواجب ، اذا تحدثنا بلغة الاخلاق .

فاذا لم يكن الامر على هذا النحو ، اذن فلن يكون للايمان مكان مناسب فى الوجود ، ومن ثم فالايمان غواية **Anfechtung** وهنا يضيع ابراهيم ، مادام قد استسلم لها .

وهذه المفارقة لا تسمح بالتوسط **mediation** لأنها مؤسسة بالضبط على أن الفرد هو فرد فحسب . وما أن يرغب هذا الفرد (الذى يشعر انه يتلقى امرا مباشرا من الله) فى التعبير عن واجبه المطلق بلغة الكلى

(أعنى بلغة الاخلاقى) ويكون على يقين من واجبه فى ذلك (أعنى فى القاعدة الكلية أو الاخلاقيــة) ، فانه يدرك انه يتعــرض لفتنة (أعنى امتحــانا للايمــان) ، فاذا قاوم فى الواقع (الاشـارة المباشرة لمشيئة الله) فانه ينتهى بالا يؤدى الواجب المطلق المزعــوم (أعنى ما سميناه هنا الواجب المطلق)، فاذا لم يفعل ذلك (أعنى انه لم يقاوم الايمان المباشر لمشيئة الله) ، فانــه يأثم ، حتى لو كانت فعلته هى ما يمليه عليه واجبه المطلق أن يفعله ﴿*﴾ .

فماذا كان ينبغى على ابراهيم أن يفعل ؟ لو أنه قال لشخص آخر ! « انني أحب اسحق حبا أعز من كل شيء فى الدنيا ، ومن ثم ، فانه يشق على نفسى ان اضحى به » ، فمن المؤكد أن يهز الآخــر رأسه قائلا : « فلماذا تضحى به اذن ؟ » — أو اذا كان هذا الآخــر شخصا ماكــرا ، فمن المؤكد أن يكون قد استشف ما فى نفس ابراهيم ، وأدرك أنه يقوم بعرض لمشاعره مما يتناقض تناقضا صارخا مع فعلته .

(﴿*﴾) لقد جازف المترجم بنقل هــذه الجملة المشوشـة فى حرية كبــيرة (وان كان وضع اضافاته الشارحة بين أقواس) ، وذلك حتى يستطيع أن يبين المعنى الذى ينبغى أن تتخذه هــذه الجملة اذا كان لابــد أن تعبــر عن المفارقة المحيرة « للتعلق الغائي للاخلاقى » . وهذا هو المعنى الذى يستخلصه منها نيلز ثلستروب **Niels Thulstrup** ، وقــد أخبرنى أن هــذه هى ترجمة امانويل هيرش **Emanuel Hirsch** . وكما كانت جملة كيركجور فى الاصــل — اى بدون اضافات شارحــة ، فانها تذكرنى بلغو فارغ كنت أردده لتعمية المستمعين : « اذا كان الانسـان أن يــدل على من ليس هو ، واذا كانت لديه القوة التى تنكر عليه ، فسوف يحــاول على كل حال — لمجرد أنه لا يفعل ، فهل تفعل انت ؟ » ورغم انني أحب كيركجور كثيرا ، فانني أبغضه فى بعض الاحيان لانه يؤرقنى بالليل اذ لا استطيع النوم واليقظة أن أفك من طلاسم جمله الموغلة فى التعقيد .

وانّنا لنجـد مثـل هـذه المفارقة فى قصة ابراهيم . وعلاقته باسحق اذا عبرنا عنها تعبيرا أخلاقيا — هى أن الأب ينبغى أن يحب الابن . هـذه العلاقـة الاخلاقية قـد انحطت الى وضـع نسبى فى مضاد العلاقة المطلقة مع الله . وعلى هذا السؤال « لماذا ؟ » لا يجـد ابراهيم جوابا الا انـه امتحان ، ابتلاء (Fristelse) — وهما لفظان يعبران — كما لاحظنـا آنفا — عن وحدة وجهتى نظر : أن ذلك فى سبيل الله ، وفى سبيله (أى سبيل ابراهيم) . وهاتان الطريقتان فى النظر الى المسألة تستبعد احداهما الأخرى فى الاستخدام العادى . وهكذا عندما نشاهد انسانا يفعل شيئا لا يتمشى مع الكلى ، نقول انه لا يمكن أن يفعل ذلك فى سبيل الله ، وبهـذا نقصـد أنه يفعله من أجل نفسه . ومفارقة الايمـان قد فقدت الحد الوسط، اعنى الكلى .اذ ينطبق عليها من ناحية تعبير الانانية القصوى (تأتيه من فعل بشـع من أجل الذات الفاعلة) ، وتتضمن من ناحية أخرى التعبير عن اشد أنواع التضحية بالذات اطلاقا (بأن تقدمها فى سبيل الله) . والايمـان نفسه لا يمكن أن يتخـذ مركزا وسطا فى الكلى ، لأنه يتحطم فى هـذه الحالة . والايمان هو هذه المفارقة ، ولا يستطيع الفرد أن يجعل نفسه واضحا لأى انسان كان . ويتخيل الناس انه ربما استطاع الفرد أن يجعل نفسه واضحا لفرد آخـر يقع فى نفس الحالة . مثل هـذه الفكرة قد تكون غير قابلة للتفكير اذا كان الناس فى زماننا لا يتسللون فى خبث بشتى الطرق — الى العظمة . وفارس الايمان لا يستطيع أن يقدم المعونة للآخر . فاما أن يصبح الفرد فارسا للايمان بتحمله لعبء المفارقة ، او لا يكون فارسا على الاطلاق . والشركة فى مثل هذه المناطق امر لا سبيل الى التفكير فيه . وأى مزيد من التفسير الدقيق لما ينبغى أن يفهه اسحق ، شىء لا يستطيع الا الفرد وحده أن يمنحه لنفسه . وحتى لو استطاع المرء — بوجه عام(٥٥) — أن يحدد على وجه الدقة ما هو المقصود باسحق (والذى يكون بالاضافة الى ذلك اشد المتناقضات الذاتية اضحاكا ، اعنى عندما يندرج الفرد الجزئى الذى يقف خارج الكلى تحت المقولات الكلية فى اللحظة التى ينبغى عليه فيها أن يتصرف بوصفه فردا خارج الكلى) . ولن يستطيع الفرد ابدا مع ذلك أن يؤكد لنفسه مستعينا بالآخرين ان هذا التطبيق مناسب ، ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك الا بنفسه

بوصفه فردا . ومن ثم اذا كان هناك انسان على درجة من الجبن والخسة بحيث يرغب فى أن يصير فارسا للايمان على مسئولية شخص خارجى ، فلن يصبح أبدا ذلك الفارس ، لأن الفرد هو الذى يصبح فارسا للايمان بوصفه الفرد المعين ، وهذه هى عظمة هذا النحو من الفروسية ، وهذا ما أستطيع أن افهمه جيدا دون الدخول فى تلك الطائفة ، ما دمت افتقر الى الشجاعة ، ولكن هذا أيضا هو ما تنطوى عليه من رعب ، وهو شىء أستطيع أن أفهمه خيرا من ذلك .

وفى انجيل لوقا ١٤ : ٢٦ — وهذا شىء يعرفه الجميع ، ثمة نظرية تساق للتعليم عن الواجب المطلق نحو الله : « ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » . وهذا قول صعب فمن ذا الذى يستطيع أن يتحمل الاستماع اليه ؟ ولهذا السبب فانه لا يسمع الا نادرا جدا . وهذا الصمت — أيا كان الأمر — ليس الا هروبا لا جدوى منه. ومع ذلك ، فان طالب اللاهوت يتعلم أن يعرف أن هذه العبارات ترد فى « العهد الجديد » ، وفى كتاب أو آخر من كتب التفسير المساعدة (٥٦) يجد هذا التفسير وهو أن لفظة (يبغض) فى هذه الفقرة وفى فقرات أخرى قلائل تستخدم بمعنى بحيث تعنى nihili facio L., noncolo, posthabeo-minus diligo ومهما يكن من أمر فان السياق الذى ترد فيه هذه الالفاظ لا يبدو أنه يدعم هذا التفسير الذى يراعى حسن الذوق . وفى الآية التالية مباشرة ، هناك قصة عن رجل أراد أن يشيد برجا ، ولكنه جلس بادىء الأمر ليحسب ان كان قادرا على ذلك ، حتى لا يستهزىء به الناس فيما بعد . ويبدو أن الصلة الوثيقة بين هذه القصة والآية التى ذكرناها — يبدو أنها تشير بالضبط الى أن الالفاظ ينبغى ان تؤخذ على قدر الامكان بأفظع المعانى ، وذلك بهدف أن يفحص كل انسان نفسه فيما اذا كان قادرا على اقامة البناء .

---

* معنى هذه الالفاظ بالترتيب :

يجمعهم اقل ، minus diligo ينزلهم فى مكان ثاوى ، posthabeo لايظهر لهم احتراما non colo يراهم عدما nihili facio .

وفى حالة ما اذا كان هذا المفسر الورع الشفيق الذى قدر أنه بتخفيضه للثمن يمكن أن يقوم بتهريب المسيحية الى العالم ــ ما اذا كان محظوظا بمــا فيه الكفاية ليقنع انسانا ما ــ من الناحية النحوية واللغوية ، والمجازية ، ان هذا هو معنى تلك الفقرة ، فيمكن أن نأمل أنه فى اللحظة عينها سيكون محظوظا بما فيه الكفاية لاقناع هذا الانسان نفسه بأن المسيحية هى أحق الأشياء بالرثاء فى هذا العالم . لأن العقيدة التى تكون فى أشــد تفجراتها غنائية ، وحيث يزدهر الشعور بصحتها الأبدية أقــوى ازدهار له ، لا تجــد ما تقوله سوى كلمة جوفاء لا تعنى شيئا ، وانما تدل فحسب على ان الانسان ينبغى ان يكون اقل عطفا ، وأقل رعاية ، وأكثر لامبالاة ، العقيدة التى تبــدو فى لحظة وكأنها تعبر عن أشد الاشياء هولا تنتهى بنغمة صبيانية بدلا من أن تثير الرعب ــ هذه العقيدة لا تستحق أن أرفع قبعتى تحية لها .

الألفاظ رهيبة ، ومع ذلك أعتقد أن الانسان يستطيع أن يفهمها دون أن يفترض أن من يفهمها لديه الشجاعة لتنفيذها . ولابد للمرء على كل حال أن يكون من الامانة للاعتراف بأن ذلك المكتوب شىء عظيم ، وان لم يكن للانسان الشجاعة الجديرة به . ومن يتصرف على هذا النحو لن يجد نفســـه مستبعدا من المشاركة فى القصة البديعـــة التى تتلــو ذلـــك ، فهى على كل حال تتضمن لونا من العزاء للانسان الذى لا يملك الشجاعة للشروع فى تشييد البرج . ولكن ، ينبغى أن نكون أمناء ، وألا نفسر هذا الافتقار للشجاعة على أنه تواضع ، لأنه فى حقيقة الامر كبرياء ، على حين أن شجاعة الايمان هى وحدها الشجاعة المتواضعة .

ومن اليسير على المرء أن يدرك أنه لو كان لهذه الفقرة اى معنى ، فينبغى ان تفهم حرفيا . فالله هو الذى يطلب الحب المطلق . اما ذلك الذى فى طلبه لحب شخص ما يفكر فى أن هذا الحب ينبغى البرهنة عليه أيضا بأن يتنكر الانسان لكل ما كان عزيزا عليه ــ مثل هذا الانسان ليس أنانيا فحسب ، ولكنه غبى أيضا ، ومن يطلب مثل هذا الحب يوقع فى نفس اللحظة قــرار اعدامه مفترضا أن حياته كانت مرتبطة بهذا الحب المشتهى . وهكذا يمكن أن يطلب زوج من زوجته أن تهجر أباها وامها ، ولكن أن يعتبر الدليل على حبها

الخارق له أنتصير من اجله خاملة ، وابنة عاقة ... الخ ، فانه يكون فى هذه الحالة اغبى الأغبياء . ولو أن لديه اية فكرة عن الحب كيف يكون ، لأراد أن يكتشف انها كابنة وكأخت كانت كاملة فى حبها ، وان يلتمس الدليل فى أن تحبه اكثر من أى شىء آخر فى العالم . فما ينظر اليه المرء فى حالة رجل مـا على انه عـلامة على الأنانية والغباء ، ينظر اليه المرء بمعونة المفسر على انه تصور جدير بالاله .

ولكن ، كيف يفهم المرء ؟ لن استحضر هنا التمييز الانسانى بين الحب والبغض — لا لأنى لدى الكثير مما اعترض به على هـذا التمييز (لأنه تمييز عاطفى على كل حال) ، ولكن لأنه انانى ، وليس فى موضعه هنا . ومهما يكن من أمر ، لو أننى نظرت الى المشكلة على أنها مفارقة ، فسوف أفهمها اذن ، أى سوف أفهمها على النحـو الذى يمكن أن يفهمها به الانسان بوصفها مفارقة ، وقد يدفع الواجب المطلق بالانسان الى أن يفعل ما تنهى عنه الأخـلاق ، ولكنها لن تستطيع (أى الأخـلاق) بأى حال من الاحـوال أن تدفع فارس الايمان الى أن يكف عن الحب . وهذا ما يثبته ابراهيم . ففى اللحظة التى كان مهيئا فيها للتضحية باسحق ، كان التعبير الأخلاقى عمـا يفعله هو هذا : انه يبغض اسحق . ولكنه لو كان يبغض اسحق حقـا ، لأمكنه ان يتأكد من أن الله لا يطلب هذا ، لأن قابيل وابراهيم ليسا شيئا واحدا . فلابد ان يحب اسحق بكل روحه ، وعندما يطلب الله اسحق ، فلابد أن يكون له أشد حبا واعزازا على قدر الامكان ، وعلى هذا الشرط وحده يمكن أن يضحى به . لأن هذا الحب لاسحق ، الذى هو فى معارضـة تتسم بالمفارقة لحبه لله — هو فى الواقع الذى يجعل من فعلته تضحية . بيد أن الحزن والقلق فى هذه المفارقة يتمثلان فى انه عاجز عن ان يجعل نفسـه مفهوما ، هذا اذا تحدثنا من الوجهة الانسانية . ففى هذه اللحظة وحدها التى تكون فيها فعلته فى تناقض مطلق مع شعوره ، تكون فعلته تضحية ، ولكن واقعية فعلته هى العامل الذى بواسطته ينتمى الى الكلى ، وفى هذا الصدد يكون — ويظل — قاتلا .

وفضلا عن ذلك ، ينبغى أن تفهم الفقرة الواردة فى انجيل لوقـا

على نحـــو يجعل من الواضح اشد الوضوح أن فارس الايمان لا يملك تعبيرا أعلى من الكلى (أعنى من الأخلاق) يستطيع به انقـــاذ نفسه . وهكذا، لو فرضنا ـــ مثـــلا ـــ أن الكنيسة تتطلب مثل هذه التضحية من احد أعضائها، كنا فى هـــذه الحالة وحدها بازاء بطـــل مأساوى . ذلك لأن فكرة الكنيسة ليست اختلافا كيفيا عن فكرة الدولة من حيث أن الفرد يدخل فيها بواسطة توسط بسيط Simple mediation ، ومن حيث أن الفرد يدخـــل فى المفارقة ، فانه لا يبلغ فكرة الكنيسة ، وهو لا يخـــرج من المفارقة ، ولكن ينبغى أن يجـــد فيها اما سعادته أو ضياعه . ومثـــل هذا البطـــل الكنسى يعبـــر فى فعله عن الكلى ، ولن يكون فى الكنيسة شخص واحـــد يعجـــز عن فهمه ، حتى ولا أبـــوه وأمـــه .. الخ . ومن ناحية أخـــرى ، لن يكون فارس الايمان ، كما أن عنده أيضا اجابة اخرى تختلف عن اجابـــة ابراهيم ، فهو لا يقول انه امتحان أو غواية يختبر بها .

والناس يحجمون عادة عن الاستشهاد بمثـــل هـــذا النص الوارد فى انجيل لوقـــا ، اذ يخشون أن يتركوا الحبل على الغارب للناس ، ويخشون أن يحدث الأسوأ حالما يضع الفرد فى ذهنه أن يسلك بوصفه فردا . وفضلا عن ذلك يعتقدون أن يحيا المرء بوصفه فردا هـــو أيسر الأشياء جميعا ، ومن ثم كان لابد من ارغام الناس على أن يرجعوا الى الكلى . أما أنـــا فلا استطيع أن اشاطرهم لا هذا الخوف ولا ذاك الرأى ، وكلاهما لسبب واحد بعينه . فمن تعلم أن الحياة كفرد هى افظع الأشياء جميعا ، لن يخشى أن يقول انها عظيمة ، ولكنه سيقول هذا أيضا على نحو لا تكاد تكون بفيـــه الالفاظ شركا للجيران ، بل الاحـــرى أن تعينه على الدخـــول فى الكلى ، وان افسحت كلماته مكانا الى حد ما للعظيم . والرجل الذى لا يجرؤ على ذكر مثل هذه النصوص لن يجرؤ على ذكر ابراهيم أيضا ، وفكرته عن ان من اشد الأمور يسرا الحياة كفرد تتضمن اعترافا مريبا جدا بالنسبة الى نفسه ، لأن ذلك الذى يكن لنفسه احتراما حقيقيا ، واهتماما بروحه ، يقتنع بأن الانسان الذى يعيش تحت مراقبة نفسه ، هو وحده فى العالم كله ـــ الذى يعيش فى صرامة وعزلة اكثر من عذراء فى صومعتها . اما ان هناك

بعض الناس الذين يحتاجون الى الارغام ، والذين اذا تمتعوا بالحرية انغمسوا فى الشهوات الأنانية كالسائمة ، فهذا حق لا ريب فيه ، ولكن على الانسان أن يثبت أنه ليس من هذه الفئة بأنه يعرف كيف يتكلم فى خوف ورعدة . وتبجيلا لما هو عظيم ، لابد للمرء أن يتكلم ، حتى لا ينسى خوفا من التأثير السىء الذى لن يتكشف بكل يقين اذا تكلم انسان على نحو نرى به أنه يعرف العظمة ، ويعرف رعبها — وبمعزل عن الرعب لن نعرف الرجل العظيم على الاطلاق .

دعنا ننظر الآن فى مزيد من القرب الى الحزن والقلق فى مفارقة الايمان. البطل المأساوى ينكر ذاته فى سبيل التعبير عن الكلى ، أما فارس الايمان فينكر الكلى ليصبح فردا . وكل شىء يتوقف — كما قلنا آنفا — على كيفية الوضع الذى يتخذه الانسان . فمن يعتقد انه من اليسير أن يكون فردا ، يستطيع أن يوقن دائما بأنه ليس فارس الايمان لان الصعاليك والعباقرة الجوالين ليسوا رجال ايمان . وفارس الايمان يعرف من ناحية أخرى ، انه يترجم نفسه فى الكلى ، ويحرر طبعة نقية أنيقة من نفسه ، خالية من الأخطاء لشىء مجيد أن ينتمى الى الكلى . ويعرف أن من الجميل والصحى ان يكون فردا على قدر الامكان . ويستطيع كل انسان أن يقرأها . ويعرف أنه لشىء منعش أن يكون المرء واضحا لنفسه فى الكلى بحيث يفهمه ، وبحيث أن كل فرد يفهمه سيفهم الكلى أيضا من خلاله ، وسوف يستمع كلاهما بما يظله عليهما الكلى من امان . وهو يعرف انه لشىء جميل أن يولد فردا يتخذ من الكلى مسكنه ومستقره الأمين ، الذى يرحب به على الفور بذراعين مفتوحتين عندما يمكث فيه . ولكنه يعرف أيضا أن أعلى من ذلك هناك يلف صاعدا درب موحش ، ضيق ، منحدر ، وهو يعلم انه لأمر فظيع أن يولد خارج الكلى ، وان يسير دون أن يلتقى بمسافر واحد . وهو يعرف تمام المعرفة أين موضعه ، ويعرف مدى علاقته بالناس ، فاذا شئنا أن نتحدث من وجهة انسانية ، قلنا انه مجنون ، ولا يستطيع أن يجعل نفسه واضحا لأحد . فان لم يكن من المفروض أنه كذلك ، فهو اذن منافق ، وكلما ارتقى صاعدا الى أعلى فى هذا الممر ، صار منافقا من أبشع طراز .

ويعلم فارس الايمان أن استسلام المرء للكلى يلهب الحماسة ، وانتنه يقتضي الشجاعة ، ولكنه يعلم أيضا أن الايمان يكمن هنا ، لأنه من أجل الكلي ، ويعلم أنه لشيء مجيد أن يفهمه كل عقل نبيل ، مجيد الى درجة أن من يشاهده يزداد نبلا به ، ويشعر وكأنه مقيد به ، ولعلة أن يتمنى لو أن هذه المهمة عهدت اليه . وهكذا كان من الممكن أن يرغب ابراهيم يقينا من حنين الى آخر أن يكون واجبه هو أن يحب اسحق الحب الذى يليق بأب ، وعلى نحو مفهوم للجميع تذكره العصور جميعا ، ويمكن أن يرغب فى أن تكون مهمته هى أن يضحى باسحق على مذبح الكلى ، حتى يحض الآباء على أفعال عظيمة — فاذا الرعب يكاد يستولى عليه من فكرة أن مثل هذه الرغبات بالنسبة اليه ليست الا غوايات ، ولابد أن يعالجها بوصفها كذلك ، لأنه يعرف أنه سبيل موحش ذلك الذى يسلكه ، وأنه لا ينجز شيئا فى سبيل الكلى ، وانما هو وحده الذى يتعرض للامتحان والبلاء . والا ، فما ذلك الذى ينجزه ابراهيم فى سبيل الكلى ؟ دعونى أتحدث عن هذا من وجهة نظر انسانية ، انسانية تماما . لقد قضى سبعين عاما حتى انجب ابنا فى شيخوخته . وما يناله غيره من الناس سريعا ، ويستمتعون به طويلا ، أنفق هو فيه سبعين عاما . ولماذا ؟ لأنه امتحن ، ووضع موضع الاختبار . أليس ذلك جنونا ؟ غير أن ابراهيم كان مؤمنا — وقد اهتزت ساره ، ودفعته الى أن ينسرى بهاجر — ولكن كان عليه حنيئذ أن يأخذها بعيدا وأنجب اسحق ، ثم كان عليه أن يمتحن مرة أخرى . كان يعلم أنه شيء مجيد أن يعبر عن الكلى ، وشيء مجيد أن يعيش مع اسحق . ولكن ، ليست هذه هى المهمة . وكان يعلم انه لأمر يليق بالملوك أن يضحى بمثل هذا الابن فى سبيل الكلى ، وكان من الممكن أن يجد هو نفسه راحة فى ذلك ، وكان من الممكن أن يرتاح الجميع فى الاشادة بفعلته ، كما يشرع الحرف اللين فى صوته الساكن(٥٧) ، ولكن ليست هذه هى المهمة ، انه يتعرض لامتحان . والقائد الرومانى الذى اشتهر بلقب المسوف(٥٨) Cunctator كان يصد العدو بالتسويف ، ولكن أى مسوف كان ابراهيم بالقياس اليه ! .. ومع ذلك ، فانه لم ينقذ الدولة . هذا هو مضمون ثلاثين ومائة عام . من ذا الذى يستطيع أن يتحمل ذلك ؟ أما كان زمانه المعاصر — اذا جاز لنا أن نتحدث عن شيء كهذا —

يستطيع أن يقول له : « ابراهيم يسوف الى الأبـد . وأخيرا ها هو ينجب ابنا . لقد استغرق هذا زمنا طويلا ، والآن يريد أن يضحى به . أليس مجنونا ؟ وحتى اذا استطاع أن يشرح لماذا يريد ذلك على أقـل تقدير ـ ولكنه يقول دائما انه امتحان » . وهنا لا يستطيع ابراهيم أن يأتى بالمزيد من الشرح ، ذلك أن حياته اشبه بكتاب موضوع تحت مصادرة الهية ، ولا يمكن أن يكون أبدا ملكية عامة(٥٩) Puplici juris .

وهذا هو الشيء الرهيب . ومن لا يرى ذلك ، يستطيع أن يكون دائمـا على يقين من أنه ليس فارس ايمان ، أما من يراه فلن ينكر أنه حتى اكثـر الابطـال المأساويين تعرضـا للامتحان ، يسير بخطوة راقصة اذا قيس بفارس الايمان ، الذى يأتى بطيئا زاحفا الى الامام . فاذا أدرك ذلك ، وطمأن نفسه بأنه لا يملك الشجاعة لفهمه ، فسيكون لديه على الأقـل شعور بذلك المجد الرائع الذى يبلغه هذا الفارس من حيث أنه اصبح أحـد معارف الله الحميمين ، صديقا للرب ، و (بلغة انسانية تماما) يقول « أنت » الله فى السموات ، على حين أنه حتى البطل المأساوى لا يخاطبه الا بضمير الغائب .

وما أن يتأهب البطل المأساوى ، ويفرغ من معركته ، حتى يقـدم على الحركة اللامتناهية ، ومن ثم يجد نفسه آمنا فى الكلى . أما فارس الايمان فيظل ـ من جهة اخـرى ـ مؤرقا لا يعـرف الى النوم سبيلا ، لأنه ممتحن دائما وابدا ، وفى كل لحظة هناك امكانية أن يعود نادما الى الكلى ، وهذه الامكانية يمكن أن تكون هى أيضا امتحانا كالحقيقة . وهو لا يستطيع أن يستمد من أحـد البينة على حقيقتها ، لأنـه فى هـذا الاستفسار يكون خـارج المفارقة .

ولهذا كان لابد لفارس الايمان أن تكون لديه أولا وقبل كل شيء الشهوة اللازمة لتركيز الاخلاقى الذى يتخطاه على عامل واحـد ، وذلك حتى يستطيع أن يمنح نفسه اليقين بأنه يحب اسحق حقا بجماع روحه* .

---

* سأقوم مرة اخـرى بتوضيح الاختلاف بين الصراعات التى يلقـاها البطل المأساوى وتلك التى يلقاها فارس الايمان . فالبطل المأسوى يؤكد =

فاذا لم يستطيع أن يفعل ذلك ، كان واقعا فى الغواية . وفى المحل الثانى ، فان لديه من العاطفة ما يكفى لكى يجعل هذا اليقين ميسرا فى طرفة عين ، وعلى هذا النحو يكون صحيحا صحة تامة مثلما كان فى المثل الاول . فان لم يكن قادرا على أن يفعل ذلك ، فلن يتمكن ابدا من أن يتحرك من موقعه ، لأن عليه باستمرار أن يبدأ المسألة كلها من جـديد . ويقوم البطل المأساوى أيضا بتركيز الأخلاقى على عامل واحـد ، ذلك الأخـلاقى الذى تجاوزه مـن الوجهة الغائية teleological ، ولكنه كان يتمتع فى هـذا المجال بمساندة الكلى . أما فارس الايمـان فيقف وحيدا دون سند ، وهـذا مـا يؤلف فظاعة الموقف . ومعظم الناس يعيشون على هذا النحو خاضعين لالتزام أخلاقى بحيث يستطيعون أن يدعـوا الأسى كافيا ليومهم هـذا ، ولكنهم لا يبلغون أبدا ذلك التركيز العاطفى ، وذلك الشعور المتدفق . وربما ساعـد الكلى البطل المأساوى على بلوغ ذلك — بمعنى ما — وأما فارس الايمـان فمتروك لنفسه تماما . ويقوم البطل بفعلته ، ويجد الراحة فى الكلى ، أما فارس الايمان فيبقى فى توتر مستمر . فأجاممنون يتنازل عن افيجينيا ، ومن

= لنفسه أن الالتزام الاخلاقى (أعنى الالتزام الاخلاقى الادنى الذى يطرحه جانبا فى سبيل الأعلى فى هذه الحالة الحاضرة ، هو تبعالذلك الالتزام بانقاذ حياة ابنته) حاضر بأكمله فيه لأنه يحيله الى رغبة . وهـكذا يسـتطيع اجاممنون أن يقول : « الدليل على اننى لا أسىء الى واجبى الأبوى هو ان واجبى هو رغبتى الوحيدة » ومن ثم نجد لدينا هنا الرغبة والواجب وجها لوجه . والفرصة السعيدة فى الحياة هى أن الاثنين يتجاوبان ، وان رغبتى هى واجبى ، وبالعكس ، ومهمة معظم الناس فى الحياة هى أن يظلوا فى واجبهم ، وأن يحيلوه بحماستهم الى أن يصبح رغبتهم . أما البطل المأساوى فيتنازل عن رغبته ليؤدى واجبه . وبالنسبة لفارس الايمان تتطابق الرغبـة والواجب أيضا ، ولكنه مطالب بأن يتنازل عن الاثنين ومن ثم ، فانه حين يقنع نفسه بالتخلى عن رغبته لا يجـد الراحـة ، لأنها واجبه قبل كل شىء ، فاذا ظل فى نطاق واجبه ومشيئته ، لم يكن فارسا للايمـان ، لأن الواجب المطلق يقتضى أن يتنازل عنهما . أما البطل المأساوى فقد أدرك تعبيرا ساميا عن الواجب ، ولكنه لم يدرك الواجب المطلق .

ثم يجد السكينة فى الكلى . ثم يقدم على الخطوة الخاصة بتضحيتها . فلو لم يقم أجاممنون بالحركة اللامتناهية ، ولو أن روحه كانت فى تلك اللحظة الحاسمة بدلا من أن تقوم بالتركيز العاطفى — كانت مستغرقة فى ذلك اللغو الشائع من أن له عـــددا من البنات ، وأن شيئا خارقا قــد يحدث — فلن يــكون بطـــلا بالطبع ، وانما حالة مرضية . وهـــذا التركيز البطولى كان يتمتع به ابراهيم ايضا ، وان كان فى حالته أصعب كثيرا ، مادام لا يجد له سندا فى الكلى ، ولكنه يقــوم بحركة أخـــرى يركز بها روحه على المعجزة . ولو لم يفعل ابراهيم هـــذا ، لكان مجرد أجاممنون — أعنى لو كان ممكنا على أى نحـــو من الأنحـــاء تفسير كيف يمكن تبرير فعلته فى التضحية باسحق ، على حين لا يضاف أى ربح الى الكلى .

وسواء أكان الفرد فى غواية ، أم كان فارسا للايمان ، فهذا ما يستطيع الفرد وحده أن يحدده . ومع ذلك ، من الممكن أن ننشىء مـــن المفارقة عدة معايير يستطيع أن يفهمها أيضـــا من لم يكن فى نطاق المفارقة . وفارس الايمان الحقيقى هـــو دائما عزلة مطلقة ، أما الفارس المزيف فعضو فى طائفة . وهذه الطائفية محاولة لتفادى المرور بالدرب الضيق للمفارقة ، ولاكتساب لقب البطل المأساوى بثمن بخس . البطل المأساوى يعبر عن الكلى ، ويضحى بنفسه فى سبيله . أما الطائفى المهرج ، فانه يملك عوضا عن هذا — مسرحا خاصا ، أعنى مجموعة من الأصـــدقاء والأصحاب الأوفياء الذين يعرضون الكلى كما يعرض الشمامسة العدالة فى مسرحية « علبة السعوط الذهبية » (٦٠) . أما فارس الايمان — فعلى النقيض من ذلك — هو المفارقة ، وهـــو الفرد ، ولا شىء على الإطلاق إلا الفرد ، دون روابط أو ادعاءات . وهذا هو الشىء المرعب الذى لا يستطيع القزم الطائفى أن يتحمله . فبدلا من أن يتعلم من ذلك المرعب أنه غير قادر علـــى القيام بالفعل العظيم ، والاعتراف بعجـــزه صراحة (هو فعل لا أستطيع الا أن اوافق عليه لأن هذا هو ما أفعله) يعتقد القزم أنه باتحاده مع الأقزام الآخرين يستطيع القيام به . ولكن ، هذا شىء خارج الموضوع تماما . ففى عالم الـــروح لا يمكن احتمال أى غش . قـــد تضم دستة من الأقزام سواعدها معا ، ولكنهـــم لا يعلمـــون

شيئا — أيا كان — عن الغوايات الموحشة التى تنتظر فارس الايمان ، والتى لا يجرؤ على تفاديها ، لأنه سيكون من الأفظع عندئذ أن يهرول قدما فى وقاحة . أما الطائفيون فيصمون آذان بعضهم البعض بما يحدثون من جلبة وصخب ، ويصدون القلق بصيحاتهم ، وهكذا تظن هذه الجماعة الرياضية الصاخبة أنهم يقتحمون السماء ، ويحسبون أنهم يسيرون على نفس الدرب الذى يسلكه فارس الايمان الذى لا يتناهى اليه — وهو فى عزلة الكون — أى صوت بشرى ، وانما يتقدم وحده حاملا على كاهله مسئوليته الرهيبة .

وفارس الايمان مرغم على الاعتماد على نفسه وحده ، ويشعر بالألم لعجزه عن أن يجعل نفسه واضحا للآخرين ، ولكنه لا يشعر بأية رغبة يشوبها الغرور لارشاد الآخرين . ويأتى ألمه من يقينه بأنه يسلك الطريق الصحيح ، أما تلك الرغبة الغرور فانه لا يعرفها . فهو أكثر جدية من أن يكون على مثل هذا الغرور . أما فارس الايمان المزيف فانه مهيأ للكشف عن زيفه بهذه الكفاءة فى الارشاد التى اكتسبها فى لحظة واحدة . وهو لا يفهم عما يدور هذا كله ، وأنه لو سلك فرد آخر الطريق نفسه ، لكان ينبغى عليه أن يصبح تماما على النحو نفسه ذلك الفرد دون أن يكون فى حاجة الى ارشاد أى مخلوق ، ولاسيما ارشاد شخص يقحم نفسه . وعند هذه النقطة ينفلت الناس جانبا ، لأنهم لا يستطيعون احتمال الاستشهاد الذى ينشأ عن عدم فهم الآخرين لهم ، وبدلا من ذلك ، يؤثرون الاعجاب الدنيوى بكفاءتهم ايثارا للراحة . أما فارس الايمان الحقيقى فهو شاهد ، ولن يكون معلما أبدا ، وهنا تكمن انسانيته العميقة ، التى تستحق نصيبا أكبر كثيرا من تلك المشاركة البلهاء فى أفراح الآخرين وأتراحهم التى يمجدها الناس باسم التعاطف ، وان لم تكن فى حقيقة الأمر الا غرورا . ان من لا يريد الا أن يكون شاهدا يقر بأنه ما من انسان ، حتى لو كان أشد الناس وضاعة — يحتاج الى تعاطف انسان آخر ، أو الى الحط من قدره ليعلو قدر انسان غيره . ولكنه مادام لم يكسب ما كسبه بثمن رخيص ، فانه لن يبيعه بثمن

يخس ، وهو ليس من الدناءة بحيث يأخذ اعجاب الناس ليعطيهم فى المقابل ازدراءه الصامت ، اذ يعلم أن ما هو عظيم حقا ، يكون فى متناول الجميع على السواء .

فاما ان هناك واجبا مطلقا نحو الله ، فان يكن الأمر كذلك فان هذا الواجب يكون هو المفارقة التى وصفناها هنا ، أعنى أن الفرد بوصفه فردا يكون اعلى من الكلى ، وبوصفه فردا يقف فى علاقة مطلقة مع المطلق او أن الايمان لم يوجد قط ، لأنه وجد دائما وأبدا ، أو بتعبير مختلف ، يضيع ابراهيم ، أو يجب أن يفسر المرء الفقرة الواردة فى الاصحاح الرابع عشر من انجيل لوقا كما فسرها ذلك المفسر حسن الذوق ، وأن يفسر على هذا النحو نفسه الفقرات المماثلة والمتشابهة (٦١) .

المشـــكلة الثالثة

هل يمكن الدفاع عن ابراهيم من الوجهة الأخلاقية فى اخفاء نيته عن ساره واليعازر واسحق ؟

الأخلاقى بوصفه كذلك هو الكلى ، وهو بوصفه الكلى أيضا يكون هو الظاهر ، المعلن . أما الفرد منظورا اليه على ما هـــو عليه مباشرة ، أعنى بوصفة كائنا فزيائيا نفسيا ، فهو الخفى ، المستور . ومـــن ثم فان واجبه الأخلاقى هو أن يخرج من هذا الخفاء وأن يكشف عن نفسه فى الكلى . وكلما شاء أن يبقى فى الحجاب يأثم ويمكث فى الغواية ، التى لا يخرج منها الا بالكشف عن نفسه .

وبهذا نعود مرة أخرى الى نفس النقطة . فلو لم يكن ثمة احتجاب يتخذ أساسه من أن الفرد بوصفه فردا هو أعلى من الكلى ، اذن لكان سلوك ابراهيم أمرا لا يقبل التبرير ، لأنه لم يعبأ بالمحددات الأخلاقية الوسيطة intermediate ethical determinants . ولو أن هناك ــ من ناحية أخرى ــ مثل هذا الاحتجاب ، فاننا نكون فى حضرة المفارقة التى يمكن التوسط فيها من حيث استنادها الى أن الفرد بوصفه فردا يكون أعلى من الكلى ، ولكن الكلى هو الوساطة mediation ، على وجه التحديد . وتذهب الفلسفة الهيجلية الى أنه لا وجود لاحتجاب مبرر ، أو لاقياسية مبررة justified incommensurability . ومن ثم فانهـــا متسقة مع نفسها حين تتطلب الجهر ، ولكنها ليست مبررة حين تنظر الى ابراهيـــم بوصفه أبا الايمان ، أو حين تتحدث عـــن الايمان . لأن الايمان ليس هـــو المباشرة الأولى first immediacy ، ولكنـــه

مباشرة لاحقة Subsequent . أما المباشرة الأولى فهى الجمـــالى Aesthetical ، وفى هذا قد تكون الفلسفة الهيجيلية على حق . غير أن الايمان ليس هـــو الجمـــالى — والا لم يوجد الايمان قط ، لأنه كان موجودا دائما وأبدا .

وقد يكون من الأفضل أن ننظر الى المسألة برمتها من وجهة نظر جمالية خالصة ، وبهذا القصد نشرع فى مداولة جمالية أرجو أن يستسلم لها القارىء تماما الى حين ، بينما سأعمل من جهتى — للاسهام بنصيبى — على تعديل عرضى ليتفق مع الموضوع . والقولة التى سأبحثها بحثا أدق هى مقولة « الشائق » interesting ، وهى مقولة اكتسبت فى عصرنا — بوجه خاص — اهمية عظمى (لأن عصرنا يعيش نقطة تحول فى التاريخ) ، ولأنها على الأصح مقولة نقطة التحول . وعلى هذا ، ينبغى علينا بعد أن أحببنا هذه المقولة بكل ما فينا من قوة — ينبغى ألا نزدريها كما يفعل البعض — لأننا قد كبرنا عليها ، ولكن لا ينبغى علينا أيضا أن نكون من شدة الطمع بحيث نرجو الوصول اليها ، فمن اليقين أن رغبة المرء فى أن يكون « شائقا » أو أن تكون له حياة شائقة — من اليقين أن هـــذه ليست مهمة الفن الصناعى ، ولكنها ميزة قدرية ، fateful privilege وهى كأية ميزة فى عالم الروح لا تشترى الا بالألم العميق . وعلى سبيل المثال كان سقراط أكثر من عاش من الناس تشويقا ، وكانت حياته أكثر الحيوات التى سجلها التاريخ تشويقا ، غير أن هذا الوجود شىء خصه به الاله ، ولما كان عليه أن يكتسبـــه ، لم يكن العناء والألم أمرين غير مألوفين له . وأن تؤخذ مثل هذه الحياة سدى شىء لا يليق برجل يأخذ الحياة مأخذ الجد ، ومع ذلك ، من النادر أن نشاهد فى عصرنا نماذج على هذا الجهد ، وفضلا عن ذلك ، فان « الشائق » مقولة حــدية border-category . فهى الحد الفاصل بين علم الجمال وعلم الأخلاق . ولهذا السبب ينبغى أن تلتقى مداولتنا بنظرة مستمرة الى ميدان الأخلاق ، على حين أنها لكى تكون قادرة علـــى اكتساب الدلالة ، ينبغى أن تقبض على المشكلة بشدة جمالية وشهوة عارمة . فقلما يتناول علم الأخلاق فى زماننا مثل هذه الأمور . والمفروض أن يكون السبب فى ذلك أنه لا يوجد

لها مكان مناسب فى « المذهب » . وعلى هذا ، فمن المؤكد أن يتناولها المرء فى مقال موجز ، فان لم يكن ثمة مجال للاسهاب ، فليلجأ المرء الى الإيجاز ، ولكن على أن يبلغ نفس النهاية — هذا اذا كان الانسان يملك فى قدرته صفة واحدة (المحمول Predicate) ، لأن صفة واحدة او صفتين يمكن أن تكشفا عن عالم بأسره . الا يمكن أن يوجد مكان ما فى المذهب لكلمة صغيرة مثل كلمة الصفة ؟ (المحمول) .

يقول أرسطو (٦٢) فى كتابه الخالد « فن الشعر » : « جزءان فى الأسطورة يتصلان بهذا الموضوع (أى الموضوع الذى كان يتحدث عنه ارسطو) . هما التغير Change والتعرف Recognition . وأنـا بالطبع معنى هنا بالعامل الثانى الذى هو التعرف recognition . وحيثما تعلقت المسألة بتعرف ما فان ذلك يتضمن فى حد ذاته اخفاء سابقا . وكما أن التعرف هو عامل الانفراج للازمة ، كما أنه العامل المخفف فى الحياة الدرامية ، فان الاخفاء هو عامل التوتر . وما قاله أرسطو فى الفصل نفسه عن مزايا المأساة التى تباين مدحها حسبما يصطدم (٦٣) كل من التغير والتعرف الواحد بالآخر فى نفس اللحظة ، وكذلك ما يقوله أيضا عن « الفرد » و « التعرف المزدوج » double recognition — ما يقوله عن هذا وذاك لا أستطيع أن أضعه هنا موضع الاعتبار ، وان يكن ما فيه من جوانية inwardness ، وتركيز هادىء ، يجعل ما يقوله مغريا بوجه خاص لشخص أرهقته تلك الاحاطة الشاملة التى يدعيها الجهابذة الموسوعيون . وربما كان من المناسب أن نورد هنا ملاحظة أكثر

---

* المحمول مصطلح منطقى ومعناه الصفة أو المسند . فالقضية فى المنطق تتألف من موضوع ومحمول وهو ما يقابل فى اللغة الصفة أو المسند . والجملة اللغوية تتألف من صفة وموصوف أو مسند ومسند اليه ، والتعريف المنطقى للمحمول هو الحد الذى يضاف الى الموضوع فى القضية . (م . ك) .

عمومية . ففى المأساة الاغريقية يعد الاخفاء (وبالتالى التعرف) بقية ملحمية قائمة على قدر تتوارى فيه الحركة الدرامية عن الأنظار ، ومنها تستمد أصلها الغامض الملغز . ومن ثم كان الأثر الذى تحدثه المأساة الاغريقية اشبه بتأثير تمثال من رخام يفتقر الى قدرة البصر . فالمأساة الاغريقية عمياء . ولهذا كان لابد من قدر معين من التجريد لتقديرها التقدير الصحيح . فهذا ابن (٦٤) يغتال أباه ، ولكنه لا يعلم الا فيما بعد أن هذا الشخص كان أباه . وهذه أخت (٦٥) تريد التضحية بأخيها ، ولكنها تعرف فى اللحظة الحاسمة من يكون . هذا الدافع الدرامى لا يقدر على انتزاع الاهتمام من عصرنا الذى يميل الى التأمل reflective . وقد تخلت الدراما الحديثة عن القدر ، وحررت نفسها دراميا ، وبدات تبصر بعينيها ، وتفحص نفسها ، وتذيب القدر فى شعورها الدرامى . واضحى الاحتجاب والكشف فى هذه الحالة هما الفعل الحر الذى يسأل عنه البطل .

والتعرف والاخفاء حاضران أيضا كعنصر جوهرى فى الدراما الحديثة . وان نسوق الأمثلة على ذلك ، امر يدفعنا الى الاسهاب . وانى من اللباقة بحيث افترض أن كل انسان فى عصرنا المفرط فى النواحى الجمالية ، والقادر ، والمتأجج ، بحيث يأتى اليه فعل التصور فى يسر كما يأتى لدجاجة الحجل والتى لا تحتاج — كما يؤكد أرسطو (٦٦) — الا الى الاستماع لصوت الديك ، أو لصوت طيرانه عاليا — افترض أن كل انسان لدى مجرد سماعه لكلمة « اخفاء » سيكون قادرا على أن ينفض من كمه نصف دسته من الحكايات الغرامية والمهازل . ولهذا أعبر عن نفسى باقتضاب ، وسأدلى على الفور بملاحظة عامة . ففى حالة ما اذا أخفى الشخص الذى يلعب لعبة الاخفاء (وبالتالى يدخل الى المسرحية الخميرة الدرامية) اخفى شيئا تافها ، فاننا نكون بازاء ملهاة ، أما أن كان يقف — من جهة أخرى — فى علاقة مع الفكرة ، فقد يقترب من أن يكون بطلا مأساويا . وسأضرب هنا مثلا على ما هو هزلى Comic . فهذا رجل يصبغ وجهه بالأحمر ويضع على رأسه باروكة . وهذا الرجل نفسه متلهف على تجربة حظه مع الجنس اللطيف . وهو على يقين تام

من انتصاره بمعونة الاحمر والباروكة اللذين يجعلانه شخصا لا سبيل الى مقاومته على الاطلاق . ويقتنص فتاة ، ويصل الى اوج السعادة . وهنا يأتى مربط الفرس : فلو أنه استطاع الاعتراف بهذه الزينة ، فانه لا يفقد كل قدراته الفاتنة ، وعندما يكشف عن نفسه بوصفه رجلا عاديا بسيطا ، وان له صلعة ، فانه لا يفقد المحبوبة عندئذ — فالاخفاء هنا هو فعله الحر ، الذى يعتبره علم الجمال مسئولا عنه . فهذا العلم ليس صديقا للمنافقين الصلع ، ولهذا يتركه تحت رحمة الضحك . ويكفى هذا للتلميح الى ما أعنيه — فالهزلى لا يمكن أن يكون موضوعا يهتم به هذا البحث .

ولزام على أن أفحص — من الوجهة الجدلية — الدور الذى يلعبه الاخفاء فى علم الجمال وعلم الأخلاق ، لأن المسألة هى أن ابين الأختلاف المطلق بين الاخفاء الجمالى والمفارقة .

واليكم هذين المثالين : فتاة تسر حبها لرجل ما ، وان لم يعترف احدهما للآخر بحبه اعترافا صريحا . ويرغمها والداها على الزواج من شخص آخر (وقد يكون هناك فضلا عن ذلك اعتبار التقوى البنوية التى تحدد قرارها) ، فتطيع أبواها وتكتم حبها « حتى لا تجعل الآخر شقيا ، ولن يعرف احد قط ما تعانيه » . — وهذا شاب يستطيع بكلمة واحدة ان يمتلك موضوع اشواقه وأحلامه الحائرة . وهذه الكلمة الصغيرة ستعرض للفضيحة ، بل ربما (من يعلم ؟) حطمت أسرة بأكملها ، ولكنه يتخذ قرارا شهما بأن يظل على كتمانه ، « لن تعرف الفتاة هذا ابدا . حتى تصبح سعيدة باعطاء يدها لرجل آخر » . وللأسف الشديد ان هذين الشخصين اللذين آثرا اخفاء عزمهما عن محبوبيهما ، لم يكتشف احدهما الآخر ، والا لجمعت بينهما وحدة عظمى لها شأنها — وخفاؤهما فعل حر ، فعل مسئولان عنه ايضا امام علم الجمال . فعلم الجمال على كل حال ، هو علم مجامل مسرف فى عاطفيته Sentimental ، يعرف من الحيل اكثر مما يعرف صاحب الرهونات . فماذا يفعل اذن ؟ أنه يجعل كل شىء ممكن امام العشاق . فبمعونة مصادفة ما يعرف الشريكان فى الزواج المزمع عقده تلميحا عن العزم الخطير الشأن الذي يتخذه

الطرف الآخر ، وينتهى الأمر بتفسير ، وينال كل منهما الآخر ، ويصلان فى الوقت نفسه الى مرتبة الأبطال الحقيقيين . فعلى الرغم من ان الوقت لم يتح لهما للنوم بعد اتخاذ قرارهما ، يعاملهما علم الجمال وكأنهما قد حاربا بشجاعة سنوات طوالا فى سبيل ما اتخذاه من قـرار . ذلك لأن علم الجمال لا يعنى نفسه كثيرا بالزمن ، وسواء أكان الأمر هزلا أم جدا ، فان الزمن يجرى سراعا بالنسبة اليه .

بيد أن الأخلاق لا تعرف شيئا عن هـذه المصادفة او عـن تلك الطرطشة العاطفية ، كما أنها لا تتصور الزمن ذلك التصور الخاطف . ومن ثم تتخذ المسألة وجها مختلفا . فلا جدوى من الدخول فى جدل مع الأخلاق ، لأن له مقولاته الخالصة . وهى لا تهيب بالتجربة ، التى تعد اكثر الأشياء المضحكة اضحاكا ، والتى بدلا من أن تجعل الانسان حكيما ، تجعله مجنونا ان لم يكن يعلم شيئا اعلى منها . ولا يمتلك عـلم الأخلاق فى حوزته أية مصادفة ، ومن ثم لا تنتهى الأمور بتفسير ، فهو لا يمزح مع الاشياء الجليلة ، بل يضع مسئولية هائلة على عاتق البطـل الهزيل ، فهو يشجب رغبته فى أن يلعب لعبة العناية الالهية بأفعـاله ، يشجب هذه الرغبة بوصفها تطاولا ، ولكنها تستنكره أيضا لرغبتـه فى أن يفعل ذلك بواسطة معاناته . فهو يطلب من الانسان أن يؤمن بالواقع ، وأن تكون لديه الشجاعة للنضال ضد أحزان الواقع جميعا ، بل ضد كل تلك العذابات التى تخلو من الرحمة ، والتى تحملها على مسئوليته الخاصة . وهذا العلم (أعنى علم الأخلاق) يحذر ضد الايمان بحسابات العقل التى هى أشد غدرا من نبوءات العصور القديمة . كما يحذر ضـد كل شهامة فى غير أوانها . فلندع الواقع يقرر — وعندئذ يحين الوقت لاظهار الشجاعة ، وحينئذ يقدم علم الأخلاق نفسه كل عون ممكن . فلو أن هناك شيئا أعمق يتحرك فى هذين الاثنين ، ولو أن الجدية كانت هناك لتشاهد ذلك العمل ، ولتشرع فيه ، اذن لأتى شىء منهما . غير أن علم الأخلاق لا يمكنه أن يساعد ، فقد أهين ، لأنهما يخفيان عنـه سرا ، سرا يكتمانه مجازفين بحياتهما .

وهكذا يتطلب علم الجمال الاخفاء ، ويكافىء عليه ، أما علم الأخلاق فيقتضى الكشف ويعاقب الاخفاء .

وحتى علم الجمال ، فانه يتطلب الكشف فى بعض الأحيان . وعندما يقع البطل فى أحبولة الوهم الجمالى فيظن انه ينقذ شخصا آخر بصمته ، فهو يطالب بالصمت حينذاك ، ويثيب عليه . ومن ناحية أخرى ، عندما يتدخل البطل بفعله تدخلا مزعجا فى حياة شخص آخر ، فانه يتطلب الكشف فى تلك الحالة . وأنا أتحدث الآن فى موضوع البطل المأساوى ، وسأحاول النظر على عجل فى مسرحية « أفيجينيا فى أوليس » ليوريبيديز . لابد أن يضحى أجاممنون بافيجينيا . والآن يطالب علم الجمال بأن يلزم أجاممنون الصمت ، اذ لا يليق بالبطل أن يسعى الى الراحة عند شخص آخر ، كما أنه — مراعاة للنسوة أيضا — ينبغى أن يخفى عنهن هذا الأمر ما وسعه الاخفاء . ومن ناحية أخرى ، لكى يكون البطل بطلا ، فلابد من امتحانه بغوايات رهيبة تمده بها دموع كليتمنسترا وافيجينيا . فماذا يصنع علم الجمال ؟ ان لديه حيلة ، ويقف طوع أمره خادم يكشف كل شىء لكليتمنسترا . ومن ثم ، يسير كل شىء كما ينبغى أن يسير .

أما علم الاخلاق ، فلا يجد مصادفة فى متناول يده ، ولا يجد خادما عجوزا . والفكرة الجمالية تناقض نفسها حالما يكون من الضرورى تنفيذها فى الواقع ؛ ومن ثم يتطلب علم الأخلاق الكشف . أما البطل المأساوى فيبدى شجاعته الاخلاقية فيكون هو نفسه الذى يعلن افيجينيا بمصيرها ، دون أن يقع فى شراك أى وهم جمالى . فاذا فعل البطل المأساوى هذا الفعل ، فانه يكون حينذاك الابن المحبوب من الاخلاق التى ترضى عنه كل الرضا . ولو أنه اخلد الى الصمت ، فربما لأنه يفكر فى أن يجعل الأمر أيسر على الآخرين ، أو ربما كان ذلك لأنه يريد أن يجعله أيسر على نفسه . ومهما يكن من أمر ، فانه يعلم الله ليس متأثرا بهذا الدافع الأخير . فاذا التزم الصمت ، فانه يحمل على عاتقه بوصفه فردا مسئولية خطيرة ولاسيما اذا تجاهل حجة قد تأتى من الخارج ؛ ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بوصفه بطلا مأساويا ، لأن الأخلاق لا تحبه الا لأنه

يعبر دائما عن الكلى . وفعله البطولى يتطلب الشجاعة ، ولكن مما يعــزى الى هذه الشجاعة انه لن يمتنع عن أى جــدال . والآن من المؤكد أن الدموع حجــة انسانية رهيبة ، كما لا شك أن هنــاك من لا يهزهــم شىء ، ومع ذلك يتأثرون بالدموع . وفى المسرحية تترك افيجينيا المشهد لتسلمنفسهــا للبكاء ، ولابــد أنها منحت شهرين ــ مثل ابنة يفتاح ــ للبكاء ، لا بمفردها ، ولكن عنــد قدمى أبيها ، وأتيح لها أن تستخدم كل ما تملك من فن ــ « وهو ليس شيئا آخــر غــير البكاء » ، وأن تلتف عند ركبتيه بدلا من أن تقــدم غصن الزيتون الذى يقدمه المتوسل عادة .

علم الجمال يطلب الكشف ، ولكنه يساعد نفسه للخــروج من المآزق بصدفة ، أما علم الأخلاق فيقتضى الكشف ويجــد فى البطل المأساوى ضالته المنشودة .

وعلى الرغم من الصرامة التى يتطلب بها عــلم الأخــلاق الكشف ، الا انه لا يمكن انكار أن السرية والصمت هما ما يصنعان حقــا الرجــل العظيم ، لأنهما من سمات الجوانية . وعنــدما يترك « الحب » Amor بسيشيه Psyche (النفس) يقــول لها : « سوف تلدين طفــلا وسيكون طفــلا الهيا لو انك التزمت بالصمت ، ولكنه لن يزيــد عن طفــل بشرى اذا بحت بالسر » . والبطل المأساوى المفضــل لدى علم الاخــلاق هو الانسانى الخالص ، وانا أستطيع أن أفهمه ، وكل ما يفعله يأتى فى ضوء المكشوف revealed . فاذا توغلت أكثر من ذلك ، تعثرت فى المفارقة، سواء أكانت المفارقة الالهية أم الشيطانية ، لأن الصمت يمكن أن يكون كليهما . الصمت هو أحبولة الشيطان ، وكلما أمعــن المــرء فى الصمت ، ازداد الشيطان رعبــا ، بيــد أن الصمت هو أيضا ذلك التفاهم المتبادل بــين الإله والفــرد .



وعلى كل حــال ، وقبل أن نمضى فى قصة ابراهيم ، سأستدعى عدة أشخاص شاعريين قبــل اسدال الستار . وبقــوة الجــدل (الديالكتيك) أحتفظ بهم على أطــراف أصابعهم ، وباستخدام سوط اليأس معلقــا

فــوق رءوسهم سأجعلهم لا يستقرون فى أماكنهم بكل تأكيــد ، وذلك حتى يبوحوا فى خوفهم بشىء أو بآخــر* .

وفى كتاب « فن الشعر »(٦٧) يروى أرسطو قصة شغب سياسى وقع فى دلفى ، وكان سبب اثارته مسألة زواج . ذلك أن العريس عنــدما تنبأ لـــه الكهنة (٦٨) بأن هناك نكبة ستعقب زواجه ، يقوم فجأةبتغيير مشروعه فى اللحظة الحاسمة عندما جاء ليصحب العروس ــ فقد قرر الا يحتفل بالزواج

---

* هذه الحركات والمواقف يمكن أن تكون موضوعا لمزيد من المعالجــة الجمالية . وعلى كل حال ، فأنا أترك الأمــر معلقا : الى اى مــدى يمكن أن يكون الايمان وحياة الايمان بأسرها موضوعا ملائما لمثــل هــذه المعالجة. ولما كنت اسعد دائما بشكر من أدين له بالفضل ، فسوف أشكر لســنج على بعض لمحاته عن الدراما المسيحية التى نجدها فى كتابه **Hamburgische Dramaturgie** (٦٩) . وقد ركــز نظرته ــ على كل حال ــ على الجانب الالهى البحت من الحيــاة المسيحية (الانتصار الكامل) ، ومن ثم تراوده بعض الهواجس ، وربما كان من الممكن أن يصــدر حكما مختلفا لو أنــه وجــه مزيدا من الانتباه للجانب الانسانى الخالص (لاهوت الحجاج)(٧٠) . وليس من شك أن ما يقوله شديد الاقتضاب ، ويتسم بالمراوغــة فى جــزء منه ، ولكن مادمت أجــد دائما متعتى فى صحبة لسنج ، لهــذا أغتنمها على الفــور . لم يكن لسنج مجــرد عقلية من أشمل العقليات التى انجبتها المانيا فحسب ، كما لم يكن يتمتع بدقــة نادرة فى علمه فحسب (ولهـــذا السبب يستطيع المــرء الاعتماد عليه وعلى تشريحــه دون خــوف مــن الانخداع باستشهادات غــير دقيقة لا يملك المــرء متابعتها فى كل مكان ، وبالجمــل نصف المفهومة المستقاة من الملخصات غير الموثوق بها ، كما لا يلقى المــرء عنده اساءة للتوجيه باطلاق أحمق لنفير التجديدات التى عرضها القدماء عرضا افضل) ــ ولكنه كان يملك فى الوقت نفسه موهبـــة فــذة ليست شائعة على الاطلاق فى شرح ما فهمه هو نفسه : وهنا يتوقف. اما فى عصرنا ، فالناس يمضون الى ابعد من ذلك ويشرحون أكثر مما فهموا .

قائلا : « لست فى حاجة الى ما هو أكثر »*ولم تمر هــذه الحادثة فى ذلفى دون اراقة للدموع ، ولو أن شاعرا اتخذ منهــا موضوعا لشعره ، لكان كفيلا بأن ينتزع التعاطف بكل ثقة . أليس من المحزن حقا أن الحب الذى كثيرا ما يبعــد فى الحيــاة الانسانية الى المنفى فى كثير من الأحيــان ، يجــرم من مساندة السماء ؟ ألا يقف الآن ذلك المثل القديم القائل « بأن الزيجــات تعقد فى السماء » موقف الخزى ؟ وقــد جرت العادة بأن أحزان المتنــاهي وصعابه جميعا هى التى تفرق بين العشاق كما تفعل الارواح الشريرة ، غير أن الحب يجــد السماء دائمــا الى جانبه ، ومن ثم ، فان هذا التحالف المقدس يتغلب على الأعــداء جميعا . وفى هذه الحالة تكون السماء نفسها هى التى تفصل ما جمعته السماء معا . ومن كان يستطيع أن يتكهن بمثــل هــذا الأمــر ؟ والعروس الشابة أبعــد الناس عن مثل هــذا التكهن . فمنذ لحظة واحدة فحسب كانت تجلس فى حجرتها بكل فتنتهــا ، وكانت العذارى الرقيقات قد زينها باخلاص حتى يستطعن أن يبررن أمــام العالم كله ما قمن به ، فما كن يجدن السرور فى عملهن ، بل الحسد أيضا . أجل، السرور لأنه لم يكن ممكنا بالنسبة اليهن أن يصبحن أشد حسدا ، لأنــه لم يكــن من الممكن بالنسبة اليها ان تصير اكثر فتنة . كانت تجلس وحيــــدة فى حجرتها ، وكانت تتحول من جمال الى جمال ، فقد استخدمت كل الوسائل التى يستطيع الفن الانثوى أن يزين بها فى جدارة من كانت به أهلا . ولكن كان ثمة شيء ناقص لم تحلم به العذارى الصغيرات : غلالة الطف وأخف ، ومع ذلك فانه اكثف من تلك الغلالة التى لفعنها بها ، ثوب عرس لم تعرفه عذراء شابة ، أو يمكن أن تساعدها فى الحصول عليه . . أجل ، حتى العروس

---

* يذكر أرسطو أن النكبة التاريخية كانت كالآتى : لكى تثــــأر أسرة العروس لنفسها دست آنيــة من أوانى المعبد بين متاعه ، فحكم عليــه القضاء بوصفه سارقا للمعبــد . ولم يكن لهــذا على كل حال أى شأن ، لأن المسألة ليست أن تكون الاسرة بارعــة أو غبية فى الاخــذ بثأرها . اذ لا تتمتع الاسرة بأية دلالة مثالية الا من حيث ادراجها فى جدل (ديالكتيك) البطــل . وفضلا عن ذلك ، فانه يكفى أن يكون اذعانه للقــدر متمثلا فى تخشيه للخطر بالاحجام عن الزواج ، كما أن حياته تدخل فى صلة مع الالهى على نحو مزدوج : أولا بنبوءة الكاهنات ، وثانيا فى ادانته بانتهاك حرمة المعبد .

نفسها لم تكن تعرف كيف تحصل عليه . كان قوة غـير مرئية ، قوة صديقة ، تجسد متعتها فى تزيين العروس ، وقد لفته حولها دون علمها ، ذلك أنهـا لم تشاهد الا كيف مـر العريس ، وذهب الى المعبـد ، ورأت الباب يغلق وراءه ، أمـا هى فقد ازدادت هدوءا وهناء لأنها لم تعـرف الا أنه ينتمى اليها الآن أكثر من أى وقت مضى . وانفتح باب المعبد ، وخطـا منه خارجا ، ولكنها غضت من بصرها فى حياء ومن ثم لم تلمح ماغشى وجهه من كدر ، ولكنه رأى أن السماء كانت غيورا من حسن عروسـه ، ومن حسن حظـه .
انفتح باب المعبـد وشاهدت العذارى العريس يخطو خارجا ، ولكنهن لم يلمحن ما ران على وجهه من قلق ، وانما كن مشغولات بالبحث عن العروس. وهنا أقبلت بكل تواضعها العذرى ، وان كانت أشبه بملكة محوطة بوصيفات الشرف ، اللواتى انحنين أمامها كما تنحنى العذارى دائما أمام العروس . وهكذا وقفت على رأس فرقتها البديعة وأخذت تنتظر ــ وكانت لحظة واحدة فحسب ، لأن المعبد كان قريبا أشد القرب ــ وجاء العريس ... ولكنـه تجاوز بابها .
... وهنا أقتحم القصة ــ وأنا لست شاعرا ، ولا أتنـاول الأشياء الا من وجهة جدلية . وينبغى أن نتذكر قبل كل شىء أن البطل يتلقى فى اللحظـة الحاسمة هـذه الاستنارة ، ومن ثم ، فانه نقى لا تثريب عليه ، ولم يكن ارتباطه بخطيبته ارتباطا نزقا . كما أنه تلقى ــ فى المحل الثانى ــ أمرا الهيا صادرا اليه ، أو لعله ضده(٧١) ، ومن ثم ، فانه ليس مسوقا كأولئك العشاق التافهين بخداعه لنفسه . وفضلا عن ذلك ، من نافلة القـول أن هذا الأمر يجعله شقيا كما تشقى به العروس ، أجل ، وان يكن أكثر قليلا ، لأنه على كل حـال المناسبة التى سببت شقاءها . ومن الحـق أن الكاهنات تنبأن بكارثة تصيبه « هـو » ، ولكن المسألة هى هل هـذه الكارثة من النـوع الذى اذا أساء اليه ، يسىء أيضـا الى سعادتهما الزوجية ؟ ماذا عليه أن يفعل اذن ؟ (١) هـل يلزم الصمت ويحتفل بالزواج ؟ بفكرة « ان هـذا السوء ربما لن يقـع على الفور ، ومهما يكن من أمـر ، فقد تمسكت بالحب ، ولم أخش من أن أجعل نفسى شقيا . ولكن أن ألزم الصمت ، هذا ما ينبغى لبقائه صامتا (*) أن أفعله ، والا كانت أقصر اللحظات قد تبددت » . يبدو هـذا معقولا ، ولكنه ليس كذلك بحـال من الأحـوال ، لأنه ان فعل ذلك يكون قد أهان

الفتاة . وعلى كل حال ، فقد جعل الفتاة مذنبة بما آثره من الصمت ، ففى حالة ما اذا عرفت الحقيقة ، فلن توافق أبدا على مثل هـذا القران . وهكذا فانه فى ساعة الشدة لم يكن عليه أن يتحمل مصيبته فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يتحمل مسئولية بقائه صامتا ، واستنكارها الذى له ما يبرره لبقائه صامتا . أو ٢ — هل يتمسك بصمته ، ويعدل عن الاحتفال بالزواج ؟ فى هذه الحالة ينبغى عليه أن يورط نفسه فى جو من الالغاز والغموض يجعله فى حكم العدم بالنسبة لعلاقته بها . وربما وافق علم الجمال على هـذا . وهنا ربما تشكلت النكبة كما تشكلت القصة الحقيقية ، فيما عدا أن تفسيرا قد يأتى وشيكا فى اللحظة الاخيرة — وعلى كل حال ، لن يحدث هـذا الا بعد أن يكون كل شىء قد انتهى ، مادامت النظرة الجمالية ترى أن موته ضرورة محتومة .. الا اذا تبين هذا العلم (علم الجمال) سبيله لالغاء تلك النبوءة المحتومة . ولكن ما برح هذا السلوك رغم ما ينطوى عليه من شهامة — متضمنا اساءة الى الفتاة والى حقيقة حبها . أو (٣) هل يفضى بكل شىء ؟ وعلينا الا ننسى أن بطلنا أوتى حظا ضئيلا من الشاعرية فى نظرنا أضأل من أن نفترض أن توقيع وثيقة حبه قد لا يتخذ لديه دلالة تختلف اختلافا كبيرا عن نتيجة مضاربة تجارية فاشلة . فاذا تكلم ، اتخذت المسألة كلها شكل قصة حب فاشل على نمط قصة «آكسل وفالبورج* Axel and Valborg ، فهـذا زواج من الناس

---

* وفضلا عن ذلك ، يستطيع المرء أن يوجه الحركات الجدلية ابتداء من هذه النقطة — وجهة أخرى . فالسماء تتنبأ بمصيبة تأتى فى أعقاب زواجه ، ولهذا قد يعدل عن الزواج ، ولكنه لن يتخلى عن الفتاة لهـذا السبب ، بل ربما عاش معها فى اتحاد رومانسى قد يكون بالنسبة للعشاق أكثر اشباعا . غير أن هذا ينطوى على اساءة الى الفتاة ، لأنه فى حبه لها لا يعبر عن الكلى . ومهما يكن من أمر ، فان هذا الموضوع يصلح لشاعر أو لأخلاقى يدافع عن الزواج . فاذا كان على الشعر أن يلتفت الى العنصر الدينى والى جوانية الشخصيات ، فسوف يعثر على موضوعات أكثر أهمية من تلك التى يشغل الآن بها نفسه . وفى الشعر ، تتردد هذه القصة حينا بعد حين : رجل مرتبط بفتاة أحبها ذات مرة — أو لعله لم يحبها =

تقوم نفسها بالتفريق بينهما(٧٢) . وأيا كان الأمر ، فان الافتراق في هذه الحالة ينبغى أن نتصوره تصورا مختلفا نوعا ما ، اذ أنه ينشأ فى الوقت نفسه عن الفعل الحر للفردين . واصعب ما فى جدل (دياكتيك) هذه الحالة هو ان المصيبة ستقع عليه وحده . ولهذا لا يجد العاشقان — مثلما يجد آكسل وفالبورج — تعبيرا مشتركا عن عذابهما ، ولا سيما أن السماء تسوى فى قرارها ضد آكسل وفالبورج ، لأنهما قريبان من عشيرة واحدة . ولو كانت الحالة هنا على هذا النحو ، لأمكن التفكير فى منفذ من هذه الورطة . فما دامت السماء لا تسخر هنا أية قوة مرئية للتفرقة بينهما ، وانما تترك لهما هذا الأمر ، فقد يتطرق الى الذهن أنهما قد يعتزمان فيما بينهما تحدى السماء ، وما تريده بهما من سوء أيضا .

على كل حال ، سوف يتطلب منه علم الاخلاق أن يتكلم . وهنا تلتمس بطولته أساسا فى تخليه عن الشهامة الجمالية التى لا يمكن — على كل حال —

= مخلصا قط ، لأنه رأى الآن فتاة أخرى وجد فيها مثله الأعلى . ورجل ارتكب خطئا فى حياته ، وكان ذلك فى الطريق الصحيح ، ولكنه كان فى المنزل الخطأ ، ففى مواجهته ، وفى الطابق الثانى ، تقطن المثل الأعلى — مثل هؤلاء الناس يفكرون فى موضوع يصلح للشعر . هذا عاشق أخطأ ، فقد أبصر خطيئته فى ضوء المصباح ، وكان يظن أن شعرها فاحم السواد ، ولكن، واأسفاه — عندما اقترب منها ألفاها شقراء — أما أختها فهى المثل الأعلى! هذا ما يعتقدون أنه موضوع يصلح للشعر ! وفى رأيى أن كل رجل على هذه الشاكلة لا يعدو أن يكون جلفا قد لا يطاق فى الحياة الواقعية ، ولكن ينبغى أن يستقبل فورا بصفير الاستهجان على خشبة المسرح حين يشرع فى القاء قصائد الشعر . العاطفة حين تصطدم بالعاطفة ، هذا هو ما يولد الصراع الشاعرى ، لا مجرد الشجار الذى ينشب بين هذه الجزئيات داخل عاطفة واحدة بعينها . وعلى سبيل المثال ، لو أن فتاة من العصر الوسيط ، أقنعت نفسها بعد أن وقعت فى الحب — بأن كل حب دنيوى ما هو الا خطيئة ، وآثرت الحب الالهى ، هنا ينشأ الصراع الشاعرى، والفتاة تتسم بالشاعرية ، لأن حياتها تقوم فى الفكرة .

التفكير بيسر فى هـذه الحالة ــ على أنها مشوبة بشىء من الغرور ، وهو غرور يأتى من كونها مخفية ، اذ ينبغى أن يكون من الواضح اليه حقا أنه يجعل الفتاة شقية . وتتوقف حقيقة هذه البطولة ــ على كل حال ــ على أن الفرصة قـد سنحت له ليحب حبا صادقا ،ولكنه أعرض عنها ، اذ لو كان من الممكن أن تكتسب مثل هذه البطولة دون هـذا ، لكان لدينا عـدد كبير من الأبطـال فى عصرنا ، ذلك العصر الذى يتمتع بكفاءة لا نظير لها فى التزييف ، والذى يقوم بأسمى الاشياء بالقفز على الخطوات الوسيطة .

ولكن ، لماذا اذن كان هـذا المخطط ، مادمت لم اتقدم الى ابعـد من البطل المأساوى ؟ أجل ، ذلك لأنه من الممكن على الاقـل أن يلقى ضوءا على المفارقـة . وكل شىء يتوقف على الموقف الذى يتخـذه ذلك الرجل من نبوءة الكاهنات التى تعـد ــ بصورة أو بأخـرى ــ شيئا حاسما فى حياته . هل هذه النبوءة ملكية عامة ، أم أنها شىء خاص ؟ المشهد يقـع فى بلاد الاغريق ، ونبوءة الكاهنات واضحة للجميع . ولا أعنى مجرد أن الانسان العادى قادر على فهم مضمونها من ناحية المصطلح ، ولكننى أعنى أن الرجل العادى يستطيع أن يفهم أن الكاهنة تعلن للفـرد القرار الـذى اتخذته السماء . وعلى هـذا فان نبوءة الكاهنة لا تتضح للبطل وحـده، بل للجميع ، ولا تنشأ عن هـذا أية علاقة خاصة بالاله . فليفعل البطـل ما يفعل ، ولكن النبوءة سوف تقع ، وسواء عليه أفعلها أم لم يفعلها ، فانه لن يعقد مع الاله علاقة أوثق ، ولن يكون موضوعا للطفها أو سخطها . فالنتيجة التى تنبأت بها الكاهنة شىء يقدر أى شخص عادى تماما على فهمه كما يفهمه البطل،ولا وجود لكتابة سرية(شفرة)لايستطيع قراءتها الا البطل وحده . فاذا كان عليه أن يتكلم ، فسوف يتكلم على أكمـل وجه ، ذلك لأنه يستطيع أن يجعل نفسه واضحا . أما اذا كان عليه أن يلتزم بالصمت ، فلأنه بفضل كونه فردا ، فانه أعلى من الكلى ، وسيوهم نفسه بكل أنواع الأفكار الخيالية بأن فتاته لن تلبث أن تنسى حزنها .. الخ . ومن ناحية اخرى ، وفى حالة ما اذا لم تكن مشيئة السماء قد اعلنت اليه بواسطة الكاهنة ، وتناهت اليه معرفتها بطريقة خاصة تماما ، وفى حالة ما اذا وضعت نفسها فى علاقة خاصة

تماما معه ، فهنا نلتقى بالمفارقة (على افتراض أن هناك شيئا كهذا — اذ يتخذ تفكيرى شكل الورطة) ، وعندئذ ، لن يقدر على الكلام ، وان اعتملت فى نفسه رغبة شديدة لأن يفعل(٧٣) . فهو لم يكن مستمتعا بهذا الصمت ، بل كان يعانى من العذاب — ولكن كان هذا بالضبط فى نظره تأكيدا بأنه مبرر. ومن ثم ، لم يكن سبب صمته أنه بوصفه فردا قد وضع نفسه فى علاقة مطلقة مع « الكلى » ، وانما كان هذا السبب انه وضع بوصفه فردا فى علاقة مطلقة مع « المطلق » . وفى هذا اذن يستطيع أن يجد السكينة (على قدر ما أستطيع أن أصور الأمر لنفسى) ، على حين أن صمته الشهم قد كان من الممكن أن تكدره باستمرار مقتضيات « الاخلاقى » ethical . ان من المنشود بشدة أن يحاول علم الجمال — ولو مرة واحدة — أن يبدأ من النقطة التى انتهى عندها منذ أعوام عديدة — أعنى من الشهامة الوهمية . فاذا فعلت ذلك مرة ، فسوف تعمل مباشرة لحساب « الدينى » لأن الدين هو القوة الوحيدة التى يمكن أن تخلص «الجمالى» من صراعه مع « الأخلاقى ». لقد ضحت الملكة اليزابث(٧٤) للدولة حبها لاسكس Essex عندما وقعت الحكم باعدامه . كان ذلك فعلا بطوليا ، حتى وان شابه شىء من الظلم الشخصى لأنه لم يرسل اليها الخاتم . والواقع انه كان قد أرسله — كما نعلم — ولكن أخفته بخبثها سيدة من سيدات البلاط . وتلقت اليزابث معلومات بذلك (كما تروى القصة ، دون اختلاق) ، وعندما أحاطت علما بهذا الأمر جلست عشرة أيام وقد وضعت اصبعا فى فمها ، وأخذت تعض عليه دون أن تتفوه بكلمة ، ثم ماتت . هذا موضوع يصلح لشاعر يعرف كيف يفغر الأفواه اندهاشا — وبدون هذا الشرط ، لن تصلح على أكثر تقدير الا لقائد باليه ، وهو شخص كثيرا ما يخلط الشاعر بينه وبين نفسه .

وسأتبع ذلك بصورة مجملة أرسم بها ما هو شيطانى demoniacal وتنفعنى لهذا الغرض أسطورة آجنس Agnes والغرانق Merman . فالغرانق ما هو الا مغرر seducer يصوب سهامه من مخبئه فى الهاوية ، وبشهوة ضارية يقبض على الزهرة البريئة ويحطمها ، تلك الزهرة التى تقف بكل رشاقتها على شاطىء البحر ، وتحنى رأسها سارحة مع أفكارها لتنصت الى هدير المحيط . وهذا ما عناه الشعراء حتى الآن . ولكن

دعنا ندخل تعديلا على هذا المعنى . كان الغرانق مغررا . وقد دعا آجنس اليه ، واستطاع بأقواله المعسولة أن يغوى مشاعرها الدفينة ، فقد رأت فى الغرانق ما كانت تبحث عنه ، وما كانت تحملق اليه فى قاع البحر . كانت آجنس تحب أن تتبعه . وقد رفعها الغرانق بين ذراعيه ، وطوقت آجنس عنقه ، وبكل روحها استسلمت فى ثقة للشخص الاقوى . وكان قد وقف بعلا على شفا الهاوية ، وانحنى على البحر ، وأوشك أن يهوى فيـــه بفريسته ــ وهنا نظرت اليه آجنس مرة أخرى ، لا عن جبن ، أو عن شك ، ولا عن زهو بحظها السعيد ، ودون انتشاء بالمتعة ، ولكن فى ايمان عميق به ، وفى تواضع مطلق ، كالزهرة الوديعة ، كما كانت تحسب نفسها ، وبهذه النظرة سلمت له فى ثقة مطلقة مصيرها كله(٧٥) . وانظـــروا الآن ماذا حدث : توقف البحر عن الهدير ، وسكت صوته ، وشهوة الطبيعة التى يستمد منها الغرانق قوته تخلت عنه فى هذا الموقف الحرج ، وساد هدوء مميت ــ وما برحت آجنس تنظر اليه تلك النظرة . ثم يتداعى الغرانق ، لأنه لايستطيع أن يقاوم سـلطان البراءة ، وخـــذله عنصره الشـيطانى ، فلـم يعـد قـادرا على اغـواء آجنس . ويقودها راجعا على أعقابه ، ويفسر لها الأمـــر بأنه لم يكن يريد الا أن يريها كيـــف يكـــون البحـــر جميـــلا عنـــدما يهدأ ، وتصدقه آجنس . ــ ثم يعود بمفرده ، فيزمجر البحر ، غـــير ان يأس الغرانق يزمجر فى نفسه على نحو أكثر ضراوة . انه يستطيع ان يغرر بآجنس، بل بمئات من الآجنسات ، انه قادر على فتنة كل فتـــاة ــ غير أن آجنس انتصرت ، وبذلك ضـــاعت مـــن يـــده . انهـــا لا يمـــكن أن تـــكون لـــه إلا بوصفها فريسة ، فهو لا يستطيع أن يخلص فى حب أية فتاة ، لأنه فى واقع الامر ليس الا غرانق . وهنا سمحت لنفسى بادخال تعديل طفيف *

---

* يستطيع المرء أيضا أن يعالج هذه الأسطورة على نحو آخر ، فالغرانق لا يريد اغواء آجنس ، وان كان قد اغوى قبلها كثيرات . فهو لم يعد غرانقا كما كان ، أو اذا شاء المرء ــ هو مجرد غرانق بائس يقبع فى قاع البحـــر حزينا آســـفا . ولكنـــه يعلم على كل حـــال (كمـــا تحكى الاسطورة فى الواقع) (٧٦) : انه من الممكن أن ينـــال الخلاص بحب فتاة =

عليه ، كما ادخلت تعديلا جوهريا على آجنس ، ذلك أن الأسطورة لا تعفى آجنس تماما من الخطأ — فمن العبث واللغو والاهانة للجنس الأنثوى — اذا شئنا أن نتحدث بوجه عام — أن نتصور حالة من الغواية لا تكون فيها الفتاة ملومة على أى وجه من الوجوه . ففى الأسطورة نرى آجنس امرأة تشتهى « الشائق » the interesting (هذا على سبيل تحديث العبارة) ، وتستطيع كل امرأة على شاكلتها أن توقن دائما بأن هناك غرانق على كثب منها ، وهذا ما اكتشفه الغرانق

= بريئة . ولكنه يضمر سوء الطوية للفتيات ، ولا يجرؤ على الاقتراب منهن . وهنا يرى آجنس . وكان قد رآها عديدا من المرات — وهو مختبىء بين أعواد القصب — تتمشى على الشاطىء (٧٧) . وكان جمالها ، وانشغالها الهادىء بنفسها مما لفت أنظاره اليها ، غير أن الحزن كان هو وحده الذي يسود نفسه ، ولم تكن تحتمل فيها أية شهوة ، وهكذا عندما مزج الغرانق آهاته بتنهدات أعواد القصب أرهفت سمعها ناحيته ، ثم وقفت ساكنة فى مكانها ، واستغرقت فى الأحلام ، ساحرة سحرا لم يؤت لامرأة، ومع ذلك باهرة كملاك محرر liberating يوحى للغرانق بالثقة . ويستجمع الغرانق أطراف شجاعته ، فيقترب من آجنس ، ويفوز بحبها ، ويأمل فى الخلاص . بيد أن آجنس لم تكن عذراء هادئة ، بل كانت مفتونة بهدير البحر ، أما التنهدات الحزينة التى كانت تطلقها البحيرة الداخلية ، فلم تكن تسرها الا لأنها كانت تفور فى داخلها فورانا أقوى من أنين البحيرة . وكانت تحب الانطلاق بعيدا ، وتود الأندفاع فى وحشية الى اللامتناهى مع الغرانق الذى أحبته — ومن ثم فانها تحرض الغرانق ، وتعرض بتواضعه . وهنا تستيقظ كبرياؤه . ويثور البحر وتزبد الامواج ، فيعانق الغرانق آجنس ويهوى بها الى الاعماق . لم يكن بهذه الوحشية قط ولم يمتلىء بمثل هذه الشهوة أبدا ، فقد كان يرجو ان يجد الخلاص بهذه الفتاة . وسرعان ما ينتابه السأم من آجنس ، ومع ذلك ، لم يعثر أحد قط على جثتها ، فقد تحولت الى حورية mermaid تغوى الرجال بأغانيها .

بنصف عين أو شيئا من هذا القبيل فتحرك مندفعا كسمكة القرش نحو فريستها . فمن الغباء الشديد اذن أن نفترض (أو لعلها شائعة نشرها غرانق فى الخارج) أن تلك الحضارة المزعومة تعصم الفتاة من الاغراء . كلا ، ان الوجود أكثر عدلا وصوابا . فليس هناك غير عاصم واحد ، وذلك هو البراءة .

سنضفى الآن على الغرانق شعورا انسانيا ، ونفترض أن حقيقة كونه غرانق تشير الى وجود انسانى سابق فى النتائج التى اشتبكت فيها حياته . فليس هناك ما يمنعه أن يصير بطلا ، لأن الخطوة التى يتخذها الآن هى ضرب من المصالحة . لقد انقذته آجنس ، وانسحق المغرر ، ولم يجد بدا من الانحناء لسلطان البراءة ، ولم يعد فى مقدوره أن يغرر بأحد مرة اخرى . ولكن فى هذه اللحظة نفسها تتنازعه قوتان ، كل منهما تريد امتلاكه : الندم ، وآجنس والندم . فلو استولى عليه الندم وحده ، اذن فسيلجأ الى الاختفاء ، واذا استولت عليه آجنس ومعها الندم ، فسيفصح عن نفسه .

والآن ، فى حالة ما اذا استحوذ الندم على الغرانق ، وظل مختفيا ، بذلك يكون من الواضح انه ترك آجنس للشقاء ، لأن آجنس أحبته بكل ما فيها من براءة ، وآمنت انه حتى فى اللحظة التى بدا فيها متغيرا — وان كان قد استطاع اخفاء ذلك ببراعة شديدة — فانه كان صادقا فى قوله ان كل ما كان يريده هو أن يريها البحر فى هدوئه الجميل . ومهما يكن من أمر ، وفيما يتعلق بالعاطفة ، اصبح الغرانق نفسه أشد شقاء ، لأنه أحب آجنس بعواطف شتى ، وكان عليه أن يحتمل بالاضافة الى هذا كله — ذنبا جديدا . فسوف يفسر له الآن العنصر الشيطانى فى الندم أن هذه بالضبط عقوبته (جزاء على أخطاء حالته السابقة على الوجود) ، وكلما عذبته تعذيبا أشد ، كان ذلك أفضل .

ولو أنه استسلم لهذا التأثير الشيطانى ، فربما قام حينذاك

بمحاولة أخرى لانقاذ آجنس ، على النحو الذى يمكن أن يقوم به المرء — بمعنى ما — لانقاذ شخص بواسطة اللجوء الى الشر . كان يعلم أن آجنس تحبه . فلو أمكنه أن ينتزع من آجنس هــذا الحب ، اذن لأنقذها على نحو ما ، ولكن ، كيف ؟ كان الغرانق من حسن الفهم بحيث لا يعتمد على فكرة أن اعترافا صريحا يفتح به قلبه سيثير تقززهـــا . ربما حاول من ثم أن يحرض كل الشهوات المظلمة فى نفسها ، فيبدى لها احتقاره ، وسخريته ، واستهزاءه بحبها ، واذا اســتطاع ، أثار كبرياءها . ولن يعفى نفسه من أى عذاب ، لأن هــذا هو التناقض العميق فيما هــو شيطانى ، وثمة خير أفضــل كثيرا الى مالانهاية — بمعنى ما — فى الشخص الشيطانى عنه فى الشخص التافه . وكلما تزايدت أنانية آجنس ، كان الخداع أيسر عليه (لأن الناس الذين لم تتح لهم أية خبرة هم الذين يفترضون أن خداع البراءة أمــر يسير ، فالوجود عميق جدا ، والواقع أن من أيسر الأشــياء على الأريب أن يخدع أريبا مثله) — ولكن آلام الغرانق ستكون فى هذه الحالة اشد هولا . وكلما دبر خداعه فى مكر أشد ، كان اخفاء آجنس لآلامها عنه أقل حياء ، فسوف تلجأ الى كل وسيلة ، ولن يكون هذا بغير تأثير — لا أعنى أن تزعزع عزمه ، بل أن تضاعف من تعذيبه .

وهكذا يرغب الغرانق — مستعينا بالشيطانى — أن يكون الفرد الذى بوصفه فردا عاليا على « الكلى » . وللشيطانى نفس السمات التى يتمتع بها الالهى من حيث أن الفرد يســتطيع أن يدخل معه فى علاقة مطلقة . وهذا هو المماثل ، المقابل المضاد ، لتلك المفارقة التى نتحدث عنها ، ومن ثم فان بها مشابها معينا يمكن أن يخــدع المرء . وهكذا يملك الغرانق — ظاهريا — الدليل على أن صمته له ما يبرره والدليل هو أنه يعانى كل هذا العذاب . وعلى كل حال ، يســتطيع دون شك الافصاح عما فى نفسه . وبهذا يستطيع أن يصير بطلا مأساويا ، بل بطلا مأساويا من طراز فخم فى رأيى ، اذا أفضى بما عنده . وربما

لم يفهم الا البعض اين تكمن هذه الفخامة * . وسيتمكن حينئذ من أن ينتزع من ذهنه كل خداع للذات عن قدرته على اسعاد آجنس بما يلجأ اليه من حيلة ، بل ستكون لديه الشجاعة لسحق آجنس ، اذا تحدثنا بلغة انسانية . وهنا سأتقدم فى الختام بملاحظة نفسية واحدة . فكلما تطورت آجنس لتزداد أنانية ، ازداد خداع الذات ابهارا . ولا يستعصى على التصور حقا أن يتمكن الغرانق بحصافته الشيطانية ــ ونحن نتكلم هنا من وجهة نظر انسانية ــ لا من انقاذ آجنس فحسب ، بل من استخلاص شىء خارج عن المألوف منها ، ذلك أن الجنى يعرف كيف يثير كوامن القوة حتى فى أضعف الأشخاص ، وقد تكون نياته حيال كائن انسانى افضل ما تكون على طريقته الخاصة .

ويقف الغرانق عند نقطة التحول الجدلية (الديالكتيكية) . فاذا تم خلاصه من « الشيطانى » عن طريق الندم ، انفتح أمامه طريقان :

---

* يعالج علم الجمال مثل هذا الموضوع أحيانا بخفته المعتادة . لقد انقذت آجنس الغرانق ، وانتهى الموضوع كله بزواج سعيد . زواج سعيد ! هذا شىء يسير كل اليسر . ومن جهة اخرى ، اذا اتيح لعلم الأخلاق أن يلقى الخطبة اثناء مراسيم الزواج ، فستكون المسألة مختلفة ، على ما اتصور . علم الجمال يلقى عباءة الحب على الغرانق ، وهكذا يطوى النسيان كل شىء . ومن الاهمال الشديد أيضا أن نفترض أن الأشياء تسير فى حفل الزواج كما يسير الأمر فى مزاد حيث يباع كل شىء على حالته عندما تدق المطرقة . وكل ما يعنيه هو أن يظفر كل محب بمحبوبته ،ولا يشق على نفسه بما يحدث بعد ذلك . ولو أنه شاهد فحسب ما يحدث بعد ذلك ــ ولكن وقته لا يتسع لذلك ، بل ان كل طاقته مكرسة فى أن يلقى زوجا جديدا من العشاق الواحد فى حضن الآخر . وعلم الجمال هو اشد العلوم انكارا للايمان على الاطلاق . وكل من أحب حبا عميقا ، يصير تعسا بمعنى ما ، أما ذلك الذى لم يحب قط ، فانه يبقى ، ويظل ممدودا فى جنس البهائم .

فاما أن يتماسك ، ويبقى فى تخفيه ، ولكن دون اعتمـــاد على حصافته . وهنا لا يأتى بوصفه فردا فى علاقة مطلقة مع الشيطانى ، وانما يجـد مستقرا فى المفارقة المضادة بأن الاله سينقذ آجنس (وعلى هذا النحو يمكن أن تقوم العصور الوسيطة بهذه الحركة ، ذلك أن الفـرانق قـد نذرعلى نحو مطلق ــ وفقا لتصورها ــ لدخول الدير) . والطـريق الثانى هو أن يتم انقاذه هو وآجنس معا . ولكن ينبغى الا يفهم هذا بأنه يعنى انقاذه من كونه مخادعـا نتيجة لما يضمره من حب لآجنس (هذه هى طريقة علم الجمال فى القيام بعملية انقاذ ، وهى طريقة تدور دائما حول النقطة الرئيسية التى هى استمرار حياة الفرانق) ، فاذا مضت الأمور على هذا المنوال ، يكون انقاذه قـد تم فعلا ، فهو ينقـذ بقدر ما ينكشف من أمره . ثم يتزوج آجنس . ومع ذلك ينبغى عليه أن يلجأ الى المفارقة ، لأن الفرد عندما يخرج من « الكلى » بسـبب اقترافه للذنب ، فانه لا يسـتطيع العودة اليه الا بفضـل دخوله ــ بوصفه فردا ــ فى علاقة مطلقة مع المطلق . وهنا سأدلى بملاحظة ازيد بها على ما قلته فى اى نقطة من نقاط المناقشة السابقة * . فالخطيئة ليست هى المباشرة الأولى First immediacy ، ولكنها مباشرة لاحقة . وبالخطيئة يكون الفرد بالفعـل أعلى من الكلى (فى اتجاه المفارقـة الشيطانية) ، لأنه تناقض يقع فيه الكلى عندما يفرض نفسـه على إنسـان يفتقر الى الشرط الذى بدونه لا يتم شىء **conditio sine qua non** ولو ان الفلسفة كانت تفكر ضمن ما تفكر فيه من أوهام أخرى أنه قد يحدث لانسان أن يتصرف وفق تعاليمها ــ اذن لأمكن للمرء أن يخرج

---

* امتنعت عمدا فى المناقشة السـابقة عن أى تعرض للخطيئة وحقيقتها . وتشير المناقشة كلها الى ابراهيم ، الذى مازلت أسـتطيع التعرض له بمقولات مباشرة على قدر وسعى فى فهمه . ولكن ، ما تكاد الخطيئة تعلن عن ظهورها حتى يبدأ علم الأخلاق فى الاهتمام بالندم على وجه التحديد ، ذلك لأن الندم هو أعلى تعبير اخلاقى ، ولكنه بالذات من حيث هو كذلك ــ يعـد أعمق تناقض ذاتى فى علم الاخلاق .

من هذه الفكرة بملهاة غريبة . وعلم الأخلاق الذى يتجاهل الخطيئة يعد علما بليدا تمام البلادة ، اما اذا كان يقرر الخطيئة ، فانه فى هذه الحالة يتجاوز نفسه . والفلسفة تدعو الى الغاء المباشر (aufgehoben) وهذا حق تماما ، ولكن ما يجانب الحق فى ذلك هو ان الخطيئة هى المـــآشر فى واقع الامر ، وليس هناك أصدق من أن الايمان فى واقع الامر هــو المباشر immediate .

ومادمت اتحرك فى هذه المجالات فان كل شىء يسير سيرا هينا ، ولكن ما يقال هنا لا يفسر ابراهيم بأى حال من الأحـــوال ، ذلك أن ابراهيم لم يصبح فردا عن طريق الخطيئة ، بل على النقيض كان رجلا صالحا ، ممن اصطفاهم الله . ولهذا لن يظهر التشبيه بابراهيم الا بعد أن يصل الفرد الى النقطة التى يستطيع عندها أن ينجز الكلى ، وعندئذ تكرر المفارقة نفسها .

اما حركات الغرانق فأستطيع أن أفهمها ، على حين لا أستطيع أن أفهم ابراهيم ، ذلك أن الغرانق لا يصل الا عـــن طريق المفارقة بالذات الى نقطة تحقيق « الكلى » . فلو أنه ظل مختفيا ، وأخذ يعانى كل عذابات الندم ، اذن لأصبح شيطانا ، وبهذه الصفة يكون هلاكه محققا . أما اذا ظل مخفيا ، ولم يفكر فى مكر أن تغذيه هو نفسه فى اغلال الندم يجعله قادرا على اطلاق سراح آجنس ، فسيجد السكينة حقا ، ولكنه سيضيع بالنسبة لهذا العالم . أما اذا كشف عن نفسه وسمح لها أن تنقذه آجنس ، اذن لكان أعظم كائن يمكن أن أتصوره ، ذلك لأن الكاتب الجمالى وحده هو الذى يفكر فى نزق أنه يمجد سلطان الحب حين يجعل الرجل الضائع محبوبا من فتاة بريئة ، ومن ثم تتم نجاته ، والكاتب الجمالى وحده هو الذى يضل بصره ، فيعتقـــد أن الفتاة هى البطلة ، بدلا من أن يكون الرجل هو البطل . وهكذا لا يستطيع الغرانق أن ينتمى الى آجنس الا اذا قام بالحركة اللامتناهية ، حركة الندم ، وتبقى حركة واحدة أخرى يقوم بها بفضل اللامعقول . وهو قادر على القيام بحركة الندم مستعينا بقوته الخاصة ، ولكنه فى سبيل

ذلك يستخدم كل قواه بصورة مطلقة ، ومن ثم لا يستطيع بقوته الخاصة أن يعود فيمسك بالواقع . فاذا كان للرجل ما يكفى من العاطفة للاقدام على هذه الحركة أو تلك ، فانه يتخبط خلال الحياة ، نادما ندما قليلا ، معتقدا أن ما تبقى سيعنى بنفسه — فقد تخلى الى الأبد عن بذل المجهود الذى يجعله يحيا فى الفكرة — وعندئذ يستطيع فى يسر أن يبلغ ، وأن يساعد الآخرين على أن يبلغوا أسمى الغايات ، أعنى أن يخدع نفسه وأن يخدع الآخرين بفكرة أن كل شىء فى عالم الروح يسير كما تسير الأمور فى لعبة الورق المعروفة التى يعتمد كل شىء فيها على المصادفة . وعلى هذا يستطيع المرء أن يروح عن نفسه بالتفكير كم هو غريب فى عصرنا بالذات ان يكون كل انسان قادرا على انجاز أسمى الآشياء ، ومع ذلك ينتشر الشك فى خلود الروح هذا الانتشار الواسع ، ذلك لأن الانسان الذى أقدم حقا على حركة اللامتناهى لا يمكن ان يكون شاكا . ونتائج العاطفة هى وحدها النتائج الموثوق بها ، أعنى النتائج الوحيدة المقنعة . ولحسن الحظ ، فان الوجود فى هذا المثل أكثر عطفا ، وأشد اخلاصا عما يعتقد الحكماء ، لانه لا يستبعد أى انسان ، ولو كان أشد الناس وضاعة ، ولا يخدع أحدا لان من ينخدع فى عالم الروح هو وحده ذلك الذى يخدع نفسه .

وفى رأى الجميع ، وفى رأيى أنا أيضا اذا تجاسرت فسمحت لنفسى باصدار حكم — أن دخول الدير ليس أسمى شىء ، ولكن مع هذا كله ، لست أرى بحال من الآحوال انه فى عصرنا عندما لا يدخل أحدالدير أن كل انسان يكون اعظم من الأرواح العميقة الجادة التى تجد الاستقرار فى الدير . كم من الناس فى عصرنا يتمتعون بما يكفى من العاطفة لكى تخطر لهم هذه الفكرة ، ثم ليحكموا بأنفسهم فى أمانة ؟ مجرد هذه الفكرة التى تجعل ضمير الانسان مسئولا عن الوقت ، والتى تمنحه الوقت ليرتاد بيقظة المؤرقة كل فكرة مستسرة ، بحيث ان كل لحظة تمر دون أن يقوم بالحركة بفضل أسمى وأقدس ما فى الانسان ، فى هذه الحالة يكتشف * المرء فى قلق وفزع ، وبالقلق نفسه ،أن لم

---

* الناس لا يؤمنون بهذا فى عصرنا الجاد ، ومع ذلك فان من الاشياء الجديرة بالملاحظة انه حتىفى الوثنية التى تعد أميلالى التساهل=

يكن ذلك بطريقة أخرى ، يكتشف ، ويغرى باخراج الليبيدو (٧٨) المظلم المستتر فى كل حياة انسانية ؛ على حين أن العكس هو ما يحدث عندما يعيش المرء فى مجتمع مع الآخرين ، فانه ينسى بسهولة ، ويتساهل فى يسر ، ويجد من يسانده بطرق شتى ، وتتاح له الفرصة للبدء من جديد — مجرد هذه الفكرة ، اذا تم تصورها بما يناسبها من احترام ، فانها على ما أفترض — ستعمل على تهذيب كثير من الأفراد فى عصرنا الذى يتخيل أنه بلغ بالفعل أسمى الغايات . بيد أن الناس لا يشغلون أنفسهم الا قليلا بهذا الأمر فى عصرنا الذى بلغ أسمى الغايات ، على حين أن الحقيقة هى انه ما من عصر وقع فريسة لما هو هزلى كما وقع هذا العصر ، ومما يستعصى على الفهم أيضا أن هذا العصر لم ينجب فعلا عن طريق التوليد دون زواج generatio eaquivoca — بطله الخاص به ، الجنى الذى يمكن أن ينتج دون أن يساوره أدنى ندم ذلك المشهد المروع بأن يجعل العصر كله يضحك ، ويجعله ينسى أنه يضحك على نفسه . والا ففيم يصلح العصر ان لم يكن للضحك عليه ، اذا كان الشباب الذين لم يتجاوزوا العشرينات من أعمارهم قد وصلوا بالفعل الى أقصى ما يمكن الوصول اليه ؟ وفوق هذا كله ، ما أسمى العاطفة التى عثر عليها العصر مادام الناس قد أعرضوا عن دخول الدير ؟ أليس حرصا يدعو الى الرثاء ، وحصافة ، وجبنا ، ذلك الذى وجده العصر ، متربعا على أعلى الأماكن ، رعديدا حين يجعل الناس يعتقدون انهم انجزوا أعظم الاشياء — على حين يمسكهم — فى غدر تام — عن محاولة الاتيان بأتفه الاشياء ؟ فالانسان الذى أقدم على حركة — الدير (أى دخول الدير) ، لم تتبق له سوى حركة أخرى يقدم عليها ، هى حركة اللامعقول . كم من الناس فى عصرنا يفهمون ما هو اللامعقول ؟

= وأقل استغراقا فى التأمل ، الح أبرز شخصيتين يمثلان الشعار الاغريقى « اعرف نفسك » بوصفه تصورا للوجود الى أن الانسان اذا غاص عميقا داخل نفسه ، فسوف يكتشف أول ما يكتشف استعداده لارتكاب الشر . ولست فى حاجة بالطبع الى القول بأننى افكر فى فيثاغورس وسقراط .

كم من معاصرينا يعيشون بحيث يكونون قد تخلوا عـــن كل شيء ، او كسبوا كل شيء ؟ كم من الناس بلغوا حتى من الأمانة مع انفسهم بحيث يعلمون ما يستطيعون أن يفعلوا وما لا يستطيعون ؟ واليس من الصـــدق أن المرء عندما يعثر على مثل هؤلاء الناس فانه يعثر عليهم بين من هم اقـــل حظـــا من الثقـــافة ، وجزء منهم من النســـــاء ؟ ان العصر يكشف فى نوع من شفافية البصيرة نقطة ضعفه ، مثلمـــا يكشف الشيطانى نفسه دائما دون أن يفهم نفسه ، ذلك لأنه يطالب دائما وأبدا بالهزلى . فان كان هذا هو ما يحتاجه العصر حقا ، اذن لكان المسرح فى حاجة الى مسرحية جديدة تتخذ من رجل قتله الحب موضوعا للضحك ـــ أو ربما كان من المفيد لهذا العصر أن يحدث مثل هـــذا الشيء بيننا ، ان كان لابد أن يشهد العصر مثل هـــذه الواقعة ، وذلك حتى يكتسب ـــ ولو مرة ـــ الشجاعة على الايمان بقوة الروح ، الشجاعة على الكف عن اطفاء الدوافع الحسنة فى انفسنا بضرب من الجبن الشديد ، واخماد دوافع الآخرين الحسنة بضرب من الحسد ... وذلك بواسطة الضحك ؟ هل يحتاج العصر حقا الى معرض هزلى يقيمه متحمس دينى حتى يتيسر لنا شيء نضحك منه ، أو أنه يحتاج بالأحرى الى مثل هذه الشخصية المتحمسة ليذكره بما قد نسيه ؟

ولو اراد المرء ان يؤلف قصة مكتوبة حـــول موضوع مماثل ، على ان تكون اشد تأثيرا لأن عاطفة الندم لم تكن قد استيقظت بعد ، فانه يستطيـــع أن يلجأ الى حكاية يرويها سفر طوبيت Tob it (*) لاحداث هذا التأثير . فقد أراد الشاب طوبيا Tobias أن يتزوج ساره ابنة راجويل Raguel وادنا Edna . غير أن نحســا مشئوما كان معلقا بمصير هـــذه الفتاة ، فقد دخلت بسبعة أزواج ، ماتـــوا جميعا الواحـــد اثر الآخر فى غرفة العروس . غير أن هذا الملمح يعد عيبا شـــائنا فى

(*) من الاسفار المنحولة التى لا توجد منها الآن نسخة باللغة العربية . والحكاية التى يضمها السفر ذات طابع تربوى . (ف.ك) .

القصة بالنظر الى ما وضعته لها من خطة ؛ ذلك أن المرء لا يستطيع أن يقاوم الأثر الهزلى الذى تحدثه فكرة سبع محاولات عقيمة للزواج ، مع اقتراب العروس الشديد من تحقيق هذا الأمل — اقترابا أشبه باقتراب الطالب الذى أخفق سبع مرات فى الحصول على دبلومه . أما فى سفر « طوبيت » ، فان التركيز يقع على نقطة مختلفة ، ومن ثم فان للشخصية ذات المقام الرفيع دلالة ، كما أنها تسهم — بمعنى ما — فى التأثير الفاجع ، اذ تعزز من شجاعة « طوبيا » الجدير بالتنويه نظرا لأنه الابن الوحيد لأبويه (٦ : ١٤) ، ونظرا لأن العائق كان شديد الغرابة . ولهذا ينبغى أن نستبعد هذه السمة من القصة . وقد كانت ساره عذراء لم تعرف الحب قط ، تدخر النعمة الكبرى التى تملكها العذراء ، أول رهن هائل لها ترتهنه على الحياة ، وصك الائتمان على السعادة (٧٩) ، والامتياز الممنوح لها بأن تحب رجلا بكل قلبها . ومع ذلك ، فهى أتعس العذراوات طرا ، فهى تعلم أن الجنى الشرير الذى يحبها سيقتل العريس ليلة الزفاف . وما أكثر ما قرأت عن الأحزان ، ولكنى أشك فى وجود حزن أعمق من الحزن الذى نكتشفه فى حياة هذه الفتاة . ومهما يكن من أمر ، فلو أن المصيبة تأتى من الخارج ، لكان من الممكن أن نجد — على كل حال — شيئا من العزاء . ومع أن الوجود لا يجلب للمرء ما يمكن أن يجعله سعيدا ، فمازال هناك شىء من العزاء فى التفكير بأن الانسان كان قادرا على تلقى المصيبة . أما الحزن الذى لا سبيل الى سبر غوره والذى لا يستطيع الزمن أن يسرى عنه أبدا ، ولا يستطيع شفاءه أبدا فهو معرفة ألا جدوى مطلقا حتى لو فعل الوجود كل شىء ! وهناك كاتب اغريقى يخفى الكثير بما لا نهاية له ببساطته البسيطة حين يقول : « لأن أحدا لم يفلت أبدا من الحب ، ولن يفلت وعيون ترى هذا الجمال . أحد مادام هناك جمال (رعويات لونجوس) (Longi Pastoralia) (٨٠) .

وكم من فتاة كان الشقاء نصيبها فى الحب ، ولكنها « صارت » شقية ، أما سارة فقد كانت شقية « قبل » أن تصبح كذلك . وكم يشق على الفتاة ألا تجد الرجل الذى تستطيع أن تستسلم له فى تفان تام ، ولكن أصعب

من ذلك كثيرا الا يكون فى مقدورها الاستسلام على الاطلاق . فهذه فتاة تسلم نفسها ، فيقولون عنها : « الآن ، لم تعد حرة » ، أما ساره ، فلم تكن حرة ابدا ، ولكنها مع ذلك لم تسلم نفسها قط . ومن الصعب أن تسلم فتاة نفسها ، ثم تكون ضحية للغش(٨١) ، أما ساره فقد خدعت قبل تسليم نفسها . أى عالم من الحزن انطوت عليه الأحداث التى أعقبت ذلك ، عندما أراد طوبيا أخيرا أن يتزوج ساره ! ويالها من حفلات للزفاف ! ويالها من استعدادات ! ما من عذراء خدعت كما خدعت ساره ، لأنها خدعت من قبل أقدس الأشياء جميعا ، الثروة المطلقة التى تمتلكها حتى افقر الفتيات ، خدعت من تفانى التسليم الآمن غير المحدود ، غير المقيد ، المنطلق العنان — فلابد أولا من عملية تدخين بوضع قلب السمكة وكبدها على جمرات مشتعلة . وتخيل كيف ودعت الأم ابنتها ، تلك الابنه التى كانت أشد الناس تعرضا للخداع ، ومع ذلك كان عليها — استمرارا لهذا كله — أن تخدع أمها فى أجمل ما تملكه . وما عليك الا أن تقرأ القصة : « أعدت ادنا الحجرة ، وأحضرت ساره اليها ، وانتحبت ، وتلقت دموع ابنتها . وقالت لها : فلتنزل السكينة على قلبك يا طفلتى ، فلقد منحك رب السموات والارض الفرح ولهذا تحزنين ! كونى شجاعة يا ابنتى » . ثم حانت لحظة الزفاف ! فليقرؤها المرء أن استطاع من خلال دموعه . « ولكن ، عندما خلا كل منهما الى الآخر ، نهض طوبيا من السرير وقال : « أختى ، انهضى ، ودعينا نصلى لكى يرحمنا الرب » (٨ : ٤) .

فلو أن شاعرا قرأ هذه الحكاية ، وقرر أن يستخدمها ، فنا أراهن بمائة الى واحد بأنه سيضع تركيزه كله على الشاب « طوبيا » . فشجاعته البطولية التى تتمثل فى استعداده للمجازفة بحياته فى مثل هذا الخطر الجلى — الذى تستحضره القصة مرة أخرى . اذ يقول راجويل لاحفاده صبيحة ليلة الزفاف ، « ابعثى بواحدة من الوصيفات ودعيها ترى ان كان حيا ، فان لم يكن حيا ، فمنا بدفنه دون أن يعلم احد » (٨ : ١٢) — هذه الشجاعة البطولية ستكون الموضوع الذى يتخذه الشاعر . أما

انا ، فأتقدم باقتراح آخــر : لقد تصرف طوبيا فى شجاعة ، ورباطة جأش ، وشهامة ، ولكن أى رجــل لا يتحلى بالشجاعة فى مثل هــذا الموقف فلـن يكون الا شخصا مخنثا لا يعـرف ما هو الحب ، أو معنى أن يكون رجـلا ، أو الشىء الجدير بأن يحيـا المرء من اجله ، بل انه لم يفهم حتى ذلك السر الصغير ، وهو أن البذل أفضل من الأخــذ ، كما انه لا يشعر بأى ميل الى السر الأعظم ، وهو أن الأخــذ أصعب كثيرا من العطـاء ـ أعنى اذا كان للمرء الشجاعة أن يفعل بدونه ، وفى ساعة الشدة لا يصير جبانا . كلا، ان ساره هى البطلة . وانى لاود الدنو منها كما لم أدن مـن اية فتاة اخرى او احسست داخل نفسى برغبة فى الدنو من اية فتـاة قرأت عنها . فيـا له من حب عظيم لله ذلك الذى يقتضيه الاستعداد لأن يدع الانسان نفسه للشـفاء حين تشـوه صورته منذ البداية دون ذنب جنـاه ، وحين يكون منذ البداية عينة مجهضة من البشرية(٨٢) ! أى نضج اخـلاقى كان مطلوبا لتحمل المسئولية فى أن يقـدم المحبوب على هـذه الفعلة الجسور ! وأى مذلة ازاء وجه الشخص الآخـر ! وأى ايمان أن تؤمن بأنهـا فى اللحظة التـالية لـن تمقت الزوج الذى تدين له بكل شىء !

هب أن سارة كانت رجلا ، حينئذ سيكون ما هو شيطانى **demoncial** فى متناول اليـد . فالطبيعة النبيلة ذات الكبرياء تستطيع ان تتحمل كل شىء ، غـير أن شيئا واحـدا لا تستطيع احتماله ، وهـذا الشىء هـو الشفقة ، فهذه الشفقة تنطوى على نـوع من المهانة التى لا يمكن ان تقضى بها على المرء الا سلطة أعلى ، لأن الانسان لا يمكن أن يصبح من تلقاء نفسه موضوعا للشفقة . فلو وقـع انسان فى الخطيئة ، فانه يستطيع أن يتحمل العقاب عليها دون أن ينوشه اليأس ، أما أن ينتزع ـ دون أن يأتى مـا يستحق اللوم ـ من حضن أمه كتضحية للشفقة ، وكنكهة عذبة الرائحـة فى منخريها ، فهـذا ما لا يطيقه . وللشفقة جـدل (ديالكتيك) عجيب ، فهى فى لحظة تتطلب الذنب ، وفى اللحظة التالية ترفضه ، وهكذا أن يكون مقدرا على الشخص أن يتعرض للشفقة أمـر يزداد بشاعة بقـدر ما تـكون مصيبته فى اتجـاه ما هو روحى . بيد أن ساره لا يلحق بها اى لوم ، وما

هـــذا يلقى بها فريسة لكل عذاب ، وبالاضافة الى هذا كله عليها أن تتحمل عذاب الشفقة ــ فحتى أنا الذى أعجب بها اعجابا يفـــوق حب طوبيا لها ، حتى انا لا استطيع أن اذكر اسمها دون أن أهتف : « يا للفتاة المسكينة ! » ضع رجلا فى مكان ســـاره واخبره أنه فى حالة حبه لفتاة ، فسوف تأتى روح من الجحيم لاغتيال محبوبته ــ ربما كان من الممكن حينئذ أن يختار الجانب الشيطانى ، وأن يغلق على نفسه داخل نفسه ، وأن يقـــول سرا على النحو الذى تحدث به الطبيعة الشيطانية نفسها : « شكرا جزيلا ، لست من انصار العبارات اللبقة المسهبة ، ولست فى حاجة على الاطلاق لمتعة الحب ، ويمكن أن أصبح سفاحا للنســـاء ، فأجد متعتى فى رؤية العذارى يلاقين حتفهن فى ليلة زفافهن » . والمرء لا يسمع عادة الا قليلا عن « الشيطانى » ، وان يكن لهـــذا الميدان ــ ولاسيما فى عصرنا الحاضر ــ حق المطالبة بالكشف عنه ــ وعلى الرغم من أن الملاحظ ــ فى حالة قدرته على أن يكون على صلة ولو ضئيلة بالشيطان ــ يستطيع أن يستغل كل انسان تقريبا لهـــذا الغرض من حين الى حين على أقل تقدير . ولقد كان شكسبير بوصفه هذا الرائد ــ بطلا ، وسيظل كذلك باستمرار . وهذا الشيطان الرهيب ، أشد الشخصيات شيطانية التى صورها شكسبير ، وصورها على نحـــو لا يضارع ــ اعنى دوق جلوسستر Duke of Glaucester (الذى أصبح فيما بعـــد رتشارد الثالث) ــ ما الذى جعله شيطانا ؟ من الجلى أنها تلك الشفقة التى لم يكن يتحملهـــا والتى فرضت عليه منـــذ الطفولة . والمناجاة (المونولوج) التى كتبها فى الفصل الأول من « رتشارد الثالث » اروع من كل المذاهب الأخلاقية التى لا تدرى شيئا عن فظائع الوجود أو عن تفسيرها .

أنا ، ذلك المنسحق انسحاقا يخلو من كل رحمة
ومع ذلك يصبو الى صاحب الجلالة الحب
لكى يختتال امـــام حورية لعوب متبخترة ؛
ولمـــا يكتمل نصف خلقتى بعد ،
شائه الخلقة ، غير مكتمل ، مرسل قبل أوانى
وخدعتنى الطبيعة المخاتلة حين صاغت ملامحى ،
الى هذا العالم المتنفس

وانى لمن العرج والبعد عن الأناقة
وانى لمن العرج والبعد عن الأناقة
حتى لتنبحنى الكلاب حين أعبر بها
ظالعـــا فى مشيتى .

مثل هذه الطبائع المشابهة لجلوسستر لا يمكن للمرء أن ينقذها بأن يجعلها تتوسط فكرة عن المجتمع . والواقع أن علم الأخـــلاق يتلاعب بهـــا ، تماما كما يمكن أن تصبح ساره هزؤة أضحوكة لو قال لها علم الاخـــلاق ، « لماذا لا تعبرين عن الكلى ، وتقبلين الزواج ؟ » مثل هـــذه الطبائع تجيـــا — جوهريا — فى المفارقة ، وليست اشد نقصا عن غـــيرها من الناس ، ولكنها اما أن تضيع فى المفارقة الشيطانية أو تنجـــو بارتفاعها الى الالهى. وقد كان الناس منـــذ أزمان موغلة فى القـــدم يسرهم اعتقاد بأن الساحرات والغيلان والاقزام ... الخ . مخلوقات شائهة ، ولا سبيل الى انكار أن كل من تقع عيناه على شخص مشوه يميل على الفـــور بالربط بين هذا التشويه وبين الانحطاط الخلقى . فياله من ظلم بشع ! اذ الاولى أن يكون الموقف معكوسا ، بمعنى أن الوجود نفسه هو الذى أفسدهم ، على النحو نفسه الذى تجعـــل به زوجة الأب من أبناء زوجها اشرارا ! ان واقعة عـــزل الانسان أصلا خارج الكلى ، سواء بواسطة الطبيعة أو الظروف التاريخية ، هذه الواقعة هى بداية الشيطانى ، ولا يلام الفـــرد نفسه عليها بحـــال من الاحـــوال . ومن هذه الشاكله أيضـــا اليهودى الـــذى صـــور شخصيته كمبرلاند(٨٣) Cumberland ، فهو شيطان وان كان يفعل ما هـــو خـــير. كما يمكن أن يعبر الشيطانى عن نفسه على هيئة احتقار للناس — احتقار لا يجعل الشخص يتصرف باحتقار — وهذا ما ينبغى ملاحظته — مادام — على العكس — يعـــد من أسباب قوته أنه أفضل من الذين يدينهم جميعـــا . وعلى الشعراء بالنظر الى مثل هذه الحالات — أن يدقـــوا جرس الانذار . ويعلم الله أى كتب يقرؤها الآن الجيل الأصغر من صناع الشعر ! فمـــن المرجح أن دراستهم تقوم على استظهار القوافى دون فهم ! والله وحـــده يعلم الدلالة التى يتمتع بها هؤلاء الناس فى الوجود ! ولا أعـــرف فى هـــذه اللحظة أى نفع يرجى منهم ، اللهم الا أنهم يقدمون دليلا أساسيا على خلود الروح ، اذ يستطيع المرء أن يقول عنهم ما قاله باجيزن(٨٤) **Baggesen**

عن شاعر مدينتنا كيلدفال Kildevalle : « لو كان خالدا ، اذن لكنا جميعا كذلك » . وما قيل هنا عن ساره ، كضرب من الانتاج الشعرى ولهذا ينطوى على افتراض خيالى — يكتسب دلالته الكاملة اذا غاص شخص يتمتع بشىء من الاهتمام النفسى — الى أعماق المعنى الذى يشير اليه المثل القديم : «لم توجد قط عبقرية عظيمة دون أن يخالطها شىء من الجنون»(٨٥) . وهذا الجنون هو العذاب الذى خصت به العبقريةفى الوجود ، ، انه تعبير — ان صح هذا القول — عن الغيرة الالهية ، على حين أن هبة العبقرية تعبير عن الفضل الالهى . وهكذا تضل العبقرية منذ البداية فى علاقتها بالكلى ، وتتحول الى علاقة بالمفارقة — سواء أكان ذلك عن يأس من محدوديته (التى تعمل على تحويل قدرته الشاملة الى عجز فى نظره) يدفعه الى البحث عن طمأنينة شيطانية ، ومن ثم لا يسلم بهذه المحدودية أمام الله أو أمام الناس ، أم يعيد الاطمئنان الى نفسه دينيا بمحبة الله . وهنا نتعرض لموضوعات نفسية يمكن أن يضحى المرء فى سبيلها بحياة بأكملها عن طيب خاطر — ومع ذلك نادرا ما يسمع عنها المرء كلمة واحدة(٨٦) . ما العلاقة بين الجنون والعبقرية ؟ هل نستطيع أن نقوم بتركيب الواحدة من الأخرى ؟ وبأى معنى ، والى أى مدى يمكن للعبقرى أن يسيطر على جنونه؟ فلا حاجة بنا الى القول بأنه يسيطر عليه الى حد ما ، والا كان مجنونا بالفعل . والقيام بمثل هذه الملاحظات يتطلب على كل حال درجة عالية من البراعة ، ومن الحب ، ذلك أن ابداء الملاحظات عن عقلية أعلى — أمر عسير كل العسر . فاذا وعى المرء هذه الصعوبة جيدا ، وطالع مؤلفات كتاب معينين اشتهروا بعبقريتهم ، فقد يكون الأمر ممكنا فى مجرد مثل مفرد أن يكتشف المرء شيئا قليلا ، بكثير من العناء .

مازالت هناك حالة أخرى أريد أن أفحصها ، وهى حالة فرد كان يمكن بتخفيه وصمته أن ينقذ « الكلى » Universal ، ولهذا الفرض استخدم أسطورة فاوست(٨٧) . كان فاوست شاكا* ، أقنوما من الأقانيم

---

* اذا آثر المرء الا يستخدم شاكا ، فانه يستطيع أن يختار شخصية شخصية مشابهة ، شخصا ساخرا — مثلا — اكتشفت بصيرته الثاقبة الجانب اساسا فى الوجود ، والذى بتفاهمه الخفى مع قوى الحياة يتحقق مما يتمناه المريض . فهو يعلم انه يملك القدرة على الضحك اذا شاء أن يستخدمها =

. . . .

= وهو على يقين من النصر ، بل من حظه السعيد أيضا . ويعلم ان صوتا فرديا سيرتفع بالمقاومة ، ولكنه يعلم انه أقــوي . ويعلم أن المرء مازال يستطيع فى لحظـــة أن يكون سببا فى أن يبـــدو الناس جادين ، ولكنه يعلم أيضا انهم يشتاقون أن يضحكون معه على انفـــراد ، ويعلم أيضا ان المــــرء مازال ستطيع للحظة واحـــدة أن يكون سببا فى أن تضع امرأة مروحتها أمام عينيها عندما يتحدث ، ولكنه يعلم انها تضحك خلف المروحـــة ، وان المروحـــة ليست مانعة تماما للرؤية ، ويعلم أن المرء يستطيع أن يكتب عليها كتابة غير مرئية ، ويعلم أنه حينما تربت عليه امرأة بمروحتها فذلك لأنها فهمته ، ويعلم دون ادنى خداع كيف يتسلل الضحك ،وكيف يقبع فى كمين منتظرا بعد ان يكون قد استقر مكانه ، دعنا نتخيل شخصـــا كاريستوفان ، أو كفولتير ، مع تعديل طفيف ، ذلك لأنه فى الوقت نفسه طبيعة متعاطفة ، فهو يحب الوجود ، ويحب الناس ، وهو يعلم أنه حتى لو كان تأنيب الضحك قد يربى جنسا شابا تم انقاذه ، الا أنه فى الجيل المعاصر سيتحطم عـــدد كبير من الناس . ولهذا فانه يلزم الصمت وينسى على قـــدر ما فى وسـعه كيف يضحك.

ولكن هل يجرؤ على التزام الصمت ؟ لعل هنـــاك عديدا من الاشخاص الذين لا يفهمون الصعوبة التى تدور فى ذهنى بحـــال من الاحوال . والارجح أنهم مـــن الرأى القائل بأن التزام الصمت فعل من أفعال الشهامة يدعـــو الى الاعجاب . ولست من هـــذا الرأى على الاطلاق ، لأننى أعتقد أن كل شخصية على هذه الشاكلة ، ان لم تكن من الشهامة بحيث تلتزم الصمت ، فانها تكون خائنة للوجود . ولهذا أطلب منه تلك الشهامة ، ولكن اذا امتلكها هل سيجرؤ على التزام الصمت ؟ ان علم الاخـــلاق علم خطر ، وربما كان من الممكن أن ارستوفان كان مدفوعا باعتبارات أخلاقية صرف فى اعتزامه تأنيب عصره الضـــال متوسلا بالضحك ، والشهامة الجمالية لا تساعد (على حل هذه المشكلة وهى : هل ينبغى على المرء التزام الصمت ؟) ، لأنه على أساس هذا الضمان لا يقدم الانسان على مثـــل هـــذه المجازفة ولو التزام الصمت، فلابـــد أن يقتحم المفارقة . — ومازال فى جعبتى خطة أخـــرى للقصـــة . هب أن رجـــلا — على سبيل المثال — يمتلك تفسيرا لحياة بطولية يفسرهـــا على نحـــو حزين ، ومع ذلك يستقر جيل بأكمله آمنا فى ايمان مطلق بهـــذا البطل دون ان يساوره أي اشتباه فى شيء من هذا القبيل .

المعادية للروح ، فلا يختار الا طريق الجسد . وهـذا ما يعنيه الشـاعر بها (أى بتلك الاسطورة) ، ومع ما يتردد دائما مرة بعدأخـرى من أن لكل عصر فاوست خاصبه ، الا أن الشعراء يتبعون بعضهم بعضا دون كلل في نفس الطريق المطروق . فلندخل اذن تعديلا طفيفا . فاوست هو الشاك بلا منازع ، ولكنه ذو طبيعة جذابة متعاطفة . وحتى فى تفسير جيته لفاوست أحس بافتقار الى بصيرة نفسية أعمق للنفاذ الى المحادثات السرية التـى أجراها الشك مع نفسه . وفى عصرنا ، حيث عانى الجميع من الشك — بلا شك — ما من شاعر واحـد تقدم خطوة واحـدة فى هـذا الاتجاه . ومن ثم ، يحسن بى أن أقدم لهم بوالص « التأمينات الملكية »(٨٨) للكتابة عليهـا ، حتى يكتبوا فيها كل خبرتهم فى هذا المجال — ولن يكتبوا أكثر من المكان المتاح لهم فى هامش اليد اليسرى .

وعندما يعيـد المرء فاوست على هـذا النحو ليصب فى نفسه مـن جديد ، فى هـذه الحالة وحـدها يمكن أن يبدو الشك شاعريا ، وفى هـذه الحالة وحـدها أيضا سيكتشف هو نفسه فى الواقع كل آلامه . وسيعلم أن الروح هى التى تساند الوجود ، ولكنه سيعلم أيضا حينذاك أن الامن والفرح اللذين يعيش فيهما الناس لا يقومان على سلطان الروح ، ولكن من السهل تفسيرهما بأنهما سـعادة تخلو من التفكير . وبوصفه شاكا ، بـل بوصفـه الشاك بلا منازع ، فانه يعـد اعلى من كل هـذا ، وان كان لأحـد أن يخدعه بأن يجعله يعتقـد بأنه اجتاز دورة تدريبية فى الشك ، فانه يستطيع على الفور ان ينفـذ ببصيرته فى هـذا الخداع ، ذلك لان الانسـان الـذى اقـدم على حركة فى عالم الروح ، ومن ثم فهى حركة لا متناهية ، يستطيع على الفور أن يسمع خلال الكلمة المنطوقة هل الشخص الذى صدرت عنـه شخص محنك مجرب . او مجـرد شخص تافه . ومـا استطاع تامبرلين Tamberlane أن يحققه بواسطة رجاله من الهون Huns ، يستطيع فاوست أن يحققه عن طريق شكه : أن يخيف الناس رعبـا . أن يجعـل الوجـود يميد تحت أقدامهم ، أن يشتت الناس فى الخـارج ، أن يجعـل صيحات الفزع مسموعة فى كل الأرجاء ، فاذا فعل ذلك ، لم يـكن تامبرلين على كل حال ، انه مسوغ بمعنى ما ، ويمتلك مسوغات الفكر . غير أن فاوست طبيعة متعاطفة ، فهو يحب الوجود ، وروحه لا تألف الحسد ، وهو يدرك

انه عاجز عن كبح جماح السخط الذى يستطيع اثارته ، كما انه لا يريد أى تكريم هيروستراتى(٨٩) — ولهذا يخلد الى الصمت ، ويخفى الشك فى نفسه بحرص أشد من حرص الفتاة التى تخفى فى أحشائها ثمرة حب آثم ، وهو يجتهد بكل وسعه لكى تتمشى خطواته مع خطوات الآخرين ، أما ما يجرى داخل نفسه فانه يحترق به داخل روحه ، وبهذا يقدم نفسه قربانا على مذبح الكلى .

وعندما يثير عقل غريب الاطوار دوامة من الشك ، يسمع المرء الناس يقولون أحيانا « أما كان أحرى به أن يلتزم الصمت » . وفاوست يحقق هذه الفكرة . ومن كان لديه تصور عن معنى الحياة على الروح يعلم أيضا معنى التعطش الى الشك ، وأن الشاك يجوع الى خبز الحياة اليومى مثلما يجوع الى غذاء الروح . ومع أن كل الآلام التى عاناها فاوست يمكن أن تكون حجة قوية على أن الشىء الذى استولى عليه لم يكن الكبرياء ، فاننى لكى أختبر هذه الحجة مزيدا من الاختبار سأستخدم حيلة احتياطية صغيرة اخترعتها فى يسر شديد . فمثلما أطلق على جريجورى أوف ريمينى **Gregory of Rimini** لقب « جلاد الاطفال » **tortor infantium** لانه اعتنق الرأى القائل بادانة الاطفال ، كذلك أرانى مدفوعا الى تسمية نفسى « جلاد الأبطال » tortor heroeum ، اذ أكون شديد الاختراع عندما يتعلق الأمر بتعذيب الابطال . وفاوست يرى مرجريت — لا بعد أن وقع اختياره على المتعة ، لأن فاوست الذى ينتمى الى لا يختار المتعة — انه يشاهد مرجريت لا فى مرآة ميفيستوفلي **Mephistopheles** المقعرة ، ولكن بكل براءتها المحببة ، ولما كانت روحه قد احتفظت بحبه للجنس البشرى ، فانه من الممكن أن يقع فى غرامها تماما . ولكنه شاك ، وقد ألغى شكه الواقع بالنسبة اليه ، ذلك أن فاوست الذى اخترعته مثالى الى درجة انه لا ينتمى الى أولئك الشكاك العلميين الذين يشكون ساعة كل نصف سنة دراسية وهم فى كرسى الاستاذية ، وان كانوا فى غير ذلك من الأوقات يستطيعون أن يفعلوا أى شىء آخر ، لأنهم يفعلون ذلك حقا (أى يتشككون) دون أى سند من الروح ، أو بفضل الروح . فاوست شاك ، والشاك يجوع الى خبز الفرح اليومى مثلما يطلب غذاء الروح . ولكنه

يظل — على كل حال — صادقا فى عزمه ، فيلتزم بالصمت ، ولا يفضى بشكه الى أحــد ، ولايبوح بحبه لمرجريت .

ولا حاجة بنا الى القــول ان فاوست شخصية مثالية بحيث لا يمكن أن يقتنع بذلك الهذر الذى يرى أنه اذا تكلم فســوف يتيح الفرصة لاثـارة مناقشـة عادية ، وستمر المسألة كلها دون أية عواقب — او ربما ، أو ربما .. (وهنــا — كما يستطيع كل شاعر ان يرى فى يسر ، يكمن عنصر الملهاة فى الخطة ، مهــددا بوضـع فاوست فى علاقة تهكمية مع اولئك الحمقى اصحاب الملهاة الرخيصة الذين يجرون فى عصرنا وراء الشك ويتقدمون بحجة خارجية مثــل درجة الدكتوراه ليثبتوا بها انهم قد شكوا حقا ، أو يحلفون بأنهم قــد شكوا فى كل شىء ، أو يثبتون ذلك بأنهم التقوا فى احدى الرحلات بشخص من الشكاك — هؤلاء الرسل الذين يركبون القطار السريع ، والمشتركون فى مسابقات الجرى فى عالم الروح ، والذين فى تسرعهم الشديد يختطفون لمحة ضئيلة من الشك من أحــد الاشخاص ، ويختطفون من شخص آخر لمحة هزيلة من الايمان ، ثم يحيلونها الى افضل ما يمكن أن يصنعوه منها حسب ما يريده المجمع : ان كان رملا ناعما ، أو رملا خشنا)(٩١) — ان فاوست شخصة مثالية بحيث لا يسير بالخف الخاص بالسجاد . ومن لم يكن يتمتع بعاطفة لا متناهية ، فليس مثاليا ، ومن كانت له عاطفة مثالية ، فقــد أنقــذ روحــه منذ أمــد طويل من مثــل هذا الهراء . انه يلتزم بالصمت ويضحى بنفســه / أو يبوح وهو يشعر بأنه سيخلط بين كل شىء .

فلو أنه اخلد الى الصمت ، فسوف يدينه علم الأخلاق ، اذ يقول : « سوف تعترف بالكلى ، وفى كلامك نفسه اعتراف به ، ولا ينبغى أن تأخذك الشفقة بالكلى » . ولا ينبغى على المرء أن ينسى هذا الاعتبار عندما يصدر أحيانا حكما قاسيا على الشكاك لأنه تكلم . ولست ميالا الى الحكم على هذا السلوك حكما هينا ، ولكن فى هذه الحالة ، كما هو شأن كل الحالات — يتوقف كل شىء على وقوع الحــركات على نحو ســوى . فاذا تأزمت الأمور ، وتسبب الشاك بكلامــه فى انزال كل النكبات الممكنة على العالم ، فانه افضل كثيرا على كل حال من أولئك التعساء اصحاب الأسنان الخربة الذين يتذوقون شيئا قليلا من كل شىء ، والذين يعالجون الشــك دون أن يتعرفوا عليه ،والذين يؤلفون عادة

العلة القريبــة للشــك عندما ينفجر فى وحشية ، وفى ثورة لا سبيل الى كبح جماحها . — انه اذا تحدث ، فسيخلط اذن بين كل شىء — فعلى الرغم من أن هذا لايحدث بالفعل ، فانه لن يعرف ذلك الا فيما بعد ، ولا يمكن ان تساعد النتيجة الانسان سواء فى لحظة الفعل أو فيما يتعلق بمسئوليته .

ولو أنه التزم بالصمت على مسئوليته الخاصة ، لكان بكل يقين — متصرفا بشهامة ، ولكنه يضيف الى آلامه الأخــرى غواية صغيرة ، ذلك لأن الكلى لن يكف عن تعذيبه باستمرار قائلا : « كان ينبغى أن تتكلم . فأين ستجد اليقين فى أنها لم تكن قبل كل شىء كبرياء مستترة هى التى تحكمت فى قرارك ؟ » .

فاذا استطاع الشاك — من ناحية أخرى — أن يصبــح الفرد الجــزئى الذى يقف بوصفه فردا فى علاقة مطلقة مــع المطلق ، اذن لاستطاع أن يحصل على مبرر لصمته . وفى هــذه الحالة يجب عليه أن يحول شكه الى ذنب guilt . ويكون حينئذ داخــل المفارقة ، يبرأ من شكه ، وان انتابه شك آخر .

حتى العهد الجديد New Testament يمكن ان يؤيد مثل هــذا الصمت . فهناك فقرات فى العهد الجديد تشيد بالتهكم — حتى لــو كانت مستخدمة لاخفاء شىء طيب . فهذه الحركة — على كل حال — حركة تهكم خالصة كأية حركة اخرى تتخذ اساسها فى هذه الحقيقة الا وهى أن الذاتية أعلى من الواقع . ولا يريد الناس فى عصرنا أن يستمعوا الى شىء عن هذا الموضوع ، فهم لا يريدون — بوجه عام — أن يعرفــوا عن التهكم اكثر مما قاله هيجل عنه (٩٢) — والعجيب أن هيجل لم يفهم التهكم فهما صحيحا ، بل كان يضمر له نوعا من الضغينة التى لم يتخل عصرنا عنها ، وله عذره القوى فى ذلك ، لأن من الخير له أن يحذر من التهــكم . وقد قيل فى موعظة الجبل : « اما أنت فمتى صمت فادهن راسك ، واغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائما » (انجيل متى : ٦ : ١٧) هذه الفقرة تشهد شهادة مباشرة على هذا الحق ، وهو أن الذاتية لا تقاس بالواقع ، اجل ، وأن من المسموح لهــا أن تخدع .

فلو أن أولئك الناس الذين يتسكعون فى عصرنا بتلك الأقوال المبهمة عن الفكرة المجمعية (٩٣) قرأوا العهد الجديد ، فربمـا اسـتقرت أفكار أخرى داخل رؤوسهم .

ولكن نعـود الآن الى ابراهيم ــ كيف تصرف ؟ فأنا لم أنس ؛ ولعل القارىء الكريم يتذكر أيضا ، أننى بهدف الوصول الى هذه النقطة دخلت فى المناقشة السابقة كلها ــ لا على أمل أن يصبح ابراهيم أكثر وضوحا ، ولكن لكى يصبح عدم الوضوح أكثر تفككا (٩٤) . فابراهيم لا أستطيع أن أفهمه ، كما قلت من قبل ، وليس فى وسعى الا أن أعجب به . كما لوحظ أيضا أن المراحل التى وصفتها لا تتضمن احداهـا أى مماثل لابراهيم . وانما ضربت الأمثلة حتى يكون فى عرضها فى أجوائها الخاصة ، وفى لحظة التباين (مع حالة ابراهيم) ما يشير الى حدود الأرض المجهولة . ولو كان هناك أى تماثل ، اذن فلابد أن نجـده فى مفارقة الخطيئة ، بيد أن هذا يقع فى مجال آخر ، ولا يمكن أن يفسر ابراهيم ، بل ان من الأيسر تفسيره هو نفسه عن تفسير ابراهيم .

وهكذا لم يتحدث ابراهيم ، لم يتحدث الى ساره أو الى اليعازر أو الى اسحق ، وهكذا تخطى ثلاث سلطات اخلاقية ، اذ لم يكن للاخلاقى عند ابراهيم تعبير أعلى من الحياة العائلية .

وعلم الجمال يبيح ، كلا ، بل يقتضى الصمت من الفرد ، حين يعلم انه بالتزامه بالصمت يمكن أن ينقذ شخصا آخر . وهذا بالفعل دليل كاف على ان ابراهيم لا يقـع فى محيط علم الجمال . ذلك أن صـمته لم يكن ينوى على الاطلاق انقاذ اسحق ، وبوجـه عـام ، كانت مهمته كلها التى تتمثل فى تضحيته باسحق من أجل نفسه ، وفى سبيل الله ، اعتداء على علم الجمال ، فعلم الجمال يستطيع أن يفهم جيدا أن أضحى بنفسى ، لا ان أضحى بشخص آخر من اجل نفسى . وقد كان البطل الجمالى صامتا . فأدانة علم الاخلاق ــ على كل حال ــ لأنه كان صامتا بفضل طابعه الجزئى العرضى **accidental** وكانت معرفته الانسانية

المسبقة هى التى حددت له الالتزام بالصمت . وهذه الأخلاقيات لا تستطيع العفو ، لأن كل معرفة من هذا القبيل ليست الا وهما ، وعلم الاخلاق يتطلب حركة لامتناهية ، انها تطلب الكشف . ومن ثم « يستطيع » البطل الجمالى أن يتكلم ، ولكنه لن يفعل .

والبطل المأساوى الأصيل يضحى بنفسه وبكل ما يتعلق به فى سبيل الكلى ، فكل افعاله ، وكل عواطفه تنتمى الى الكلى ، وهو مكشوف ، وفى هذا الكشف الذاتى **Self-revelation** يرى فيه علم الأخلاق ابنه الحبيب . وهذا كله لا يلائم حالة ابراهيم ، فهو لا يفعل شيئا من أجل الكلى ، كما انه مستور .

والآن نصل الى المفارقة . فاما أن يكون الفرد بوصفه فرداً — قادرا على أن يقف فى علاقة مطلقة مع المطلق (وهنا لا يكون الأخلاقى هو الأعلى)/ أو يضيع ابراهيم ، فلا يكون بطلا مأساويا ، ولا بطلا جماليا .

وهنا يبدو مرة أخرى وكأن المفارقة أيسر الأشياء جميعا وأكثرها راحة . ومع ذلك ، لابد أن اكرر أن من يرى نفسه مقتنعا بهذا ليس فارس ايمان ، لأن الحزن والقلق هما المسوغان الشرعيان الوحيدان اللذان يمكن التفكير فيهما ، ولا سبيل الى التفكير فيهما بعبارات عامة ، لأن التفكير على هذا النحو يلغى المفارقة .

التزم بالصمت ابراهيم — ولكنه « لا يستطيع » أن يتكلم . وهنا يكمن الحزن والقلق . فلو أننى حين أتكلم اكون عاجزا عن توضيح نفسى ، فاننى لا أكون متكلما فى هذه الحالة (اى أن كلامى لا جدوى منه) — حتى ولو كنت أتكلم دون انقطاع ليلا ونهارا . هذه كانت حالة ابراهيم . كان يستطيع أن يتحدث بكل شىء ، ولكن ثمة شىء واحد لم يكن يستطيع أن يفصح عنه ، اعنى أن يقوله على نحو يجعل الشخص الآخر يفهمه ، ومن ثم ، فانه لم يكن يتكلم . والراحة التى يجدها المرء فى الكلام هي أنه يقوم بترجمتى الى الكلى . والآن ، يستطيع ابراهيم

أن يقول اجمل ما تقوله اية لغة من أشياء للتعبير عن مدى حبه لاستحق . ولكن ، ليس هذا ما يريده أن يفصح عن مكنون قلبه ، أعنى الفكـرة الأعمق التى تدفعه الى التضحية به لأنه امتحان . هذه الفكرة الأخيرة لا يستطيع أن يفهمها أحد ، ومن ثم لا يستطيع احد الا أن يسىء فهـم الفكرة الأولى . هذا الحزن الشديد لا يعرفه البطل المأساوى . فهو مطمئن — قبل كل شىء — الى أن كل حجة مضادة قد لقيت ما تستحقه من دراسة ، وبأنه كان قادرا على ان يعطى لكليتمنسترا ، ولافجينيـا ولاخيل ، وللجوقة (الكورس) ، ولكل كائن حى ، ولكل صوت صادر من قلب البشرية ، ولكل فكر ماكر ، منذر ، متهم ، متعاطف — كان قـادرا على أن يتيح لهؤلاء جميعا الفرصة للوقوف ضده . وهو يستطيع أن يوقن بأن كل ما يمكن ان يقال ضده قد قيل فعلا ، دون اغفال ، وبلا رحمة — والنضال ضد العالم كله .. ينطوى على شىء من العزاء ، على حين أن جهاد النفس شىء مخيف . وليس ثمة ما يدعوه الى الخوف من انه اغفل شيئا ما ، فيجد نفسه مرغما على أن يصيح كما صـاح الملك إدوارد الرابع عندما جاءه نبأ وفاة كلارنس (٩٥) Clarence

من ذا الذى يتوسل الي من اجله ؟
ومن ذا الذى ركع عند قدمى فى حالة غضبى
ورجانى أن استمع الى النصيحة ؟
من ذا الذى تحدث الى عن الاخوة ؟
ومن الذى تحدث عن الحب ؟

أن البطـل المأسـاوى لا يعـرف المسئولية الرهيبة التى تفرضها العزلة . وأنه ليتمتع — فى المحل الثانى — بعزاء آخر ، وهو انه يستطيع أن يبكى وينوح مع كليتمنسترا وافجينيا — والدموع والصرخات ملطفة للعذاب ، أما الآهات المكتومة فهى العذاب نفسه . ويستطيع أجاممنون ان يستجمع روحه بسرعة فى يقينه بأنه سيقدم على التصرف ، ومن ثم ، فان الوقت ينفسح له للراحة والنصح . وهذا مالا يستطيع ابراهيم أن يفعله . وعندما يتأثر قلبه ، وحينما تنطوى الكلمات على راحـة مباركة للعالم بأسره ، فانه لا يجرؤ على تقديم شىء من الراحة ، الن

فتقول له ساره : ويقول له اليعازر وأسحق : « ولماذا تفعلها ؟ انك تستطيع الاحجام ؟ » فاذا أطلق العنان لمشاعره وهو فى حزنه ذاك ، وعانق اعزائه جميعا قبل أن يقدم على الخطوة النهائية ، فربما جلب هذا كله تلك النتيجة الرهيبة وهى أن يخيب ظن ساره واليعازر واسحق فيه ، فيعتقدون أنه منافق . انه عاجز عن الكلام ، وهو لا يتكلم بلغة انسانية . ومع أنه هو نفسه قد فهم كل لغات العالم ، ومع أن احبابه قد فهموها أيضا ، الا أنه لا يستطيـــع أن يتكلم — انه يتكلم لغة الهية ... انه « يتكلم بكل الألسنة » .

هذا الحزن العميق شىء أستطيع أن افهمه جيدا ، كما أستطيع الاعجاب بابراهيم ، ولست اخشى أن تغرى هـــذه القصة شخصا ما فيريد فى شىء من النزق أن يكون the individual ، ولكننى أعترف أيضا بأننى لا أجد فى نفسى الشجاعة للاقدام على هذا الفعل ، وبأننى أتخلى مسرورا عـــن امكانية المضى الى أبعد من ذلك — ان كان من الممكن على أى نحو من الأنحاء — رغم فوات الأوان — أن أمضى الى ذلك المدى البعيد . كان فى استطاعة ابراهيم فى كل لحظة ان يتراجع ، فيريد فى شىء من النزق أن يكون الفرد (Anfechting ، وعندئذ يستطيع أن يتكلم ، وعندئذ يستطيع أن يفهمه الجميع — ولكنه لن يكون ابراهيم بعـــد .

ابراهيم لا يستطيع أن « يتكلم » ، لأنه لا يستطيـــع أن يتفوه بالكلمة التى تفسر كل شىء (أى ما كان ، لا على أنه شىء واضح) ، فهو لا يستطيع أن يقول ان الامر كله اختبار ، واختبار من النوع الـــذى يكون فيه الأخلاقى ، ethical هو الامتحان (Versuchung) ، وهـــذا ما ينبغى أن نلاحظه . ومن يكون هذا موقفه يعد مهاجـــرا من مجال الكلى . غير أن الكلمة التالية مازالت أيضا شيئا يعجز عن النطق به . ذلك أن ابراهيم — كما عرضنا ذلك آنفا عرضا كافيا — يقوم بحركتين : فهو يقوم بحركة التســـليم اللامتناهية ويضحى باسحق (وهـــذا شىء لا يستطيع أحد أن يفهمه لأنه مخاطرة خاصة)، ولكنه يقوم فى المجل الثانى —

بحركة الايمان فى كل لحظة . وهذا هو عزاؤه ، لأنه يقول : « ولكن هذا لن يحدث ، أو لو أنه حدث ذلك ، فسوف يهبنى الله اسحاقا جديدا بفضل اللامعقول » . وهكذا يصل البطل المأساوى أخيرا الى ختـام القصة . وتنحنى افيجينيا لقرار أبيها ، وتقوم هى نفسها بحركة التسليم اللامتناهية ، فهما الآن متصالحان الابنة مع أبيهـا . فهى تستطيـع أن تفهم أجاممنون لأن فعلته تعبر عن الكلى . ولو قال لها أجاممنون — من ناحية أخرى — : « على الرغم من أن الاله يطلبك كتضحية ، فقد يكون من الممكن مع ذلك انه لا يطلبها ، بفضل اللامعقول » ، فى هذه اللحظة عينها يصبح غير مفهوم لافيجينيا . فلو أنه قال ذلك على أساس حسابات انسانية ، فسـوف تفهمه افيجينيا بكل تأكيد ، ولكن يلزم عـن ذلك ألا يكون أجاممنون قد قام بحـركة التسليم اللامتناهية ، ومن ثم فانه ليس بطلا ، ويكون قول الكاهن حكاية يرويها قبطان البحـر ، ويتحول الحدث كله الى فدفيل (مسلاة) * .

لم يتكلم ابراهيم ، ولم تؤثر عنه سوى كلمة واحدة ، رده الوحيد على اسحق ، ذلك الرد الذى يعد أيضا دليلا كافيا على أنه لم يتكلم قبله . فقد سأل اسحق ابراهيم أين الخروف للمحرقة ؟ فقال ابراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى » . (تكوين — ٢٢ : ٧ و ٨) .

هذه الكلمة الأخيرة لابراهيم سأمعن فيها النظر ، لأنه لو لم تكن هذه الكلمة ، لنقص الحدث كله شيئا ما ، ولئن كان لهـا تأثير آخر ، فلعل كل شىء أن يصير الى الخلط والاضطراب .

---

* الفدفيل Vaudville أو المسلاة عبارة عن تمثيلية خفيفـة مرحة قد يتخللها بعض الأغنيات المضحكة . واشهر من كتب الفدفيل هـو جورج فيدو (١٨٦٢ — ١٩٢١) وقـد نقلت اعماله — ولا تزال تنقل — الى اللهجة المصرية (راجع « معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية » وضـع د . ابراهيم حماده ، طبعة دار الشعب — ١٩٧١ — ص ٢٧١) — (ف . ك .) .

ولقد تأملت فى كثير من الأحيان هذه المسألة وهى : هل يحتاج البطل المأساوى ، سواء أكانت ذروة مأساته عذاباً أم فعلا — هل يحتاج الى كلمة اخيرة ؟ فى رأيى أن الأمر يتوقف على مجال الحياة الذى ينتمى اليه ، وهل لحياته دلالة عقلية ، وهل يقف عذابه أو فعله فى علاقة مع الروح .

ومن نافلة القول ان البطل المأساوى ، كأى انسان آخر لم يحرم من القدرة على الكلام — يستطيع فى لحظة الذروة أن ينطق بكلمات قلائل ، وربما كلمات قلائل مناسبة ، ولكن المسألة هى : هل هذه الكلمات مناسبة لأن ينطقها . فاذا كانت دلالة حياته تتمثل فى فعل خارجى ، اذن فلن يكون لديه ما يقوله مادام كل ما يقوله سيكون فى جوهره لغوا لن يضعف الا الانطباع الذى يحدثه ، على حين أن احتفالية المأساة تقتضى أن يؤدى مهمته فى صمت ، سواء أكان ذلك متمثلا فى فعل أم فى عذاب . ودون أن أشرد بعيدا ، سأضرب مثلا قريبا من مناقشتنا أشد القرب . ولو كان اجاممنون هو الذى ينبغى ان يسحب السكين لا كلشاس Calchas ـ ضد افيجينيا ، اذن لحط من قدر نفسه بأن يريد فى اللحظة الأخيرة قول بضع كلمات قلائل ، ذلك أن دلالة فعلته كانت سيئة السمعة ، فالاجراءات القانونية للتقوى ، والشفقة ، والعاطفة ، والدموع كانت قد اكتملت ، وبالاضافة الى هذا لم تكن لحياته اية صلة بالروح ، فلم يكن معلما وشاهدا على الروح . ومن جهة أخرى ، اذا كانت الدلالة التى تتخذها حياة البطل فى اتجاه الروح ، اذن فان الافتقار الى كلمة اخيرة يضعف من الانطباع الذى يحدثه . ان ما ينبغى أن يقوله ليس مجرد كلمات قلائل ، خطبة صغيرة عصماء ، وانما دلالة ردّه هو أنه حتى فى اللحظة الحاسمة يحتفظ برباطة جأشه . وينبغى أن يتحلى مثل هذا البطل المأساوى المفكر بما يجاهد الآخرون لبلوغه فى ظروف اخرى بأساليب تبعث على السخرية فى معظم الأحيان ، اذ ينبغى أن تكون له الكلمة الأخيرة ، كما ينبغى أن يحتفظ بها لنفسه . وان المرء ليتطلب منه تلك المهابة المتسامية اللائقة بكل بطل مأساوى ، ولكن بالاضافة الى هذا كله ثمة كلمة واحدة مطلوبة منه . فعندما يصل

مثل هذا البطل المأساوى المفكر الى ذروته فى العذاب (فى الموت) ، عندئذ يصبح بكلمته الأخيرة خالدا قبل أن يموت ، على حين أن البطل المأساوى العادى لا يصير خالدا — من جهة أخرى — الا بعد موته .

ونستطيع ان نتخذ من سقراط مثلا . فقد كان بطلا مأساويا مفكرا . وقد أعلن اليه الحكم باعدامه . فى هذه اللحظة بدأ موته — فالشخص الذى لا يفهم أن قوة الروح كلها مطلوبة فى عملية الموت ، وأن البطل يموت دائما قبل أن يموت ، مثل هذا الشخص لن يتقدم كثيرا فى تصوره للحياة . المطلوب اذن من سقراط بوصفه بطلا أن يطمئن هادئا داخل نفسه ، ولكن المطلوب منه بوصفه بطلا مأساويا مفكرا أن تكون له حتى اللحظة الأخيرة تلك القوة الروحية الكافية لاجتياز هذه المحنة دون أن يفقد رباطة جاشه . ولهذا لا يستطيع أن يفعل ما يفعله البطل المأساوى العادى فيركز على الاحتفاظ بنفسه وجها لوجه ازاء الموت ، بل ينبغى عليه أن يقوم بهذه الحركة بسرعة بحيث يكون فى هذه اللحظة نفسها واعيا بقدرته على اجتيازها ، وبأنه عبر هذا الصراع ، ويعمل على توكيد نفسه . ولو اخلد سقراط الى الصمت فى محنة موته ، اذن لأضعف من التأثير الذى تركته حياته ، ولأثار الشك فى أن مرونة التهكم فيه لم تكن قوة عنصرية elemental ؛ بل كانت مجرد لعبة ، عليه أن يستخدم مرونتها فى اللحظة الحاسمة لمساندته عاطفيا * .

---

* انقسمت الآراء حول رد سقراط الذى ينبغى اعتباره الرد الحاسم ، وخاصة أن سقراط قد تبخر على يدى افلاطون بطرق شتى . واقترح الآتى : اعلن بحكم الاعدام عليه ، وفى هذه اللحظة نفسها يموت ، وفى هذه اللحظة نفسها يتغلب على الموت ، ويجتاز الموقف برباطة جأش برده الشهير الذى يعبر عن الدهشة لأنه أدين بأغلبية أصوات ثلاثة (٩٦) . ماكان يستطيع دون كلام غامض أو فاتر فى سوق المدينة ، ودون ملاحظة حمقاء تصدر عن أبله — ما كان يستطيع أن يمزح مزاحا أشد تهكما بالحكم الذى صدر باعدامه .

وما أقترحه بايجاز هنا لا ينطبق يقينا على ابراهيم فى حالة ما اذا خطر للمرء أن يفكر فى التماس كلمة مناسبة عن ابراهيم عن طـريق التماثل ــ ليختم بها ، ولكنه ينطبق الى هذا المدى وهو أن المرء يدرك بعده (أى بعد ذلك الأقتراح) كيف أنه من الضرورى أن يحتفظ ابراهيم برباطة جأشه حتى اللحظة الأخيرة ، كما لا ينبغى أن يستل سكينـه صامتا ، بل يجب عليه أن يقول كلمة ، مادامت له بوصفه أبا الايمان دلالة مطلقة بمعنى روحى . أما فيما يتعلق بما ينبغى أن يقوله ، فلا أستطيع أن أضع تصورا مسبقا ، فبعد أن يقوله ، ربما استطعت أن أفهمه ، وربما استطعت بمعنى معين ــ أن أفهم ابراهيم فيما يقوله ، وان لم أستطع الاقتراب منه بأكثر مما استطعت فى المناقشة السابقة . ولو لم توجد كلمة أخيرة لسقراط ، اذن لأمكننى أن أضع نفسى مكانه وأن أصوغ مثل تلك الكلمة ، فاذا عجزت عن ذلك ، فربما اسـتطاع شاعر ، ولكن ما من شاعر يستطيع أن يلحق بابراهيم .

وقبل أن أمضى فى النظر الى كلمة ابراهيم الأخيرة مقتربا منهـا مزيدا من الأقتراب ، أود أن أوجه الانتباه الى الصعوبة التى لقيهـا ابراهيم فى أن يقول شيئا على الاطلاق . فالأسى والقلق الكامنان فى المفارقة يتمثلان (كما ذكرنا آنفا) ــ فى الصمت ــ فابراهيم لا يستطيع أن يتكلم * . وبالنظر الى هذه الحقيقة ، يكون من التناقض أن يطلب منه الكلام ، الا اذا أخرجه المرء من المفارقة مرة أخرى ، بمعنى أنه يعمد الى تعليقها فى اللحظـة الاخـيرة ، وبهذا التعليق يكف عن أن يكون ابراهيم ويلغى كـل مـا حـدث من قبـل . اذن فلـو أن ابراهيم قـال

---

* لو كان الأمر يتعلق بشىء مماثل ، اذن لأمدنا موت فيثاغورس بشىء من هذا القبيل ، ذلك لأن الصمت الذى التزم به دائما ، كان عليه أن يحرص عليه حتى لحظته الأخـيرة . فلما أرغم على الكلام قال ، « أن ألقى الموت خير من أن أتكلم » (قارن ، ديوجين Diogenes Laertius الفصل الثامن VIII ، ص ٣٩) .

لاسحق فى اللحظة الأخيرة ، « عليك ينطبق الأمر » ، لكان ذلك مجرد ضعف . لأن لو كان له أن يتكلم على الاطلاق ، اذن فقد كان ينبغى عليه أن يتحدث قبل ذلك بفترة طويلة ، ويتمثل الضعف فى هذه الحالة فى أنه لا يتمتع بنضج الروح ، وبالتركيز الذى يجعله يستحضر مسبقا كل العذاب ، ولكنه قذف بشىء ما بعيدا عنه ، بحيث أن العذاب الفعلى تضمن قدرا زائدا ، ومضافا على مجرد التفكير فى العذاب . وفضلا عن ذلك ، فانه بمثل هذا الحديث يسقط خارج دور المفارقة ، فلو كان يريد حقا أن يتحدث الى اسحق ، لوجب عليه أن يحيل الموقف الى امتحان (Anfechtung) ، والا لما استطاع ان يقول شيئا ، ولو كان عليه أن يفعل ذلك ، اذن لما بلغ حتى مرتبة البطل المأساوى .

ومهما يكن من أمر ، ثمة كلمة أخيرة بقيت لنا من ابراهيم ، وبقدر ما فى وسعى من فهم للمفارقة ، فاننى أستطيع أيضا أن أفهم الحضور الكلى لابراهيم فى هذه الكلمة . فأولا ، وقبل كل شىء ، لم يقل ابراهيم شيئا ، وفى هذه الصيغة يقول ما ينبغى عليه أن يقوله . واجابته على اسحق تتخذ شكل التهكم ، فانه من التهكم دائما أن أقول شيئا فلا أقول شيئا . ويوجه اسحق السؤال الى ابراهيم على فرض أن ابراهيم يعلم . فلو كان ابراهيم قد أجاب عندئذ « انا لا أعرف شيئا » . لنطق فى هذه الحالة بشىء يخالف الحقيقة . انه لا يستطيع أن يقول شيئا ، لأن ما يعرفه لا يستطيع أن يقوله ، « الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى » . وهنا تتجلى الحركة المزدوجة التى اعتملت فى روح ابراهيم ، كما وصفناها فى المناقشة السابقة . فلو أن ابراهيم تخلى عن مطالبته باسحق ، ولم يفعل أكثر من ذلك ، لكان فى هذه الكلمة الأخيرة يقول ما يجافى الصدق ، ذلك لأنه يعرف أن الله يطلب تقديم اسحق كتضحية ، ويعرف انه هو نفسه فى هذه اللحظة بالذات على استعداد للتضحية به . وهكذا نرى انه بعد أن قام بهذه الحركة ، فانه يقوم بالحركة التالية فى كل لحظة ، أعنى حركة الايمان استنادا الى اللامعقول . ولهذا السبب لا ينطق الكذب ، لأنه بفضل اللامعقول ، يكون من الممكن بالطبع ، أن يفعل الله شيئا مختلفا تمام الاختلاف . ومن ثم ، فانه لم

يقل كذبا ، ولكنه لم يقل أيضا أى شيء ، لأنه يتحدث بلغة أجنبية . ويزداد هذا الأمر جلاء عندما نرى أن ابراهيم نفسه هو من كان يجب عليه التضحية باسحق . فلو كانت المهمة شيئا آخر مختلفا ، ولو أن الرب أمر ابراهيم أن يحضر اسحق الى جبل المريا ، وأرسل هو نفسه صاعقة من البرق على اسحق ، وعلى هذا النحو تلقاه بوصفه قربانا ، اذن لكان ابراهيم على حق — اذا أخذنا كلماته بمعناها البسيط — عندما تحدث حديثا ملغزا كما فعل ، لأنه هو نفسه لم يكن يعلم ما سيحدث . ولكن كان لابد لابراهيم ان يتصرف نظرا للطريقة التى ألقيت بها المهمة عليه ، وكان يجب عليه فى اللحظة الحاسمة أن يعرف ما سيفعله هو نفسه ، وكان لابد أن يعرف أنه سيضحى باسحق . وفى حالة ما اذا لم يكن يعرف ذلك على وجه التحديد ، اذن فلن يكون قد قام بحركة التسليم اللامتناهية ، وعندئذ ، على الرغم من أن كلمته لم تكن كذبا بكل تأكيد ، الا أنه أبعد جدا عن أن يكون ابراهيم ، بل انه أقل دلالة من البطل المأساوى ، أجل ، انه يكون حينئذ رجلا مترددا يعجز عن اتخاذ هذا القرار أو ذاك ، ولهذا السبب سيظل يتكلم بالألغاز دائما . بيد أن مثل هذا المتردد لن يكون الا صورة مشوهة لفارس الايمان .

وهنا يبدو مرة أخرى أنه ربما بلغ المرء شيئا من الفهم لابراهيم ، بيد أن هذا الفهم لا يعدو أن يكون على النحو نفسه الذى يفهم به المفارقة . ومن ناحيتى أنا استطيع على نحو ما أن أفهم ابراهيم ، ولكننى أدرك فى الوقت نفسه اننى لا أمتلك الشجاعة لكى أتكلم ، كما أننى أقل من ذلك شجاعة اذا تعلق الأمر بأن أفعل مثلما فعل — ولكننى لا أقصد بحال من الأحوال أن أقول أن ما فعله شيء يفتقر الى الدلالة ، بل على النقيض ، ان ما فعله هو الأعجوبة الوحيدة .

وماذا يرى المعاصرون فى البطل المأساوى ؟ انهم يعتقدون انه كان عظيما ، ويبدون اعجابهم به . وذلك المجلس الموقر من النبلاء ، المطلفين الذين يختارهم كل جيل ليصدروا حكمهم على الجيل السابق ، أصدروا الحكم نفسه عليه . أما بالنسبة لابراهيم ، فلم يكن هناك من

يستطيع أن يفهمه . ومع ذلك ، تخيل ما وصل اليه ! لقد ظل مخلصا لحبه ، غير أن ذلك الذى يحب الله لا يحتاج الى الدموع ، وليس فى حاجة الى الاعجاب ، وفى حبه ينسى العذاب ، أجل ، لقد نسيه نسيانا تاما الى درجة أنه لم يوجد فيما بعد أدنى تلميح الى ألمه ان لم يشر الله نفسه اليه ، ذلك ان الله ينظر الى السريرة ، ويعلم ما تكنه من الحزن ، ويحسب الدموع ، ولا ينسى شيئا .

فاما أن هناك مفارقة ، أعنى أن الفرد بوصفه فردا يقف فى علاقة مطلقة مع المطلق/أو يضيع ابراهيم .

خاتمة

حدث فى هولندا ذات يوم ، عندما اصيب سوق التوابل بشىء من الركود ، أن اغرق التجار بضع شحنات فى البحر أملا فى رفع الاسعار . وقد كانت هذه حيلة جديرة بالمغفرة ، بل لعلها كانت ضرورية لخداع الناس . فهل نحتاج الآن الى شىء من هذا القبيل فى عالم الروح ؟ اترانا مقتنعين اقتناعا تاما بأننا بلغنا اعلى نقطة بحيث لم يبق امامنا ما نفعله الا أن نقنع أنفسنا فى كثير من الورع بأننا لم نوغل بعيدا بما فيه الكفاية — لمجرد أن نجد شيئا نشغل به أوقاتنا ؟ أهو شىء مثل هذا الخداع هو ما يحتاج اليه جيلنا الحاضر ، أيحتاج الى شىء من التدريب على البراعة فى خداع نفسه ، أم أنه قد اتقن فعلا اتقانا كافيا فن خداع ذاته ؟ أو الاحرى ان اكثر ما نحتاج اليه هو نوع من الجدية الامينة التى تشير بلا تهيب أو تلوث الى الواجبات ، جدية أمينة تتابع فى حب الواجبات ، ولا تخيف فتدفعهم الى الهرولة الزائدة فى انجاز اسمى الواجبات ، بل تحتفظ لتلك الواجبات بنضارتها وفتنتها وسحرها وان كانت بالاضافة الى هذا كله شاقة وجذابة للعقول النبيلة ، ذلك أن حماسة الطبائع النبيلة لا تحركها الا الصعوبات . وايا كان ما يتعلمه جيل من جيل آخر ، فان ما هو انسانى أصيل لا يتعلمه جيل من الجيل السابق . ففى هذا المجال يبدأ كل جيل من البداية ، ولا يختلف واجبه عن واجب الجيل السابق ، كما انه لا يتقدم الى أبعد منه اللهم الا من حيث أن الجيل السابق قد تهرب من واجبه وضلل نفسه . هذا العامل الانسانى الاصيل هو **العاطفة** ، والتى بها ايضا يفهم جيل الجيل الآخر فهما كاملا ويفهم نفسه . وعلى هذا لم يتعلم جيل من جيل آخر أن يحب ، ولا يبدأ جيل من نقطة أخرى غير نقطة البداية ، ولم يعهد الى جيل بمهمة أقصر من مهمة الجيل السابق ، فاذا لم يكن المرء مستعدا هنا أن يقف — كما وقف الجيل السابق — عند الحب ، بل يريد أن يمضى الى ابعد من ذلك ، فهذا لغو فارغ ، وهراء لا طائل وراءه .

بيد أن أسمى العواطف فى الانسان هى الايمان ، وهنا لا يبدأ أى جيل من نقطة أخرى غير تلك التى بدأ بها الجيل السابق ، كل جيل يبدأ من جديد ، ولا يتقدم الجيل اللاحق عن الجيل السابق ـ بقدر ما كان هذا الاخير أمينا فى أداء واجبه ولم يتركه فى مركز حرج . أما أن يكون هذا الواجب مضنيا فشىء لا يستطيع الجيل أن يقوله بالطبع . فالواقع ان الجيل لديه الواجب الذى عليه أن يؤديه ، وليس له أن ينظر فى ان الجيل السابق كان عليه نفس الواجب ـ الا اذا كان الجيل المعين أو الافراد المعينون الذين عاشوا فيه من الصفاقة بحيث يحتلون المكان الذى ينتمى شرعا الى « الروح » التى تحكم العالم ، وتتمتع بما يكفى من الصبر بحيث لا تعرف الضجر . ولو بدأ الجيل بشىء من هذا القبل فسيكون حينئذ مقلوبا رأسا على عقب ، ولا عجب أن يبدو له الوجود كله عندئذ مقلوبا رأسا على عقب ، فمن المؤكد أن أحدا لم يجد العالم مقلوبا رأسا على عقب كما وجده الحائك فى القصة الخرافية(٩٧) ، ذلك الحائك الذى صعد الى السماء أثناء حياته ، ومن تلك النقطة أخذ يتأمل العالم . ولو لم يشغل هذا الجيل نفسه الا بواجبه فحسب ، وهو أسمى ما يستطيع أن يفعله ، فلن يلحق به ضرر ، لأن الواجب دائما يكفى حياة انسانية . وعندما يفرغ الاطفال فى يوم عطلة من جميع العابهم قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة ، فأنهم يقولون فى شىء من نفاذ الصبر : « أليس هناك من يستطيع أن يفكر فى لعبة جديدة ؟ » أيثبت هذا أن الاطفال أكثر نموا وتقدما من أطفال الجيل نفسه أو الجيل السابق الذى يستطيع أن يطيل فى الالعاب حتى تستغرق اليوم كله ؟ أو الا يثبت بالاحرى أن أولئك الاطفال يفتقرون الى ما يمكن أن أسميه الجدية المحببة التى تنتمى أساسا للعب ؟ .

الايمان هو أسمى عاطفة فى الانسان . وربما كان هناك فى كل جيل عديد كبير من الناس لم يصل اليه . غير أن أحد لا يستطيع أن يمضى الى أبعد من ذلك . أما ان كان هناك الكثيرون ممن لم يكتشفوه فى عصرنا ، فهذا أمر لا أستطيع أن استقر فيه على رأى ، كل ما أجرؤ عليه هو أن أهيب بنفسى كشاهد لا يخفى سرا حين يقول ان الامكانيات بالنسبة اليه ليست أحسن ما تكون ، دون أن يرغب مع هذا كله . أن يضلل نفسه وان يخون ذلك

الشيء العظيم الذى هــو الايمان بتحويله الى شيء يخــلو من كل دلالة ، الى علة من علل الطفولة التى ينبغى على المرء أن يتغلب عليها بأسرع ما فى وسعه . أما بالنسبة للانسان الذى لم يصل بعد الى الايمان ، فان الحيــاة تدخــر له أيضا واجبات كافية ، فاذا احب هذه الواجبات باخلاص ، فلن تتبــدد الحيــاة بحال من الاحوال ، وان لم تكن ابدا شيئا يمكن مقــارنته بحيــاة أولئك الذين أدركوا الأسمى وتمسكوا به . أما من بلــغ الايمــان (وسيان فى هذا الحالة ان كان رجلا ذا مواهب ممتازة أو رجــلا بســيطا) فانه لا يقف جامــدا أمام الايمان ، أجل ، انه سيشعر بالاساءة ان قال عنه أحــد ذلك ، كالعاشق الذى يشعر بالاستياء اذا قال عنــه أحــد انه وقف عنــد الحب لا يتعداه ، اذ يجيب فى هذه الحالة : « أنا لم اقف جامــدا بحال من الاحوال ، لأن حيــاتى كلها هى فى هــذا الحب » . ومع ذلك ، فانــه لا يمضى الى ابعد من ذلك ولا يصــل الى اى شيء مختلف ، لأنه لو اكتشف هذا لكان لديه تفسير مختلف له .

« يجب على المرء ان يمضى الى ابعــد من ذلك ، يجب عليه أن يمضى الى أبعــد من ذلك » . هــذا الدافع الى المضى الــى ما هــو ابعد شيء قديم فى هــذا العالم . وقد قال هرقليطس الغامض الذى وضــع أفكاره فى كتاباته وعلق ما كتب على معبــد ديانا (ذلك لأن أفكاره كانت درعــه أثناء حيــاته ، ومن ثم فقــد قام بتعليقها فى معبد الالهــة)(٩٨) ، قال هرقليطس الغامض : « لا يستطيع أحــد أن يعبر النهر الواحــد مرتين »* . وكان لهرقليطس الغامض تلميذ لم يقف عنــد هذا القــول ، بل توغــل الى أبعد من ذلك وأضاف ، « بل ان المرء لا يستطيع أن يفعل ذلك حتى ولو مــرة واحــدة » * فيالهرقليطس المسكين ، أن يكون له مثل هــذا التلميذ ! فبهذا التعديل تغيرت دعوى هرقليطس بحيث أصبحت دعوة ايلية (نسبة الــى المدرسة الايلية التى تزعمها بارمنيدس تنكــر الحركة ، ومع ذلك ، لم يكن هــذا التلميذ يريــد الا أن يكون تلميذا لهرقليطس ... ويمضى الى الأبعد — لا أن يعــود الى الوضع الذى هجره هرقليطس .

---

* افلاطون ، محاورة اقراطيلوس Cratyllus

* تارنتنمان فى « تاريخ الفلسفة » جا ، ص ٢٢٠ .
Tennemann, Geschichte der Philosophie

هوامش

بقلم

وولتر لاوري

(انا مدين بمعظم هذه الملاحظات لمحرري الطبعة الدنماركية لأعمـــال سرن كيركجور الكاملة) :

(١) حكيت قصة ابن تاركينيوس مع شعب جسابى فى المقدمة .

(٢) يستهدف التصدير بوجه خاص عرض مارتنسن Martensen للمحاضرات التى القاها ج.ل. هايبرج J.L. Heiberg تحت عنوان « محاضرات تمهيدية للمنطق Introductory Lectures to Speculative Logic . مخطوط دنماركى رقم ١٦ لعام ١٨٣٦ صفحات ٥١٥ وما بعدها Dansko Mannedskrift ....

(٣) يذكر ديكارت هنا لأن مارتنسن أهاب به فى المقال المذكور فى الهامش السابق .

(٤) (يورد لاورى هذا النص باللغة اللاتينية فى متن الكتاب ، ويترجمه الى الانجليزية فى هذا الهامش ، ولا أرى ما يدعو الى ايراده باللاتينية ،ولكننى أردت الاحتفاظ بتسلسل أرقام الهوامش . وهذه الفقرة مأخوذة من كتاب ديكارت : المبادىء الفلسفية ، الفقرتان ٢٨ ، ٧٦ من الجزء الاول ، ولهذا الكتاب ترجمة عربية تحت عنوان « ديكارت : مبادىء الفلسفة » قام بهما المغفور له الدكتور عثمان أمين — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٠ — ص ١١٩ و ١٨٠ — ف.ك.) .

(٥) (ما ذكرناه عن الهامش السابق ينطبق أيضا على هذا الهامش ، وان تكن الفقرة الواردة فى المتن مأخوذة من كتاب آخر لديكارت هو « مقال فى المنهج » Dessertatio de Methodo ص ٢ ، ٣ ، وقد تكون لهذا الكتاب ترجمة عربية ، ولكننى لم أستطيع العثور عليها ، ومن ثم فالترجمة الواردة فى النص العربى هى ترجمتى . ف.ك) .

(٦) قدم مارتنسن مثل هذه الوعود فى المقال المشار اليه فى الهامشين ٢ ، ٣ .

(٧) طريقة سرن كيركجور التى تتسم بالاحتقار فى الاشارة الى صحيفة Berlingske Tidende ، وهى صحيفة يملكها ويحررها عدوه اللدود ، تاجر الجملة ناثانسون Nathanson . وكان هذا الاعلان يلفت الأنظار بوجه خاص لأن البستانى الشاب المغامر أرفق به صورة تخطيطية لنفسه فى موقف التملق الموصوف هنا .

(٨) فى كتاب ج.ل. هايبرج J.L. Heiberg « الناقد الأدبى والوحش» . The Reviewer and the Beast . يمزق تروب Trop مأساته الخاصة «تدمير الجنس البشرى» The destruction of the Human Race نطعتين متساويتين ، مع اضافة هذه الملاحظة (لتبرير هذا التقسيم) : « مادام الامر لا يكلف مزيدا من التكليف أن نحافظ على حسن الـذوق ، فلماذا نقوم به ؟ » .

(٩) قبل هذا بثلاثة أعوام فحسب ، شوهدت أولى حافلة عامة للركاب (اومنيبوس) فى كوبنهاجن .

(١٠) يشك المرء — دون تثريب عليه — فى كيفية ترجمة هذا العنوان (كما انتاب الشك المترجمين الأربعة الى الألمانية والفرنسية والانجليزية) لو لم يشر س. ك / IV B81) الى انه يستخدم هنا كلمة Steming بمعنى Προοίμιον ، وهى الكلمة اليونانية التى تعطينا كلمة proem (استهلال) وقد آثرت استخدام كلمة Prelude (تصدير) لأنها أكثر شيوعا فى الفهم .

(١١) سفر التكوين ، الاصحاح ٢٢ .

(١٢) جوديث Judith ١٠ : ١١ (وهو من الاسفار المنحوله) .
وقد استشهد س.ك. بهذه الفقرة فى كتابه « الحاشية » Postscript. قارن III A 197 .

(١٣) تلميحا الى فقرات متعددة فى هوميروس (مثل الالياذة جـ ٣ ٣١٨) حيث تنقذ الالهة بطلا بأن تلفه فى سحابه وتحمله بعيدا . ونحن نكتشف مزيدا من العاطفية فى هذه الصورة « للمحب » عندما نتذكر أنه يتطلع س.ك الى مجىء شاعره ، أعنى « المحب » .
فى ختام كتابه « وجهة النظر » The point of view

(١٤) يتضح من السياق أن ارميا (أحد انبياء العهد القديم) هو المعنى بهذا القول .

(١٥) هنا تتبدى لنا ومضة من كتابه « التكرار » Repitition :

(١٦) قارن محاورة فايدروس Phaedrus لأفلاطون ، ٢٢ ، ٣٧ .

يقف البطل ضد « نور الدن » ممثل الظلام .

(١٨) سفر اشعياء (أحد أنبياء العهد القديم) ٢٦ : ١٨ .

(١٧) فى مسرحية « علاء الدين » من تأليف أويلنشليجر **Oelenschläger** فى كتابه بهذا العنوان نفسه ، ٣٠ ، ٣ .

(١٩) ثيميستوكلير Themistocles ، كما يرويه بلوتارخ Plutarch

(٢٠) بعد أحد عشر شهرا (لم يتخللها غير كتاب واحد باسم مستعار) نشر س.ك « مفهوم القلق » The Concept of Dread ، وظلت هذه المقولة منذ ذلك الحين أشد مقولاته تميزا . ومع أن الجميع قد اتفقوا على استخدام كلمة dread ، الا أن أحدا من المترجمين لم يستطيع القول بأنها الكلمة المناسبة لترجمة Angst . مع انها تشير الى الشعور بالشر ، الا أنها لا تكفى لتأكيد القلق الذى تتسم به التجربة .

(٢١) كلما السياق يقتضى استعمال ضمير المذكر ، ولكن ريجينا هى المقصودة ، ولابد أنها عرفت ذلك ، فقد كانت هذه هى كلماتها عندما رفضت أن تعيد لكيركجور حريته .

(٢٢) كما زعم الاستاذ مارتنسن Martensen انه سيفعل ذلك المشار اليه فى الهامش السابق ٢ — Danske Maanedskrift, No. 16 غير أن سيجرن Sibbern زعم أيضا بالنسبة لهايبرج أنه « يمضى الى ما وراء هيجل » (نفس العدد ، رقم ١٠ لسنة ١٨٣٨ ، ص ٢٩٢) .

(٢٣) مأخوذة من « رسائل » هوراس I ، ١٨ ، ٨٤ : « ان هذا أمر يخصك ، عندما تشتعل النيران فى منزل جارك » .

(٢٤) قد يكون القارىء فى حاجة الى أن يحاط علما بأن يوحنا الصامت Johannes de Silentio يمر بتلك المرحلة الدينية التى يسميها يوحنا Climacus فى « الحاشية » بـ « المرحلة الدينية أ » ، وهى

أساس كل تدين ، ولكنها ليست مع ذلك الموقف المسيحى المتميز الذى يسمى هنـــا « المرحلة الدينية ب » ، أو الدينية المفارقة paradoxical التى تتسم بالايمان بمعناه الدقيق .

(٢٥) هذه بالتأكيد فقرة تندرج تحت الترجمة الذاتية autobiographical

(٢٦) يعزو س.ك انحناء عموده الفقرى الى سقطة من شجرة عندما كان طفلا .

(٢٧) قد يحتاج القارىء الذى لم يسمع أو لم يلتفت الى تحذير س.ك بألا ينسب اليه شخصيا كلمة واحدة مما يرد فى الكتب الصادرة بأســماء مستعارة ــ قد يحتاج الى تذكيره هنا بأنه ليس س.ك هو الذى يكــرر بالحاح بأنه لا يستطيع فهم ابراهيم . ذلك أن يوحنا « الصامت » هو الذى يكرر هذا ، والغرض منه هو تأكيد أن المرحلة الدينية المفارقة (الدينية ب) هى ، وستظل ،مفارقة لكل انسان يقف على مستوى أدنى ، أو حتى لمــن يصعد الى الدرجة التى تمكنه من الاتيان بحركة التسليم اللامتناهية ، مادام دينه لم يتجاوز بعد مجال المحاثية immanence .

(٢٨) ادخل فى كوبنهاجن عام ١٨٤٠ .

(٢٩) هذه « الأميرة » بالطبع هى أوضح تشبيه بريجينا ، ولن يشق عليها بالطبع أن تكتشفه ، ولكن قد يكون كل قارىء آخر فى حاجة الى أن نذكره بأن س .ك يصف فى هذه الفقرة كلها . فعل التسليم الذى قام به هو شخصيا .

(٣٠) سجل س.ك أثناء خطبته هذه الملاحظة فى يومياته بأن بعض الحشرات تموت فى اللحظة التى تقوم فيها باخصاب الطرف الآخــر ، وقد اعــاد هذا القول فى الورقة السادسة Sixth Diapsalm من كتابه : « اما . . . أو » .

(٣١) (الترجمة الانجليزية لهذه العبارة) A blissful leap into eternity

(٣٢) قارن ما قيل فى كتابة « التكرار » Repetition عن الشاب الذى « يسترجع » حبه بعدما يعقد خطبته مباشرة ، وقد أوردتها فى كتابى عن « كيركجور » صفحة ٢١٢ .

(٣٣) يبدو من الجلى أن هذه الفقرة كتبت بعد أن علم س.ك بخطبة ريجينا ، وتوحى نغمتها بأنه كان لديه الوقت للندم على اللغة المختلفة أشد الاختلاف التى استخدمها عندما أعاد كتابة « التكرار » ، ومن ثم فهى دليل آخر على الرأى القائل بأن هذا الكتاب وضع فى زمن متأخر عن الكتاب الآخر .

(٣٤) كان « الانسجام الأزلى » مفهوما أساسيا فى فلسفة ليبنتس .

(٣٥) انظر **Magyarische Sagen** تأليف **Graf Mailath** (شتوتجارت بتجن **Tubingen** ١٨٣٨) ، المجلد ٢ ، ص ١٨ . وقارن اليوميات ٤٤٩ .

(٣٦) تدوينه فى « اليوميات » **(IV A 107)** بتاريخ ١٧ مايو (١٨٤٣) ، فى الوقت الذى كان يؤلف فيه هذين الكتابين فى برلين ، يقول س.ك : « لو كنت مؤمنا ، اذن ، لمكثت مع ريجينا » . اذ لم يكن حينذاك غير فارس التسليم اللامتناهى ، ولكنه كان فى طرقه لأن يكون فارس الايمان .

(٣٧) كان من الافضل لو أننى لاحظت مبكرا أن أن كلمتى **Resignation** و **Resignere** الدنماركيتين يتضمنان معنى أكثر ايجابية من المعنى الذى يرتبط بكلمة **resignation** الانجليزية ، ان تتضمنان « فعلا » **an act** (يزهد) و **renunciation** (زهد — ومع ذلك أظن أنه لا يليق بنا أن نلقب فارسنا بفارس الزهد) .

(٣٨) ازظر روزنكرانتس **Rosenkranz** فى كتابه : « **Erinnerungen an Karl Daub** (برلين ١٨٣٧) ؛ ص ٢ . وقارن « يوميات » كيركجور **IV A 42** .

(٣٩) كان يطيب لكيركجور أن يدعى « أستاذ التهكم » **Master of Irony** نظرا لكتابه الضخم : « مفهوم التهكم » **The Concept of Irony** الذى نال به درجة الماجستير فى الآداب .

(٤٠) هذه كلمة يونانية معناها غاية أو هدف . وقد كتبها س.ك . بالحروف اليونانية ، ولكننى ترجمتها لأنها ترد كثيرا فى النص ، ولأنها بسببها لأن تصبح كلمة انجليزية .

(٤١) هذا هو تصور « الأخلاقي » ethical الذي يلح عليه س . ك في الجزء الثاني من « اما / أو » . وربما كان شرمف Schrempf على صواب في تأكيده على أن ما سبب عذاب س . ك الذي لا ضرورة له هو قبوله للفكرة الهيجلية عن العلاقة بين الكلي universal والجزئي particular .

(٤٢) قارن : فلسفة الحق (تأليف هيجل Philosophie des Rechts الطبعة الثانية (١٨٤٠) JJ.. ١٢٩ — ١٤١ — وجدول المحتويات — p. XIX .

(٤٣) حرب طروادة فعندما لم يتمكن الاسطول الاغريقي من الابحار من أوليس Aulis بسبب ريح معاكسة أعلن العراف كالشاس Calchas أن الملك اجاممنون قد أهان آرتميس وأن الالهة تطلب أن يقدم ابنته افيجينيا تكفيرا عن هذه الفعلة .

(٤٤) انظر مسرحية يوريبيديز « افجينيا في أوليس » الفصل الخامس صفحة ٤٤٨ من ترجمة ويلستر Wilster . يقول أجاممنون : « ما أسعد حظ من يولد في مرتبة وضيعة ، حيث يسمح للمرء بالبكاء » . وأمناء السر المشار اليهم هنا هم مينيلاوس Minelaus وكالشاس ويوليسيس Ulysses قارن الفصل الخامس ١٠٧٠ .

(٤٥) يفتاح — سفر القضاة (من العهد القديم) ١١ : ٣٠ — ٤٠ .

(٤٦) اشترك أبناء بروتس ، عندما كان أبوهم قنصلا — في مؤامرة لاعادة الملك الذي طردته روما ، وقد أصدر بروتس أمره باعدامهم .

(٤٧) هـــذه هي الغواية بالمعنى الذي نقصده عادة للكلمة ، أما الغواية بمعنى أعلى من ذلك Anfaegtelse ، فقد جاءت في ترجمتها في الكتب الأخرى بعبارة « امتحان الغواية » Trial of Temptation فقرة هامة من كتاب « الحاشية » آثر الاستاذ سوينسون Swenson استخدام الكلمة الألمانية Anfechtung وقد استخدمت في هــذا الكتاب كلمة « غواية » واضفت الكلمة الألمانيـــة بين قوسين . ولقد أشـــار س . ك بوضوح في هـــذه الفقرة إلى التمييز بين هذين النوعين مـــن الغـــواية .

(٤٨) هذه هى الكلمة الواردة فى الكتاب المقدس التى نترجمها بكلمة عثرة Offence أو « حجر عثرة » Stumbling block . والسيد « درو » هو وحده الذى يستخدم الكلمة الحرفية « فضيحة » Scandal .

(٤٩) المدرسون Docents ، ومساعدو المدرسون Privadocents (وكلاهما لقب ألمانى للمدرسين ومساعديهم فى الجامعات) وكانت هذه الفئة موضع سخرية س . ك . فى كثير من الاحيان . ثم أصبح يردد كلمة « الأستاذ » The professor بعد أن حصل مارتنسن Martensen على هذا اللقب .

(٥٠) قد يكون من الشائق والمفيد أن نضع منتخبا للفقرات التى يتحدث فيهـا س . ك . عن « العـذراء المباركة » ، فمن المؤكد انه لا يوجد بروتستانتى واحد اهتم بهذا الموضوع اهتمام س . ك . ربما لا يوجد كاثوليكى يحمل مثل هذا التقدير العميق لوضع السـيدة مريم الفـريد .

(٥١) فى Auszuge aus den Literatur-Briefen طبعة Mazahn — المجلد السادس ، صفحة ٢٥٠ وما بعدها .

(٥٢) على سبيل المثال كتاب هيجل « المنطق » Logik ، الجزء الثانى ، الكتاب الثانى ، فقرة ٣ ، Cap. C (الأعمال الكاملة Werke المجلد الرابع ، صفحة ١٧٧ وما بعدها ، والموسوعة Encyclopedie المجلد الاول ١٤٠ (الاعمال الكاملة المجلد السادس ، ص ٢٧٥ وما بعدها) .

(٥٣) يبدو من « اليوميات » (I A 273) ان س . ك . يقصـد كتاب شلايرماخر Schleiermacher « لاهوت الشعور » Theology Feeling وكذلك (دون تبرير واضح) الدجماطيقيين (القطعيين) الذين ينتمون للمدرسة الهيجلية . والمحررون الدنماركيون يشيرون الى كتاب مارهاينكه Marheineke Dogmatik الطبعة الثانية . صص ٧٠ و ٧١ و ٨٦ .

(٥٤) دون توقع ، أو على غير انتظار .

(٥٥) فى هذا المثل بالذات يستطيع س . ك أن يحدد بدقة ما يفهمه

من أسحق ، أعنى ريجينا ، وخلو هذه الجملة من الشكل شيء مقصود ـ انه ستار من الدخان للتعمية .

(٥٦) يشير المحررون الدنماركيون الى مصطلح برتشنايدر Bretschneider Lexicon ولكن ، ليست هناك لغة تفتقر الى مساعدين مفسرين يخدمون بهدف تحنيط « العهد القديم » . وفى هذا المثل يتم اضعاف الكلمة المطلقة « الكراهية » على التوالى بواسطة كل مصطلح استخدم لتعريفها : « يشعر بالنفور » ، « يحب أقل » ، « يضع فى مكان ثانوى » ، « لا يبدى أى توفير » ، « يعتبره عدما » .

(٥٧) يشير المقطعان العبريان yodl و vav أصلا الى أصوات متحركة وعندما أصبحت أصوات الحركة تكتب تحت الحروف الساكنة ، صارت هذه الحروف زائدة فى هذا الوضع ، وقيل عنها أنهما تستقر فى الصوت المتحرك . وعلى هذا النحو فهم س . ك الموقف (Hvile) فى يومياته IIA406 ، ولكنه عكسها فى هذا الموضع .

(٥٨) هو فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus الذى قاد عام ٢١٧ قبل الميلاد الحرب ضد هانيبال ، ولقب بالمسوف (أو المماطل) نظرا لاستراتيجيته الناجحة فى التسويف والمماطلة .

(٥٩) ومعناها « ملكية عامة » .

(٦٠) مسرحية من تأليف أولوس Olussen ، وتتحدث فى الفصل الثانى ، المشهد العاشر ، وفى غير ذلك من المواضع عن « شاهدين » ، ولا تتحدث عن شماسة Stokkemaedene ، وتعنى اربعة رجال عينوا لحضور الاجراءات القانونية كشهود .

(٦١) الفقرة المقابلة هى سفر التثنية Deuteronomy (من أسفار العهد القديم) ١٣ : ٦ وما بعدها ، و ٣٣ : ٩ ، وانجيل متى (من أسفار العهد الجديد) ١٠ : ٣٧ ، ١٩ : ٢٩ وفى المخطوط ، الرسالة الاولى الى أهل كورنثوس (من أسفار العهد الجديد) ٧ : ١١ يدور الحديث عن فقرة « مماثلة » ، ولكن دون حجة قوية .

(٦٢) يتصل بهذا الموضوع قسمان من الاسطورة هما : التغير والتعرف ، (أعنى الموضوع الذى كان يتحدث عنه س . ك) .

(٦٣) الكلمة حرفيا هى carrom . ويشرح المحررون الدنماركيون بأنها تعنى هنا المطابقة فى نفس اللحظة . وهكذا ، عندما يتعرف « أوديب » على هويته ، يحدث « تغييرا » فى نصيبه أو حظه .

(٦٤) أوديب فى مأساة سوفوكلينس المعروفة بهذا الاسم .

(٦٥) افيجينيا فى مسرحية يوريبيديز « افيجينيا فى توريس » . Iphigenia in Tauris

(٦٦) فى كتابه « التاريخ الطبيعى » Natural History ، الجزء الخامس ، ٤ و ٧ . قارن « اليوميات » .

(٦٧) الكتاب الثامن (٥) ،

(٦٨) لقب للكهانة الرومانية يستخدمه Cap. 3, 3 س . ك هنا (ولا أدرى لأى سبب) على الكهنة الاغريق .

(٦٩) المجلد الاول ، ا و ٢ — ص ١٠ — فى طبعة مالتسان

(٧٠) لاهوت الحجاج — فى مضاد لاهوت السعادة Theologia beatorum وهذا تقسيم عتيق لم يعد شائعا الآن .

(٧١) يجب أن نعيد التذكير بأن س . ك . كان يعتقد أن زواجه أمر محظور بـ « فيتو الهى » . ومن ثم فان عريس المقبل يمثل أقرب مشابه لموقفه . والواقع ، أن « اليوميات » تبين أن كل خط من السلوك تعرض للتأمل فى هذه الفترة — بحثه س . ك بحثا جديا — حتى أمكانية الذى يتم بلا زواج — ولكنه اختار الاتحاد الرومانسى « Romantic union » على كل حال الخط الثانى للسلوك .

(٧٢) يعد أكسل وفالبورج اتعس عاشقين واشهرهما فى الأدب الدنماركى . وكانت الكنيسة قد حرمت زواجهما نظرا لقرابتهما الوثنية .

(٧٣) كان هذا فى الواقع هو وضع س . ك .

(٧٤) قارن لسنج فى كتابه Hamburgische Dramaturgie المجلد الاول ، المقال ٢٢ (فى طبعة مالتسان Maltzahn ، المجلد ٧ ، ص ٩٦) .

(٧٥) لم يصف س . ك ، فى اى موضع آخر ، ولا حتى فى

« اليوميات » بالثقة المتواضعة التى التزمت بها ريجينا نحوه ــ بمثل هذا الوصف الكامل الوارد فى هذه الفقرة .

(٧٦) توجد فى القصة الخرافية « الجميلة (Molbeck, No. 7) . ولكنها لا توجد فى أسطورة « آجنس والغرانق » .

(٧٧) قارن كتابه « مراحل » ، ص ١٩٣ ومـا بعدها .

(٧٨) يستخدم س . ك . هنا كلمة « عاطفة » Emotion ، ولكن من الواضح أن ما يدور فى ذهنه هو مايسميه علم النفس الحديث بـ « الليبيدو »

(٧٩) خطاب ضمان على السعادة . انظر « تسليم » شيللر فى المقطع الثالث (تاريخ ــ المرحلة الثانية .

(٨٠) (يورد و . لاورى) الترجمـــــة الانجليزية للفقرة التى أوردهـا باللاتينية فى المتن . لونجوس ، دافنى وخلوى .
المقدمة ٤ ــ قارن « اليوميات IV A 30 .

(٨١) من سوء الحظ أن الكلمة الدنماركية bedrage تعنى الاحتيال لسلب المال defraund ، كما تعنى الخداع فى الوقت نفسه deceive وقد حاولت المباعدة بين المعنيين (على نحو ناقص) باللجوء إلى كلمة « غبش »

(٨٢) وعلى هذا النحو اعتاد س . ك . أن يفكر عن نفسه .. وكم كان عبقريا عندما جعل هذه القصة تتلاءم مع حالته بتلك الحيلة ألا وهى « افتراض » أن ساره كانت رجلا !

(٨٣) « اليهودى » The Jew وهى مسرحية من تأليف كمبرلاند ، وعرضها مرارا كثيرة المسرح الملكى فى كوبنهاجن فيما بين عامي ١٧٩٥ و١٨٣٣ ، ونشرت فى ترجمة انجليزية عام ١٧٩٦ . وتدور المسرحية حول شيفا Scheva اليهودي الذى كان الناس جميعا يعتبرونه شحيحا ومرابيا ، ولكنه كان يقوم سرا بأعمال خيرية عظيمة .

(٨٤) فى كتاب Kirkegaarden in Sobradise .

(٨٥) لم توجد قط عبقرية عظيمة دون شيء من الجنون . والجملة كما استشهد بهـا سنكا Seneca فى كتابه de tranquilite animi

(عن طمأنينة النفس) هى باللاتينية Sine mixtura dementiae . وقد أوردها س . ك فى « اليوميات » (IV A 1480) فى وقت كان يبحث فيه قلقنا عما اذا لم تكن حالته قريبة من الجنون .

(٨٦) لو كان س . ك معروفا على نطاق واسع فى أوروبا قبل بداية هذا القرن ، لأرجعنا اليه ، لا الى دستويفسكى أو الى كاتب محدث آخر الانشغال بمثل هذه الموضوعات .

(٨٧) ينبغى أن نتذكر أن س . ك . كان مهتما اهتماما يصل الى حد الاستغراق فى الاساطير التى حيكت عن فاوست ودونجوان وآهفيرس Ahsverus (اليهودى التائه) ، وهى أساطير اعتبرها نموذجية فى الشك والشهوانية واليأس . ويتناول الهامش التالى موضوعات أخرى اهتم بها فى ذلك الوقت نفسه . وقد الف كتابا ضخما (هو رسالته لنيل درجة الماجستير) عن « مفهوم التهكم » ، كما قام باعداد كتاب آخر عن « الهجاء » .

(٨٨) فى احدى الازمات المالية ، نجح والد س . ك . فى زيادة ثروته عن طريق استثمار سندات اصدرها التاج The Crown (اى على ضمان الحاكم المطلق) ، وفى ازمة لاحقة خسر س . ك . جزءا كبيرا من أمواله حين استثمرها فى نفس هذه الاوراق الائتمانية .

(٨٩) شرف التدمير . فقد قام هيروستراتوس Herostratus — رغبة منه فى تخليد اسمه — الى احراق معبد آرتميس فى افيسوس Ephesus عام ٣٥٦ ق.م .

(٩٠) جلاد الاطفال . وقد اطلق هذا اللقب على ذلك الراهب الاوغسطينى (الذى كان استاذا فى جامعة باريس وتوفى سنة ١٣٥٨) لانه كان يعتنق الراى القائل بأن الأطفال الذين لم يتم تعميدهم يحشرون فى جهنم — بدلا من المطهر Limbo الذى يخصصه لهم الراى الكاثوليكى الشائع . وكلمة Tortor Heroeum معناها معذب (جلاد) الابطال .

(٩١) مسرحيـــة هولبرج Holberg « اراسموس مونتـــانوس » Erasmus Montanus الفصل الاول ، المشهد الثالث : ويقول بيترديكون Peter Deacon عن مساومته فى ثمن المقبرة) ، « أستطيع ان اقول لفلاح : « هل تريد رملا ناعما أم مجرد تربة عادية ؟ » .

(٩٢) الاعمال الكاملة Werke (الطبعة الثانية) ، المجلـد الثامن ، صفحة ١٩٥ وما بعدها ، والمجلد العاشر — الجزء الاول ، ص ٨٤ وما بعدها ، والمجلد الرابع عشر ، ص ٥٣ وما بعدها ، والمجلد السادس عشر ص ٤٨٦ وما بعدها .

(٩٣) انصار جروندفيج Grundtvig الذين كانوا يدعون الى مذهبه فى الكنيسـة .

(٩٤) هذه هى عبارة س . ك ، وفى هذا الموضع تعنى الوثوب من نقطة الى اخرى بهدف انارة الموضوع من كافة جوانبه ، او بغرض تحطيم عدم الوضوح الى شظاياه المتعددة .

(٩٥) مسرحية شكسبير « الملك رتشـارد الثالث » الفصل الثانى — المشهد الاول .

(٩٦) « دفاع » افلاطون Cap. 25 وافضل النصوص هى التى تقرأ هذه العبارة الآن على أنها « ثلاثون صوتا » ، ولكن الطبعات الاقدم تذكر عادة أنها « ثلاثة » أصوات فحسب .

(٩٧) « الحائك فى السماء » The Tailor in Heaven هى احدى حكايات جريم Grimm الخرافية Fairy Tales . وان كان « جريم » يذهب الى أن الحائك مات فعلا (الطبعة الالمانية الثانية ، ج ١ ، ص ١٧٧) .

(٩٨) قارن « اليوميات » . IV A 58

تمـت

بسم الله الرحمن الرحيم

تـــــذييل

لم ترد تضحية ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى القــرآن الكريم فى السورة المسماة باسمه ، وانما وردت فى آيات بينات من سورة الصافات على النحو التالى :

«وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين(٩٩)رب هب لى من الصالحين (١٠٠) فبشرناه بغلام حليم (١٠١) فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما اسلما وتله للجبين (١٠٣) وناديناه ان يا ابراهيم (١٠٤) قـــد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين (١٠٥) ان هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه فى الآخرين (١٠٨) سلام على ابراهيم (١٠٩) كذلك نجزى المحسنين (١١٠) انــه من عبادنا المؤمنين (١١١) وبشرنـــاه باسحق نبيا من الصالحين (١١٢) وباركنا عليه وعلى اسحق ...»

صدق الله العظيم

وهذا النص القرآنى المبين لم يحدد صرحة اسم الابن الذبيح ، ولكننا نستطيع أن نستخلص منه فيما يشبه اليقين انه لم يكن اسحق بحال من الاحوال ، والا لما ذكره بعد قصة الفداء مباشرة فى هذه الآية الكريمة : **«وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين»**. فهذه البشرى كانت تالية لقصة التضحية التضحية ولم تكن قبلها . ونحن نعلم من النصوص القرآنية أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على ابراهيم بعد أن طعن فى السن وكانت امراته ـ وهى السيدة سارة ـ عقيما ، بابن صالح ونبى كريم هو اسحق عليه السلام . وعندما جاءته البشرى فى تلك السن المتأخرة ضحكت سارة من

هذا النبأ لاعتقادها فى استحالته ، وكيف يكون نسل بين شيخ وامرأة عاقر قد بلغت من الكبر عتيا ؟ ولما ولدته ســاره أسمته « يصحق » وترجمتها « يضحك » تريد أن كل من نسمع بولادة هذا الولد من ابويه هذين يضحك لما فى هذه الولادة من الغرابة ، وقد آل أمره الى أن يكون نبيا لقوله تعالى « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » وقوله « وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » .

والضمير فى « عليه » فى الآية السابقة التى أوردناها آنفا عائد الى الذبيح .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » : فالآيتان ابلبشرى باسحاق بعــــد ذكر القصة صريح فى أن اســحـــاق غير الغلام الذى ابتلى الله ابراهيم بذبحه ، وعود الضمير الى الغلام الذبيح وذكر اسم اسحاق معه صريحا .. يقتضى التغاير بين الذبيح واسحاق (١) .

وهذا كلام منطقى سليم لا يداخله أى شك .

أمـــا التوراة (العهد القديم) فيـــذكر اسم اسحاق صريحا فى قصـــة التضحية وانه هو الذبيح الذى نزل عنه الفداء من السماء ، وذلك فى سفر التكوين ، الاصحاح الثانى والعشرين ، على النحو الذى كتب عنه كيركجور انشودته الجدلية « خوف ورعدة » .

فالاختلاف بين القرآن وبين هذا السفر من العهد القديم يقوم فى امرين : تحديد اسم الذبيح فى التوراه باسحق وعدم تحديده فى القرآن ، وان كانت الحجة الواضحة السليمة تشير الى أنه ابن آخر غير اسحق ، والأمر الثانى هو الموضع الذى وقعت فيه هذه القصة . فمن الثابت فى القرآن الكريم ان ابراهيم اسكن اسماعيل وامه مكان مكة قبل مسالة الذبح ، وانها حدثت بنواحى مكة لا فى جبل المريـــا كما يذهب الى ذلك العهد القـــديم (فقال الرب : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه « اسحق » واذهب الى ارض الموريا ...) على حين يذكر القرآن الكريم أن ابراهيم واسماعيل هما اللذان وضعـــا أول بيت للنـــاس « ببكة مباركا وهـــدى للعالمين »

(١) راجع « قصص الأنبياء » تأليف المرحوم عبد الوهاب النجار ، طبعة الحلبى ص ١٠٢ وما بعدها .

(آل عمران : ٩٦) ، ويقول ايضا : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » (البقرة : ١٢٧) .

على اننا نلتمس في العهد القديم نفسه ما يشير الى ان اسحاق لم يكن هو الابن الذى طلب الله من ابراهيم التضحية به . اذ تذكر الآية الثانية من الاصحاح من سفر التكوين قول الرب الى ابراهيم عليه السلام : « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق ... » فكيف يكون اسحق « وحيده » في تلك السنين المتأخرة ؟ اننا نعلم بالتأكيد أن ابراهيم رزق باسماعيل قبل اسحق . فان كان الله قد امر ابراهيم ان يأخذ « ابنه الوحيد » ليذبحه ، فلا يمكن ان يكون هذا الابن اسحق الذى بشر به ابراهيم وهو شيخ كبير . وفي هذه المسألة يقول الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله : « ودليلى على ان الذبيح هو اسماعيل من التوراه نفسها ان الذبيح وصف بأنه ابن ابراهيم الوحيد - أى الذى ليس له سواه ، اذ سخاوة نفس ابراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالا لامر ربه له فى منام ادل على نهاية الطاعة والامتثال لامر الله . وهذا هو الاسلام بعينه . اذ الاسلام هو الطاعة والامتثال ، وهو دين الله فى الأولين والآخرين . واذا رجعنا الى اسحاق لم نجده وحيدا لابراهيم فى يوم من الايام ، لأن اسحاق ولد ولاسماعيل نحو اربع عشرة سنه - كما هو صريح التوراة - وبقى اسماعيل الى ان مات ابراهيم ، وحضر اسماعيل وفاته ودفنه . وايضا فان ذبح اسحاق يناقض الوعد الذى وعد به ابراهيم ان اسحاق سيكون له نسل » (٢) .

اما عن المكان الذى دارت فيه احداث هذه القصة ، فهو مكة ، والدليل يمكن ان يؤخذ هنا ايضا من العهد القديم .

ففى الآية العشرين من الاصحاح ٢١ من سفر التكوين أن ابن هاجر (وهو اسماعيل) « .. سكن فى برية فاران » واخذت له أمه زوجة من ارض مصر » . وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة . وقد ورد فى « لسان العرب » هذا النص : « وفى الحديث ذكر فاران ، وهو اسم عبرانى لجبال مكة - شرفها الله - ذكر فى اعلام النبوة » .

---

(٢) المرجع المذكور ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

ويدل على أن اسماعيل سكن مكة الآية ١٨ من الاصحاح ٢٥ تكوين ونصها فى الترجمة العربية : « وسكنوا من حويلة الى شور التى أمام مصر ، حينما تجىء نحو اشور ، أمام جميع اخوته نزل » .

وحويلـــة : هى خولان . وخولان : قبيلـــة يمانية تســـكن سراة اليمن مما يلى الحجاز ، وهذا دليل على أن مكة تشملها مساكن اسماعيل وبنيه (٣) .

أما سبب ذكر اسحاق فى التوراه بدلا من اسماعيل ، على حين أن الدلائل جميعا تشير الى أن اسماعيل كان هو المقصود بالتضحية ــ فذلك لأن اليهود كانوا حريصين على أن يكون أبوهم الذى انحدرت منه سلالاتهم هو الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه وهو فى حالة صغره (٤) .

وسواء اكان بطل القصة هو اسماعيل كما يشير القرآن الكريم ، أم هو أسحاق ، كما ورد فى التوراه ــ فان هذا الأمر لا يغير من التحليلات الوجودية التى اجراها كيركجور فى أنشودته الجدلية « خوف ورعدة » . ذلك أن هذه التحليلات تنصب على جوهر التضحية التى عاناها « فارس الأيمان » ابراهيم عليه السلام ، والتى لا يقدر عليها الا أولو العزم من الرسل . وانما سقنا هذا التذييل لنثبت وجهة نظر الاسلام فى هذه القصة الخالدة .

فؤاد كامل

---

(٣) المرجع المذكور ، هامشة ص ١٠٤ .

(٤) المرجع المذكور ، ص ١٠٢ .

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب أخرى للمترجم

مؤلفات

١ — الغير فى فلسفة سارتر
٢ — الفرد فى فلسفة شوبنهور
٣ — فلاسفة وجوديون
٤ — آندريه مالرو شاعر الغربة والنضال
٥ — الحان الحرية
٦ — الشخصية بين الحرية والعبودية
٧ — مدخل الى فلسفة الدين (ومقالات أخرى) تحت الطبع
٨ — الوجوديون والسياسة تحت الطبع

مترجمات

(أ) فى الفلسفة

اسم الكتاب	المؤلف
٩ — العزلة والمجتمع	نيقولا بردياتف
١٠ — الحلم والواقع	نيقولا بردياتف
١١ — أصل الشيوعية الروسية	نيقولا بردياتف
١٢ — المذاهب الوجودية	ريجيس جولفيه
١٣ — الله فى الفلسفة الحديثة	جيمس كولينز
١٤ — الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر	جان فال
١٥ — تاريخ الفلسفة الروسية	نيقولاى لوسكى
١٦ — مارتن هيدجر (مقالتان : ما المتيافيزيقا ؟ هيلدرلن وماهية الشعر)	مارتن هيدجر

اسم الكتـــاب	**المؤلف**
١٧ــ خوف ورعدة	سورين كيركجور
١٨ــ مثل عليا سياسية	برتراند رسل
١٩ــ ألف باء النسبية	براتراند رسل
٢٠ــ جماليات الابداع الموسيقى	جيزيل بروليه
٢١ــ الموسوعة الفلسفية المختصرة (مع آخرين)	مجموعة من الكتاب
(ب) فى علم النفس	
٢٢ــ الدين والتحليل النفسى	اريك فروم
٢٣ ــ دراسات معاصرة فى علم النفس	مجموعة من العلماء(تحت الطبع)
(جـ) مسرحيات	
٢٤ــ الذباب	جان بول سارتر
٢٥ ــ رجل الله و ٢٦ــ القلوب النهمة (فى مجلد واحد)	جبرييل مارسل؛ جبرييل مارسل
٢٧ــ روما لم تعد فى روما و ٢٨ــ طريق القمة (فى مجلد واحد)	جبرييل مارسل؛ جبرييل مارسل
٢٩ــ مصباح النعش و ٣٠ــ العالم المكسور (فى مجلد واحد)	جبرييل مارسل؛ جبرييل مارسل
٣١ــ الآباء الاشقياء و ٣٢ــ فرسان المائدة المستديرة (فى مجلد واحد)	جان كوكتو؛ جان كوكتو
(د) روايات وقصص	
٣٣ــ قدر الانسان (نفدت)	آندريه مالرو
٣٤ــ الأمل (جائزة الدول سنة ١٩٦٩) (نفدت)	آندريه مالرو
٣٥ ــ سيدهارتا	هرمان هسه

اسم الكتـــاب	المؤلف
٣٦ـ السر المحرق (نفدت)	ستيفان اتسفايج
٣٧ـ ديزيرية (نفدت)	أينمارو سينكو
٣٨ـ الكنز وقصص اخرى (نفدت)	
(هـ) موضوعات متنوعة	
٣٩ـ ابسن النرويجى (مع الاستاذ كامل يوسف)	برادبردك
٤٠ـ تشيكوف (مع د. عبد القادر القط)	فلاديمير يرميلوف
٤١ـ الاتصال بالجماهير (مع آخرين)	اريك بارنو
٤٢ـ السينما آلة وفن (مع آخرين)	آلبرت فولتون
٤٣ـ أصدقائى الوحوش	بوريس ادر

تصويب الاخطـــاء

الصفحة	السطر	الكلمــة	تصــــــويبها
٥	١٣	كتابه	كتــابته
١١	١٣	لقو	لقـــد
١٢	٦	دلاله	دلالة
١٢	٧	مثل	مثـــلا
١٢	١٧	كلتاب	لكتـــاب
١٣	٥	بوضعه	بوصــــفه
٢١	١٠	متلفها	متلهفـــا
٢٦	١١	الموريا	المريـــا
٣٤	١٥	محلصة	مخلصــــة
٤٢	٧	كاملة	كلمة
٤٤	١٤	تدبح	تـــدبج
٤٦	١٣	احد	احـــدا
٦٢	٤	تعتمد	يعتمـــد
٦٤	١٥	حريكة	الحركة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٤٧٩٣ لسنة ١٩٨٣

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني
تليفون ٩٠٤٦٩٦

سلسلة النصوص الفلسفية

سلسلة النصوص الفلسفية

- (المونارولوجيا) و (المبادىء العقلية للطبيعة والفضل الالهى)
  ليبنتز — ترجمة ودراسة — عبد الغفار مكاوى
- نداء الحقيقة — هيدجر
  ترجمة ودراسة — عبد الغفار مكاوى
- ما الفلسفة ؟ ما الميتافيزيقا ؟ هيلدرن وماهية الشعر — هيدجر
  ترجمة ودراسة — محمود رجب — فؤاد كامل
  مراجعة عبد الرحمن بدوى
- محاضرات فى فلسفة التاريخ — هيجل
  ترجمة ودراسة — امام عبد الفتاح امام
- جامع الحكمتين — ناصر خسرو
  ترجمة ودراسة — ابراهيم الدسوقى شتا
- الفلسفة بما هى علم دقيق — هوسرل
  ترجمة ودراسة — محمود رجب
- مبادىء الفلسفة — ديكارت
  ترجمة ودراسة — عثمان أمين
- المداورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس — باركلى
  ترجمة ودراسة — يحيى هويدى
- جدل الحب والحرب — هرقليطس
  ترجمة ودراسة مجاهد عبد المنعم
- الحب والقوة والعدالة — بول تليش
  ترجمة ودراسة — كامل يوسف
- خوف ورعدة — كيركجور
  ترجمة ودراسة — فؤاد كامل
- ألف باء النسبية — برتراندرسل
  ترجمة ودراسة — فؤاد كامل
- أصول فلسفة الحق — هيجل
  ترجمة ودراسة — امام عبد الفتاح امام
- رحلة الانسان من الجنين الى الجنان — صادق عنقا
  ترجمة ودراسة — ابراهيم الدسوقى شتا
- أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى — ليبنتز
  ترجمة ودراسة — أحمد فؤاد كامل
- فايدروس — أفلاطون
  ترجمة ودراسة — أمير حلمى مطر